المجتمع الإسرائيلي وثقافة الصراع

دكتور

عمرو عبد العلي علام

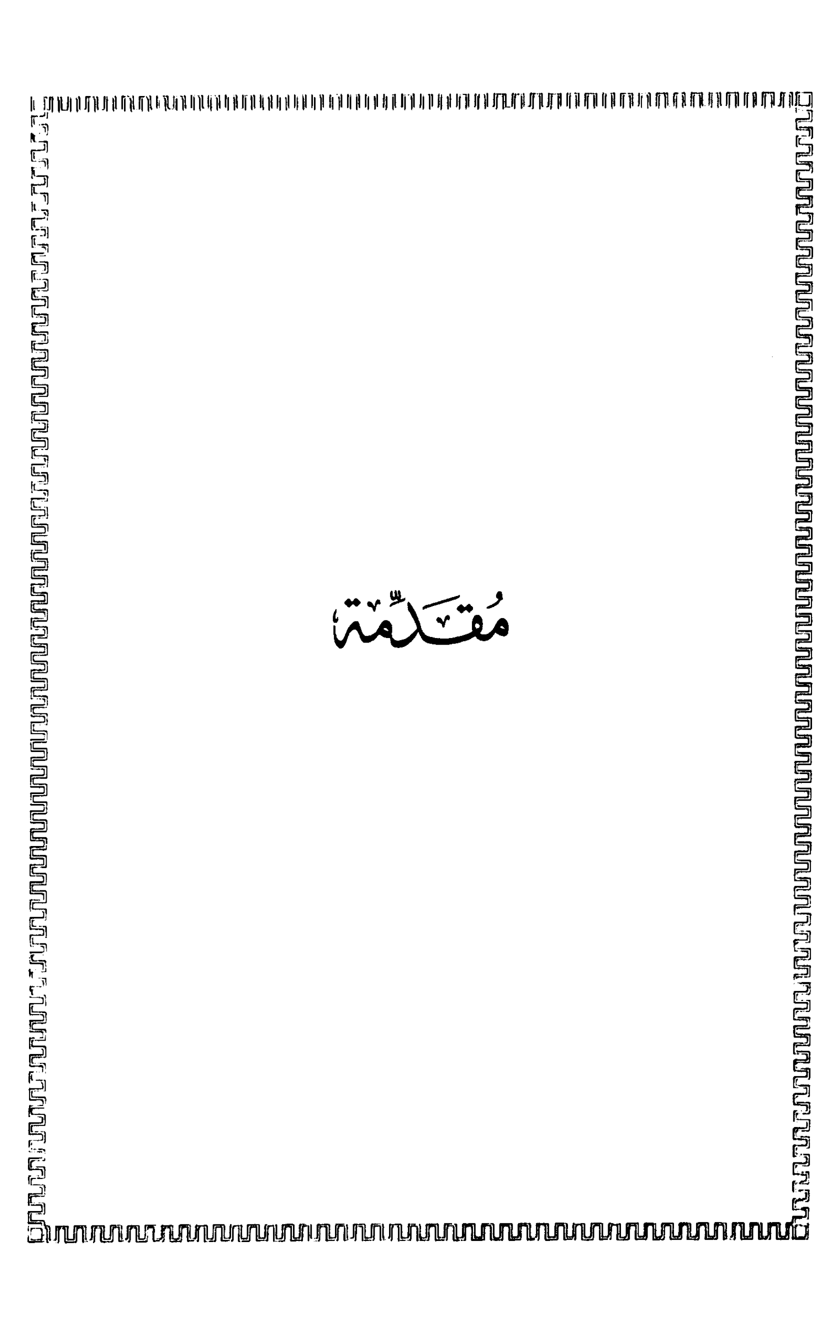


علام، عمرو عبد العلي
المجتمع الإسرائيلي وثقافة الصراع/تأليف عمرو عبد العلي علام
ط١- القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.
١٦٨ ص، ٢٤ سم .
تدمك ٧-١٥٢-٣٨٠-٩٧٧
١ - إسرائيل - الأحوال الاجتماعية
أ - العنوان
رقم الإيداع: ٢٠٠٧/١٧٠٧٤
٣٠٩,١٥٦٩

الناشر



دار العلوم للنشر والتوزيع - القاهرة
هاتف : ٢٥٧٦١٤٠٠(٢٠٢) فاكس: ٢٥٧٩٩٩٠٧(٢٠٢)
البريد الإلكتروني:
daralaloom@hotmail.com daralaloom2002@yahoo.com



مُقَدِّمَة



مقدمة

يتميز المجتمع الإسرائيلى كتجمع من المهاجرين المستوطنين بكونه فسيفساء من المجموعات البشرية التى تفصل بعضها عن بعض خيوط عرقية وثقافية كثيرة، وهو الأمر الذى راهنت الحركة الصهيونية على محوه وذوبانه، ولكنها فشلت فى ذلك فشلًا ذريعًا، وبدا المجتمع الاسرائيلى، الآن، وهو بعيد تمامًا عن الطبيعية التى سعت الصهيونية إلى تحقيقها من خلال ذلك الشعار الشهير (لنكن شعبًا مثل سائر الشعوب)، حيث وقع المجتمع الإسرائيلى فى مستنقع الصراعات الداخلية تارة، والصراعات الخارجية مع دول الجوار تارة أخرى. فمنذ قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ وهى تعيش فى دوامة من الصراع، صراع مع الذات، وصراع مع الآخر.

ويتمثل الصراع مع الذات فى النزاعات الداخلية بين طوائف اليهود حول العديد من القضايا الداخلية، ويعد الصراع بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين. وكذلك الصراع بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، من أشهر أشكال الصراعات التى يتميز بها المجتمع الإسرائيلى. أما الصراع مع الآخر، فيتمثل فى دوامة الحروب التى خاضتها إسرائيل ضد الدول العربية، منذ حربها عام ١٩٤٨ ومرورًا بانتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، ووصولًا بحرب لبنان عام ٢٠٠٦.

وقد وقع الكثير من علماء النفس والاجتماع فى حيرة من أمر هذا المجتمع الذى يعيش على الصراع ويتغذى عليه، إن صح التعبير، حتى بات شعار الصهيونية بالعودة إلى الطبيعية "ولنكن شعبًا مثل سائر الشعوب" أمرًا بعيد المنال، خاصة وأن تعاليم الصهيونية التى تدعو إلى العنف والقسوة فى التعامل مع الآخر، كانت هي السبب الرئيس فى تكوين هذا المجتمع على هذا النحو من التعلق بتلابيب الصراع حتى يستطيع العيش، وبذلك وقعت الصهيونية فى تناقض غريب بين دعوتها إلى الطبيعية ـ لنكن شعبًا مثل سائر الشعوب ـ وبين البعد عنها بغرز مفاهيم الصراع والعنف فى النفس اليهودية من خلال المؤسسات التعليمية الإسرائيلية والأدب الإسرائيلى المجند والتراث الديني اليهودي، كما سنبين لاحقًا.

وفى حقيقة الأمر، كان المقصود من هذه التعاليم هو الصراع العربى الإسرائيلى، فقد سعت الصهيونية دومًا إلى خلق شخصية يهودية جديدة تتناقض تمامًا مع شخصية وصورة اليهودي في بلاد الشتات؛ التى رأت أنها شخصية طفيلية هامشية لا تتناسب مع مرحلة إنشاء كيان يهودى خالص على أرض فلسطين، فهذه المرحلة -فى رأى الصهيونية- تتطلب

شخصية قوية وعنيفة تستطيع أن تحمل السلاح وتطرد وتغتصب وتدمر، فنشرت ثقافة الصراع بين جموع اليهود المهاجرة إلى فلسطين، ودربت النشأ على الجلد والعنف والقسوة وكراهية الجوييم (غير اليهود) من خلال اختلاق الكيبوتسات، حتى صارت الروح العدوانية من أهم السمات التى تتمتع بها الشخصية اليهودية الإسرائيلية.

وفى أحيان كثيرة، تنقلب هذه الروح العدوانية الموجهة في اتجاه الآخر(العربي) ضد الذات (الإسرائيلية)، فشاهدنا عام ١٩٩٥ مقتل يتسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق على يد يهودي إسرائيلي يدعى ييجال عامير. ذلك الإسرائيلي المتدين الذي تأثر بفتاوى وتعاليم الحاخامات اليهود التي تحرم التنازل عن الأراضي العربية التي تم تحريرها من وجهة نظرهم؛ ومن هنا أهدر دم رابين وقتل يهودي يهودي آخر.

وقد عزا بعض المفكرين الإسرائيليين حالة هذا المجتمع إلى الوضع النفسى المعقد الذى يعيشه منذ ولادته العسيرة عام ١٩٤٨، فالحرب تتلوها الأخرى والصراع يتلوه صراع، حتى صار المجتمع الاسرائيلى أشبه بالمجتمع الثكنة أو بالجندي الذي كتب عليه أن يقف مستعداً ومصوباً بندقيته طوال العمر، ومن ثم باتت الطبيعية أمراً بعيد المنال وأملًا لم يتحقق، ولم يكن هذا فحسب، فقد كشف لنا عدد كبير من علماء النفس فى إسرائيل عن مرارة نفسية عميقة تضرب بجذورها فى أعماق المجتمع الاسرائيلى، وشعور بالخطر الدائم حتى فى أوقات الانتصار.

وقد عزا الكثير من المفكرين أيضًا هذه الحالة التى يعيشها هذا المجتمع إلى الظروف والأحداث التى عاشها الإسرائيليون منذ قيام دولتهم. فقد تدخلت الصهيونية فى حياة الإسرائيليين بالفطرة، وتسببت فى كثير من المحن التى وقعوا فيها، لا سيما وأنها سعت منذ البدايات الأولى لقيام الدولة، إلى خلق نمط يهودى جديد يتناقض مع نمط يهود الشتات، فزرعت فى الشخصية اليهودية جينات الصراع والعنف، وهو أمر رأت أنه ضرورى لمجابهة تحديات الاستيطان والمقاومة، وبات المجتمع الإسرائيلى أشبه بالمجتمع الثكنة الذى يستعد فى كل وقت لمعركة جديدة داخليًا وخارجيًا.

من هنا كانت ثقافة الصراع التى نشرتها الحركة الصهيونية بين جماعات اليهود قبل المجيء إلى أرض فلسطين وبعد قيام دولة إسرائيل سببًا رئيسًا في تشكل هذا المجتمع على هذا النحو، فهو مجتمع يجابه محنة القلق الوجودي وحالة الاضطراب بممارسة العنف، وهو ما نشاهده كثيراً في ممارسات الجنود الإسرائيليين ضد الفلسطينيين فى المناطق المحتلة، وفى مشاهد الاقتتال بينهم فيما يتعلق بالصراع الداخلي الإسرائيلي بين المتدينين والعلمانيين.

هذا الكتاب، الذى يحمل عنوان (المجتمع الإسرائيلى وثقافة الصراع) والذي يكشف

لنا عن جوانب الصراع فى الشخصية الإسرائيلية، وينقب في أسبابه ومصادره، يقع فى ثلاثة فصول. جاء الفصل الأول بعنوان (استلهام الصراع من الفكر الصهيوني والمفاهيم الدينية اليهودية داخل المجتمع الإسرائيلي)، وفيه يتم التنقيب فى المصادر التى تشع ثقافة الصراع ضد الآخر العربى فى المجتمع الإسرائيلى، مثل تعاليم الفكر الصهيوني والتراث الديني اليهودي المتمثل في التوراة والتلمود، ومثل المؤسسات التعليمية الإسرائيلية التى تحتوى مناهجها على كثير من دعاوى الكراهية والفكر المعادى للعرب؛ علاوة على ترسيخ مبدأ أراضى إسرائيل المحررة وكثير من المغالطات التاريخية التى تشيعها الصهيونية وإسرائيل فى عقول النشأ الإسرائيلى.

ويتناول هذا الفصل أيضًا، نفوذ الحاخامات اليهود داخل المجتمع الإسرائيلى والفتاوى التى يصدرونها فيما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى، والتي تشكل خطورة كبيرة فى تأثيرها على مسار المفاوضات العربية الإسرائيلية حول الأراضى المحتلة. كما يتناول هذا الفصل أيضًا إشكالية الصراع بين اليهود المتدينين والعلمانيين. وكذلك الصراع بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلى.

ويحمل عنوان الفصل الثاني (المنظور الديني للصراع على الأرض فى فتاوى الحاخامات اليهود)، وفيه تم استعراض وتفنيد الكثير من الفتاوى التى تصدر عن الحاخامات حول الأرض المحتلة، موضوع النزاع، والتي تستند إلى النصوص التوراتية والتلمود، بادعاءات الحق الديني لليهود في فلسطين، ومزاعم (أرض الميعاد) التى وعد بها الرب آباء إسرائيل، إبراهيم وإسحاق ويعقوب..

ويتناول هذا الفصل أيضًا حدود "أرض إسرائيل" الواردة فى العهد القديم وفى مفهوم الحاخامات اليهود، كما يتناول هذا الفصل الروح العدوانية فى هذه الفتاوى وتأصيلها، وكيف شكلت فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين وجدان النفسية الإسرائيلية المتدينة، وتعاظمت، إلى أن تخطت حدود المعقول، حينما تحدثت عن إهدار الدماء، حتى لليهودي، في سبيل المحافظة على (الأرض المقدسة) معتمدين فى ذلك على بعض النصوص المقدسة التى يأمر فيها الرب بقتل النساء والأطفال وتخريب المرتفعات، مثلما جاء في بعض النصوص التوراتية.

أما الفصل الثالث والأخير فيحمل عنوان (توظيف النص الأدبي لحل الصراع على الأرض دراسة في رواية "حمائم فى ميدان ترافلجر" للأديب الإسرائيلي "سامي ميخائيل")، وفيه يتم التطرق إلى عمل روائي لأحد الأدباء الإسرائيليين المعنيين بموضوع الصراع، وهى رواية (حمائم في ميدان ترافلجر) التي صدرت في أبريل من عام ٢٠٠٥

للأديب الإسرائيلي "سامي ميخائيل"، تلك الرواية التى كشفت عن المناطق التي قد يتجاهلها بعض الأدباء الإسرائيليين في أعمالهم الأدبية، على اعتبار أن الأدب مرآة المجتمع، فهي تضع الأبناء فوق كل الأيديولوجيات والقوميات، وتحاول الإجابة عن أسئلة أخلاقية ملحة، وتنقب في الواقع الحقيقي للصراع الفلسطيني الإسرائيلي وتكشف عن الوجه الآخر منه، وتتمركز حول روافد جديدة من المواجهة الفلسطينية الإسرائيلية. وتحذر من تداعياتها بالنسبة للأجيال القادمة.

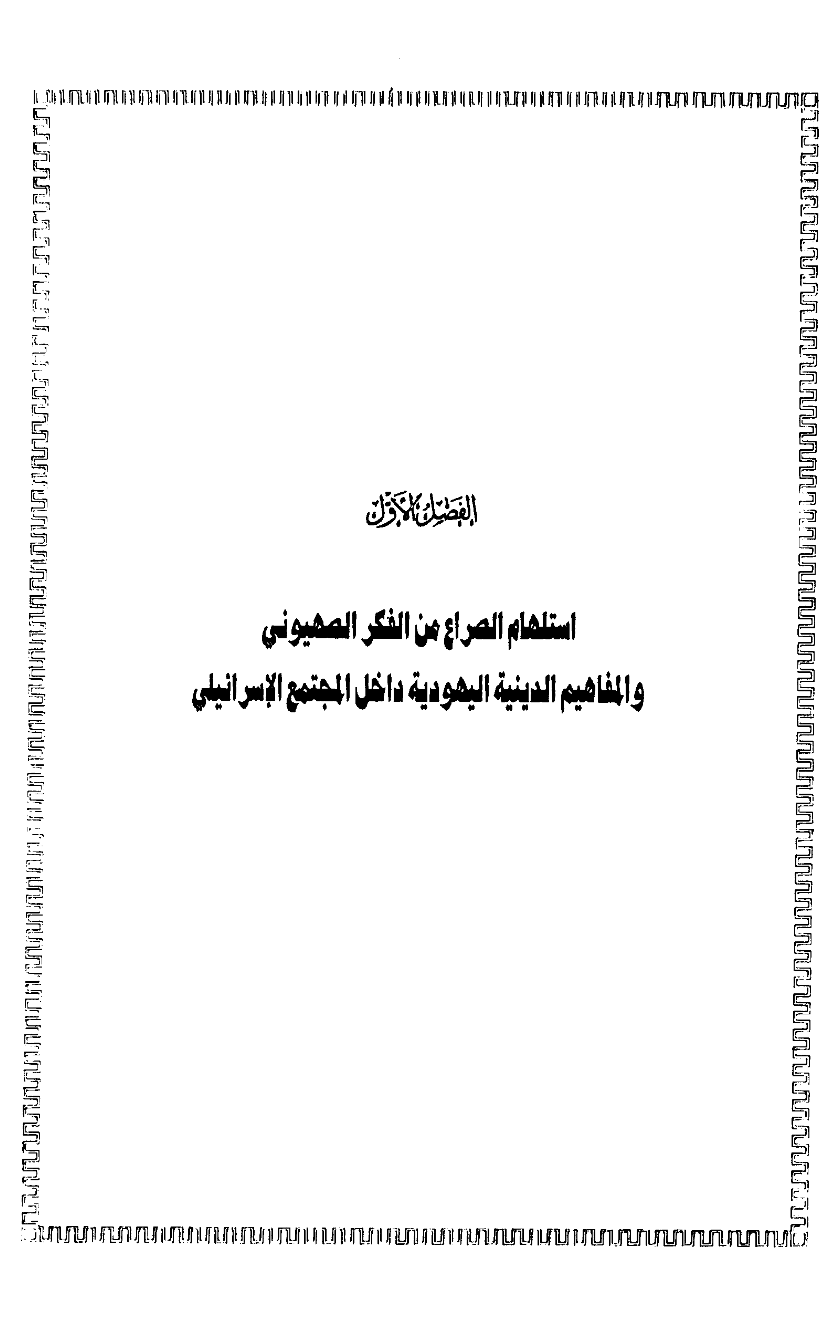
وقد أثارت هذه الرواية ردود فعل قوية على الساحة الأدبية في إسرائيل، وأحدثت سجالًا واسعًا بين النقاد، فيما يتعلق بصلتها برواية الأديب الفلسطيني "غسان كنفاني" (عائد إلى حيفا) ١٩٧٠ والتي تتشابه أحداثها مع رواية ميخائيل، وهو الأمر الذي جعل ميخائيل يدافع عن نفسه قائلًا: "لقد انتهيت من كتابة هذه الرواية الجديدة، وهى رواية تواصل ما انتهت إليه رواية كنفاني، ذلك الأديب الفلسطيني الذي اغتيل في السبعينيات ببيروت على أيدينا. ففي رواية كنفاني تنتهي القصة بلقاء صعب بين البطل وأبيه العربي، حيث يؤكد البطل على هويته بأنه يهودى، وتلك هي أمه وذلك هو أبوه، فيرد الأب: سوف يكون لقاؤك بأخيك في المعركة القادمة. ولكنني أبدأ من هنا من تلك النقطة التي انتهى إليها كنفاني".

كما تتناول هذه الدراسة لهذا العمل الروائي، في هذا الفصل، الانعكاس الحقيقي لواقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، الذى تمثل فى الثكل وافتقاد الأبناء فى الحروب والكراهية المتبادلة بين الطرفين، وثقافة العنف ونبذ السلام كما طرحها ميخائيل، وفكرة المصير المشترك التى طرحها الأديب الإسرائيلى فى هذه الرواية، وحاول من خلالها وضع الحقوق الإسرائيلية على قدم المساواة مع الحقوق الفلسطينية المسلوبة، تحت دعاوى المصير المشترك والقدر المحتوم. وهى محاولة غير عادلة فيها غبن للحقوق الفلسطينية، وتسطيح لإشكالية الصراع.

د. عمرو عبد العلي علام

القاهرة فى يوليه ٢٠٠٧

E.mail: dr_amrelaly@yahoo.com
amrelaly@hotmail.com



الفصل الأول

استلهام الصراع من الفكر الصهيوني والمفاهيم الدينية اليهودية داخل المجتمع الإسرائيلي



استلهام الصراع من الفكر الصهيوني والمفاهيم الدينية اليهودية داخل المجتمع الإسرائيلي

يتميز المجتمع الإسرائيلي كتجمع من المهاجرين المستوطنين، بكونه فسيفساء مكونة من مجموعات بشرية تفصل بعضها عن بعض خيوط عرقية وثقافية وغيرها . وهو الأمر الذي خلق نوعًا من الارتباك والتخبط داخل المجتمع الإسرائيلي، ولم يستطع أحد، حتى الآن، أن يجيب عن ذلك السؤال الشهير : من هو اليهودي؟ وصارت معرفة هوية هذا المجتمع ضربًا من الخيال .

ولليهود بشكل عام رأيان متناقضان في تعريف من هو اليهودي ؟ حيث يرى المتدينون : أن اليهودي هو الشخص المولود لأم يهودية، أو الشخص الذي يعتنق الدين اليهودي وفقًا للقواعد المتبعة والمحددة في الهالاخاه . أما الرأي العلماني : فيرى أن كون الإنسان يهوديًا لا يعنى بالضرورة كونه متدينًا، بحيث يعتبر كل من يعبر عن مشاعر التبعية بثقافته أو تقاليده، أو نشأته أو ميوله، أو بالاضطهاد الذي عاناه، من المتوقع أن يكون يهوديًا .

وتعتبر مشكلة الهوية من أعقد المشكلات التي تواجه المجتمع الإسرائيلي كونه مجتمعًا يختلف اختلافًا بينًا عن سائر المجتمعات الأخرى، فتلك المجتمعات غير الإسرائيلية نشأت بالفطرة، وخضعت لعوامل التطور الطبيعي، وصيغت هويتها بناءً على عوامل تاريخية وجغرافية ونفسية واجتماعية موحدة، يرثها جيل تلو الآخر، ليقدم لنا في النهاية شخصية مستقلة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا المجتمع، وتمثله بانتمائها إليه .

وفي حقيقة الأمر لا يمكننا تطبيق مثل هذه المعايير على المجتمع الإسرائيلي، لأننا سنصطدم بالعديد من العراقيل التي تعوق استخدام النماذج الاجتماعية والنفسية المعدة مسبقًا من قبل علماء الاجتماع وعلم النفس لتطبيقها على أي مجتمع، فالمجتمع الإسرائيلي مجتمع تكدست فيه العديد من الأصول والأجناس واللغات والعادات والتقاليد، فبات مجتمعًا يفتقر للتجانس والهوية ويمتلئ بالمتناقضات والصراعات التي لا تهدأ ولا تفتر .

ويختلف المجتمع الإسرائيلي عن سائر المجتمعات الأخرى في كونه مجتمعًا يفتقر إلى الفطرة الطبيعية في قيامه، ويفتقر إلى وحدة التاريخ ووحدة المكان، فأفراده أجناس مختلفة

قادمة من الشرق والغرب، ومرّ كل منهم بعوامل تاريخية تتباين مع ما مر به رفيقه، بحيث استحال عليهم أن يصيغوا شخصية محددة الملامح، أو هوية مستقلة ثابتة الأركان موازية لتلك التي صاغتها الشعوب الأخرى.

وقد يعتقد البعض أن سمة مثل العدوانية قد تكونا محكًا للحكم على المجتمع الإسرائيلي، إلا أن هذه السمة لا تستطيع وحدها أن تشكل هوية مستقلة ومحددة المعايير لهذا المجتمع؛ لأننا قد نجدها سلوكًا مميزًا لمجتمع آخر. علاوة على أننا لا نستطيع أن نحكم على هوية مجتمع من خلال سمة معينة أو سلوك معين، بل ثمة مجموعة من العوامل والتفاعلات المشتركة يمكننا أن ننطلق منها لتحديد هوية أي مجتمع.

ولا تزال مشكلة الهوية، من أكبر المعضلات التي حاولت دولة إسرائيل أن تجد لها حلاً دون جدوى، لقد واجهت إسرائيل خلال عمر الدولة الذي يجاوز الخمسين عامًا العديد من المشاكل والمتناقضات التي لم تكن الصهيونية ولا قادة دولة إسرائيل يتوقعونها، الأمر الذي خلق العديد من التوترات والصراعات الثقافية والاجتماعية والطائفية والدينية والسياسية والأمنية داخل إسرائيل، وهو ما وضعها بالفعل أمام إشكالية معقدة بالنسبة لهوية الدولة؛ وبات المجتمع الإسرائيلي يتسم بالصراع ويفتقر إلى الاستقرار والهدوء، حتى أن الصراع بات ثقافة مجتمعية يتميز بها المجتمع الإسرائيلي داخليًا وخارجيًا؛ وينهل منها، فهي الخبز والماء؛ إن صح التعبير؛ الذي يمكن من خلالهما أن يعيش وأن يعبر عن وجوده.

وقد عزا البعض حالة العنف والصراع التي تعيشها دولة إسرائيل داخليًا وخارجيًا إلى ثقافة الصراع التي تمتد بجذورها في النفس اليهودية التي تتوق إليها دائمًا وتعبر عن ذاتها من خلالها؛ وقد استغلت الحركة الصهيونية هذه الخاصية الفريدة في تحقيق مآربها على أرض فلسطين؛ حيث لم تكن يومًا إلا حركة يهودية تاريخية استغلت شيوع ما يُسمى بالمسألة اليهودية وهدفت إلى حلها بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، لتعتلي مسرح الأحداث التاريخية المتوترة إبان فترة تكوينها كحركة ثم يسدل الستار في النهاية بتحقيق هدفها الأسمى، وهو قيام كيان يهودي مستقل بعيدًا عن حياة الشتات التي عاشها اليهود ومازالوا عبر فترات تاريخية طويلة تجرع خلالها اليهود - بسبب تكوينهم النفسي - شتى أنواع المعاملة الإنسانية من قبل سلطات البلاد التي كانوا يعيشون فيها، ويشكلون بها محور صراع وصداع في رأس السلطة.

والمتتبع لتاريخ اليهود عبر عصور عديدة، سيجد أن الصهيونية ما هي إلا نتاج لعدة

عوامل وظروف صاغها السلوك البشرى اليهودي على أرض الواقع، فنجحت الصهيونية في استقلال قطار الاضطرابات والصراع حتى نزلت بأرض فلسطين؛ ومن ثم قيام دولة إسرائيل في العصر الحديث. وقد اعتمدت الصهيونية في هذا على إشكالية الصراع وربما العنف المتجذر في النفسية اليهودية والمستمد من عدة مصادر دينية يهودية كالتناخ[1] والتلمود؛ وهى مصادر تحتوى على نصوص دينية شكلت وعى النفسية اليهودية في مسألة الصراع العربي الإسرائيلي تجاه الأرض تارة؛ وفى مسألة الصراع الإسرائيلي الإسرائيلي تارة أخرى، بحيث صارت ثقافة الصراع جزءًا من النفسية الإسرائيلية على المستويين الداخلي والخارجي.

وتشير "أنيتاه شبيرا"، إلى أن الحركة الصهيونية رفعت من شأن "التاناخ" كجزء من العودة إلى المصادر القديمة وكمحور رئيسي من محاور الصراع؛ وأشارت إلى أن تجديد اللغة العبرية، وكذلك تدريس "التاناخ" كانت من العناصر التي عكفت عليها الحركة الصهيونية الآخذة في التبلور على انتقائها من داخل الثقافة التقليدية[٢]، وبالتالي كانت النصوص الدينية حول أرض الميعاد والأرض المقدسة من المكونات الرئيسية لادعاء الحق الديني لليهود في فلسطين؛ ومن ثم استغلال ثقافة الصراع الدينية لتحقيق الوعد الإلهي بالأرض؛ بدفع يهود الشتات في اتجاه فلسطين (أرض الميعاد)؛ والتأكيد على أن "التاناخ" مكون رئيسي من مكونات الهوية، وبعث الروح القومية.

ولما كان هدف الحركة الصهيونية منذ البداية هو إقامة كيان يهودي خالص على أرض فلسطين؛ الأرض التي تدر لبنًا وعسلاً؛ اعتمدت على الإجراءات السياسية والعملية والدينية المصحوبة بالبعد الثقافي في مجالات التعليم والأدب، واعتمدت على تثقيف جموع اليهود المهاجرة إلى فلسطين بثقافة الصراع (الصراع حول الأرض والصراع من أجل البقاء)، لأنها قد أيقنت أنها ستواجه عقبات عديدة في تنفيذ مخططاتها على أرض فلسطين وفي المنطقة العربية على كافة المستويات السياسية والنفسية والمجتمعية والديموغرافية.

ويمكننا أن نلمس ثقافة الصراع التي نشأ عليها المجتمع الإسرائيلي ومصادرها من خلال بعدين رئيسيين وهما:

---

(١) اسم من أسماء الكتاب المقدس لدى اليهود بجميع أسفاره، ومن أسمائه الأخرى: الـ "مقرا"، (أي التوراة)، و"سفاريم" (أي أسفار)، و"هسفاريم هقدوشيم" (أي الأسفار المقدسة)، و"كيتفيه هقودش" (الكتب المقدسة). وهو اختصار للكلمات: توراة وأنبياء، وكتب.

(٢) أنيتا شبيرا: هاتاناخ فهازهوت هايهوديت (التناخ والهوية اليهودية)؛ دار نشر "ماجنس"، إسرائيل، ٢٠٠٥، (ص٤٢).

أولاً: الصراع العربي الإسرائيلي:

اكتشف المهاجرون الصهاينة حال قدومهم إلى أرض فلسطين، أن هذه الأرض التي جاءوا إليها، هي أرض مأهولة بالسكان العرب الفلسطينيين، وأنها ليست كما زعمت الصهيونية (أرض بلا شعب)، الأمر الذي جعل هؤلاء المهاجرين يتعرضون منذ البداية لحالة من الصراع مع كل من الأرض بطبيعتها القاسية حينًا، ومع الإنسان العربي الفلسطيني الذي فطن لوجود من يتربص به حينًا آخر.

وقد أخذت حالة الصدام مع العربي الفلسطيني، اتجاهات عديدة فرضتها الظروف والأحداث التي وقعت على مدى القرن العشرين بين كل من اليهود والعرب، حيث حاول كل طرف من أطراف الصراع أن يثبت حقه في الوجود على هذه الأرض، وأن يدافع عن استمرارية هذا الوجود بعدة وسائل على المستوى الثقافي والسياسي، ومستويات أخرى.

ويمكننا القول، إن المهاجر اليهودي الصهيوني قد ادعى لنفسه حقوقًا تاريخية على هذه الأرض، محل النزاع تارة، وحقوقًا دينية تارة أخرى. ومن هنا أصبح الفلسطيني في نظر اليهودي الصهيوني، ثم بعد ذلك الإسرائيلي، هو بمثابة الوجه الثاني الذي يمكن أن يرى من خلاله مدى صحته أو بطلان ادعاءاته.

وهو ما يعني؛ أن المهاجرين الصهاينة نظروا للصراع مع الفلسطينيين على أنه رهان على نجاح الأيديولوجية الصهيونية في تحقيق أحلامها وآمالها على أرض فلسطين، بادعاء الحق الديني تارة، والحق التاريخي تارة أخرى. من هنا أخذ الصراع العربي الإسرائيلي اتجاهات عديدة انصبت جميعها في آلية إدارة الصراع على كافة المستويات الإدراكية والمعرفية والثقافية.

وقد برز أن الصهيونية أخذت على عاتقها؛ منذ البداية؛ مسألة تثقيف العَقل اليهودي بثقافة ادعاء الحقوق الدينية والتاريخية لليهود في فلسطين، وبذلت في ذلك جهودًا مضنية على مستوى الأدب الصهيوني المجند لخدمة أهداف الحركة، والذي كان دوره ينحصر في تبرير كافة الممارسات الصهيونية على أرض فلسطين قبل قيام الدولة وبعدها، وفي الترويج للفكرة الصهيونية وهدفها في إقامة كيان يهودي خالص على أرض فلسطين؛ وفي تشجيع اليهود على الهجرة إليها تنفيذًا لفكرة الوعد الإلهي. وسارت دولة إسرائيل على الدرب، حتى صارت ثقافة الصراع من أجل البقاء مكونًا رئيسًا من مكونات النفسية الإسرائيلية،

ويعتبر الخبراء والمحللون الإسرائيليون أن هذه الثقافة هي الوقود الضروري لدفع عجلة الصراع إلى الأمام من أجل البقاء.

وكانت هذه الثقافة سببًا رئيسًا في عيش المجتمع الإسرائيلي حتى الآن محنة القلق الوجودي، فالحرب تتلوها الأخرى، وديمومة الصراع العربي الإسرائيلي لا تنتهي؛ وبالرغم من أن الحروب الإسرائيلية كانت تقطعها بين الحين والآخر فترات من التوقف، فإن هذا لم يؤد على الإطلاق إلى جعل المجتمع الإسرائيلي يعيش في حالة من الاستقرار، شأنه شأن المجتمعات الأخرى.

ويمكننا أن نرجع حالة الشكوكية والصراع الدائم التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي، ويعيش معها محنة القلق الوجودي؛ إلى الأسباب التالية:

(١) المناهج التعليمية في المدارس الإسرائيلية:

برز الاهتمام بالطفل الإسرائيلي بعد إعلان دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ على أساس أنه نبتة قابلة للتشكيل؛ وزرعة يمكن ريها بثقافة الصراع.

ومن هنا كان للطفل الإسرائيلي أهمية قصوى في ترسيخ فكرة الرواد الصهيونيين حول "القومية اليهودية". وثمة نظرة عابرة على محتويات المناهج التعليمية التي تدرس للأطفال في المدارس الإسرائيلية، تكشف لنا عن محاولات ترسيخ قيم الصراع في الطفل اليهودي. وعلى سبيل المثال؛ نجد مجموعة كتب "الأرض الطيبة" التي صدرت عن وزارة التعليم الإسرائيلية عام ١٩٨٦ تدرس بالمدارس الدينية اليهودية وتحت عنوان "لمن تنتمي أرض إسرائيل؟". ويجيب المؤلف على أن أرض إسرائيل تنتمي لليهود، لكن جاءت بعض الشعوب (كالإسماعيلية) ويعنى العرب وكانوا قليلين جدا؛ إلا أنهم جعلوها خرابا.

وفي كتب الجغرافية أيضًا ورد أن "الجولان" و"الجليل بأقسامه" أراضى الإسرائيلية. كما تحاول هذه الكتب التعليمية إظهار حضارة اليهود في تعمير الأرض واستزراعها في مقابل إظهار التخلف العربي وتصويره بأبشع الصور؛ وإسباغه بصفات الجهل والتخلف والقذارة، وهى محاولات صهيونية قديمة، تلجأ إليها إسرائيل من أجل تغييب الطرف العربي بل وتهميشه حتى يسهل التعامل معه في مراحل الصراع المختلفة. وتعد مسألة تثقيف الأطفال بأبعاد الصراع مرحلة مهمة في إعدادهم النفسي من أجل مواجهة العرب الفلسطينيين حال قيامهم بالدفاع عن أرضهم المغتصبة؛ وهو ما نلاحظه في ممارسات العنف التي يلجأ إليها جنود الاحتلال ضد الفلسطينيين.

إن التعليم الإسرائيلي لا يتجه إلى تربية الناشئة أو تثقيفهم أو تعليمهم بل يغذي الأجيال اليهودية القادمة بالعنف، وكراهية الآخر المتمثل بالفلسطيني والعربي المحيط بالكيان الصهيوني المحتل، ويقدم شرائح من الخريجين اليهود وقد تمكنت العنصرية المنغلقة والمتعصبة قوميًا من عقولهم وقلوبهم، فالتربية العسكرية (عسكرة التعليم) والأيديولوجية الصهيونية، وعملية السلام، وتاريخ تأسيس دولة اليهود في فلسطين لا يمكن أن تكون من الهوامش، ولذا يربط التعليم القتل للآخر بالنصوص الدينية والأمثلة التاريخية وفتاوى الحاخامات حتى تحول القتل إلى عبادة، ثم طبق ذلك كله على أرض الواقع فتمخض منه جيل عسكري لا يؤمن إلا باليهود وخصوصيتهم (شعب الله المختار) و (أرض الميعاد) و(بناء الهيكل) و(إنقاذ العالم). أضافه إلى المحافظة على روح الكراهية اليهودية للأمم والمجتمعات الأخرى، وتضخيم معاناتهم، واحتكارهم للألم والتفوق والوحدة والتشتت مع ما يعضد ذلك من وجود إله خاص بهم مدجج بالسلاح يسره منظر الدماء[(١)].

وهكذا تمثل مناهج التعليم الإسرائيلية دورًا مهمًا في الصراع العربي الإسرائيلي، ويمكن القول إن التسلسل التاريخي لليهود وفق المرويات التوراتية أخذ ثلاثة مصطلحات لمعنى واحد: (العبرانيين) حين بدأ بإبراهيم - ﷺ -، والإسرائيليين نسبة إلى إسرائيل "يعقوب" - ﷺ -، ثم (اليهود) من بقايا العبرانيين وسبط يهوذا المشهور. أما فيما يخص المسمى الأول فلم يبق منه سوى العبرية كلغة يتكلم بها اليهود وتستخدم في أديانهم، بينما ارتبط المسمى الثاني بغزو أرض كنعان والاستيطان في الأرض وتوزيعها على الأسباط الأثنى عشر. أما المسمى الثالث: (اليهودية) فله ارتباط وثيق بإسرائيل الذي تحول من اسم إنسان هو يعقوب إلى مجموعة من الأتباع، وأخيرًا تحول إلى بقعة من الأرض أصبحت رمزًا للاستيطان.

وفي ضوء هذا التسلسل التاريخي لليهود، فقد قُسِّم التاريخ الإسرائيلي حسب المرويات التوراتية إلى عهود يرتبط كل عهد بحدث معين أو تاريخ ذي مغزى له أثر كبير في هذه الحقبة الزمنية، وقد قسم على النحو التالي[(٢)]:

١ - عهد الآباء "البطريركية" إبراهيم، إسحق، ويعقوب.

---

(١) د. عبد الله بن سعد اليحيى: التعليم في إسرائيل وتربية العنف؛ http://www.almoslim.net/tarbawi/show_article_main.cfm?id=105

(٢) أنظر: مناهج التعليم الإسرائيلية والصراع العربي - الإسرائيلي بين حقبتي الحرب والسلام (١٩٤٨ - ١٩٩٦م) إصدارات مركز دراسات الشرق الأوسط - الأردن

٢ ـ مرحلة العبودية في مصر .

٣ ـ الخروج من مصر في القرن ١٣ ق . م بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ، والتيه في صحراء سيناء .

٤ ـ غزو أرض كنعان وتدمير المدن الكنعانية مثل أريحا، والاستيطان في الأرض بعد توزيعها على الأسباط .

٥ ـ عهد القضاة من موت يشوع بن نون ـ عليه السلام ـ إلى النبي صموئيل .

٦ ـ الملكية الموحدة وقد مثلها ثلاثة ملوك : شاؤول ـ داوود ـ سليمان ١٠٥٠ ـ ٩٥٣ ق . م .

٧ ـ انقسام المملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة في الشمال وتضم عشرة أسباط، ويهوذا في الجنوب وتضم سبط يهوذا وبنيامين وعاصمتها القدس .

٨ ـ تدمير مملكة إسرائيل على يد سرجون الملك الآشوري ٧٢٢ ق . م .

٩ ـ دمار مملكة يهوذا على يد نبوخذ نصر عام ٥٨٦ ق . م ومرحلة السبي .

١٠ ـ العودة من السبي بناءً على أمر قورش الفارسي، وإعادة بناء الهيكل وتجديد العبادة بعد سقوط بابل عام ٥٣٥ ق . م في يد الفرس .

١١ ـ عهد "أستير" اليهودية التي أصبحت ملكة فارس بعد زواجها من الملك "أحشويرش" ودورها في إنقاذ اليهود من حملة الإبادة التي نظمها "هامان" القائد الأرمني لجيش الفرس .

١٢ ـ المرحلة المكابية والتي بدأت عام ١٧٥ق . م وانتصار (يهودا المكابي) على سلوقس نيفا كتسو عام ١٦٠ ق . م وقصة مقتل يهودا المكابي وما يقال عن السعي للاستقلال اليهودي عن السلوقيين إلى أن جاء القائد الروماني بومبيوس عام ٦٣ ق . م وقضى على الأسرة المكابية المعروفة بالحشمونية في عام ٣٧ ق . م .

ونلاحظ أن كتب التربية والتاريخ والعلوم الاجتماعية تركّز على هذه المرحلة لتظهر روحَ التحدي عند اليهود والتصدي للبطالسة وإظهار البطولة لليهود .

١٣ـ خراب الهيكل الثاني وتدميره على يد الإمبراطور تيطس الروماني عام ٧٠م .

١٤ـ بداية العصيان على الرومان ونهايته عام ١٣٢م بالقضاء على الثائر (باركوخبا)[1] أو

(١) ثورة بركوخبا : حدثت هذه الثورة في فترة الحكم الروماني بعد الدمار الذي لحق بمدينة القدس، بعد حصارها وتدمير المعبد الثاني ـ الذي حدث عام ٦٩ ميلادية ـ وسبى عدد من اليهود، حينما انتهز =

انتصاره في قلعة بيتار التي عرفت تاريخيًا بـ (متسادا) وتبرز هذه القصة بشكل كبير ؛ لتربي الأجيال على عدم التنازل عن ما يحتل حتى لو كان صغيرًا ومهما كانت الظروف والمسوِّغات .

ونلاحظ في هذه المادة التي تحتوى عليها هذه النصوص أنها تحتوى على صراعات اليهود منذ فجر التاريخ ؛ وهو أمر مقصود لتزكية هذه الروح لدى الطفل الإسرائيلي ، والتنبيه عليه أنه في مرمى الهدف .

ويقول يوري إيفانوف في كتابه : " الصهيونية حذار ! " : إن دائرة الأفكار التي يسمم بها الصهاينة عقول أطفالهم والتي يرجى منها أن تستقر في إفهامهم تبدأ عادة بالتوراة . ويؤكد أندريه شوراكي في كتابه : " دولة إسرائيل " أن جميع اليهود يعمدون إلى الرجوع في كل مناسبة إلى الماضي الذي تضمنته التوراة وروح الأنبياء ، وإلى الدور التاريخي والروحي للشعب اليهودي ؛ أي إنهم يرجعون إلى قلب التراث الضخم الروحي والفكري والأخلاقي والقانوني للتاريخ العبري . أما فيكتور مالكا فيرى في كتابه " مناحيم بيغن : التوراة والبندقية " أن اليهود استقوا من توراتهم تعليمات في أعمال العنف واستخدام القوة . فقد جمعت قوانين الحرب في العهد القديم في سفر التثنية ، وهي تحدد لهم أسلوب الاستيلاء على المدن ، وأسلوب التعامل مع أهلها ، وهذه القوانين يعدها القادة الإسرائيليون مصدرًا للوحي وشريعة مقدسة لاستئناف البعث اليهودي في فلسطين ، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب[1] .

وهكذا يبدو أن التعليم في الإسرائيلي لا يتجه إلى تربية الأطفال بل يغذيهم بثقافة العنف من خلال المناهج المدرسية ، ويزرع فيهم كراهية الآخر المتمثل في الفلسطيني والعربي ، ويقدم لنا أجيالاً من الشباب الإسرائيلي ؛ حتى تمكنت هذه الثقافة مِن عقولهم ، وهو أمر هدفت إليه الأيديولوجية الصهيونية . لذا ، يرتبط التعليم في إسرائيل بإشكالية قتل

=أحد الكهنة اليهود ويدعى " شمعون اللاوى " ، الذي عرف فيما بعد ببركوخبا ، انشغال روما بحروبها مع الفرس (البيزنطيين) وضعف الحكومة المركزية ، فقاد تمردًا محدودًا ونصب نفسه ملكًا على اليهود هناك مدعيًا أنه " المسيح المنتظر " ، ولكن سرعان ما قضت روما على هذا التمرد بقيادة أدريان الذي هدم ما كان من مبان في القدس وأعاد بناءها من جديد على الطراز الروماني .

(انظر : د. منى ناظم ، فلسفة التاريخ الإسرائيلي في مفهوم الرباني نحمان كروخمال ، دراسة نقدية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص٧٦) .

(١) أنظر : نائل نخلة : هكذا يربي اليهود أبناءهم ؛ مجلة البيان ، ٥/ ٥/ ٢٠٠٦ .

الآخر معتمدًا في هذا على النصوص والمفاهيم الدينية وفتاوى الحاخامات اليهود؛ حتى صار القتل عبادة وقربانًا من القرابين التي تقدم للرب طمعًا في إرضائه، وعلى سبيل المثال يتعلم الأطفال الإسرائيليين في المدارس الأبجدية العبرية من خلال الفعل العبري البسيط (قتل)، وهو أمر يشير إلى ثقافة الصراع والعنف التي تتبناها المؤسسة التعليمية الرسمية في إسرائيل لتخلق لنا جيلاً من الشباب الإسرائيليين يتسم بالعنف والكراهية تجاه غير اليهودي وهو ما نلاحظه في ممارسات جنود الاحتلال الإسرائيلي في المناطق الفلسطينية المحتلة التي تتسم بالقسوة والعنف في التعامل مع الفلسطينيين.

ولعلنا نلاحظ أن هذه المناهج التعليمية الإسرائيلية تحاول تقديم الصراع والحرب على أنهما ضرورة مهمة للبقاء والمحافظة على اليهودية والدولة والمستوطنات، حتى وإن كانت هذه المناهج تحتوى على مغالطات تاريخية معروفة؛ فالهدف الرئيس هو البقاء والمحافظة على ما حققه الآباء الصهيونيون. وهو أمر قد يتحقق من خلال إعداد جيل قوى يستطيع المحافظة على ما حققته الصهيونية من إنجازات، جيل يتحلى بثقافة الصراع والعنف حتى يكون قادرًا على المواجهة والنصر بأي ثمن. من هنا كانت فكرة الصهيونية في إعداد ورثة لجيل المؤسسين الصهيونيين، شريطة أن يكونوا بعيدين كل البعد عن صورة اليهودي القديم في بلاد الانتشار اليهودي.

ومن هنا أيضًا كان هناك سعى دائم من أجل اختلاق شخصية يهودية جديدة تتحلى بالعنف والكراهية والقوة، شخصية تتناسب مع طبيعة المرحلة الجديدة في استعمار أرض فلسطين؛ واغتصابها.

وقد نستطيع أن نتفهم طبيعة المناهج الإسرائيلية والهدف من محتوياتها حول الصراع إذا عدنا إلى الوراء قليلاً في محاولة للإجابة على السؤال التالي: إذا كانت الصهيونية قد رفضت "اليهودي الجيتوى(*)" من حيث كونه شخصية طفيلية هامشية، فما هي الصورة البديلة التي سعت إلى إحلالها مكانها؟ ما هذا الكيان المثالي المطلق التي بشرت به الصهيونية، هذا

(*) الجيتو: يعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية في العالم، وهو عبارة عن حي أو عدد من الشوارع المخصصة لإقامة اليهود. أما بالنسبة لأصل الكلمة فمن المحتمل أن تكون قد استخدمت لأول مرة لوصف حي من أحياء البندقية، والذي يقع بالقرب من مسبك لصهر المعادن يسمى "جيتو أو جتو" كان محاطًا بأسوار وبوابات وخصص كمكان لإقامة اليهود عام (١٥١٦).

النمط القومي الخالص أو "اليهودي الذي هو يهودي مائة في المائة "على حد قول بن جورين؟

عندما يحاول المرء الإجابة عن هذه التساؤلات، فإنه يواجه حقيقة أخرى غريبة، هي أن الصهاينة المعارضين للاندماج حاولوا إعادة صياغة الشخصية اليهودية، وتحسين وضع اليهود ليجعلوا منهم شعبًا مثل أي شعب آخر، على حد تعبيرهم. ولتحقيق هذا الهدف سعوا إلى "تطبيع اليهود" حتى ينتموا للعصر الحديث، أي أنهم حاولوا تحديث الشخصية اليهودية مثلما حاولوا تحديث اليهودية[1].

فكان من الأهداف الرئيسة التي سعى إلى تحقيقها رواد الهجرتين الثانية والثالثة، هي خلق نمط يهودي جديد على أرض فلسطين، رغبة منهم في أن يكون أبنائهم بعيدين بقدر الإمكان عن صورة اليهودي القديم، "يهودي الشتات"[2]؛ ذلك لأن هذه الشخصية السلبية - شخصية "اليهودي الجيتوى" - لا تتناسب مع الفكر الصهيوني الذي يتطلب شخصية قوية تتحلى بصفات مثل العنف، والرغبة في التوسع، وفى الانتقام والقتل. وغير ذلك. وبالتالي سعت الصهيونية إلى خلق نمط جديد لشخصية اليهودي، مؤكدة رفضها لشخصية اليهودي الجيتوى، وذلك تمهيدًا لظهور المارد الجديد وهو النمط الصهيوني الجديد على أرض فلسطين.

ويقول د. قدري حفني في معرض تناوله للرفض الصهيوني لليهودي الجيتوى وظهور النمط الصهيوني الجديد: "قد تجبر تلك الأقلية على الإقامة قسرًا في أحياء الجيتو ولكنها لا تجعل من ذلك محلاً مختارًا، وما أن تواتيها فرصة الانطلاق منه حتى تنطلق دون تردد. بل إنه لمن المفهوم تمامًا من الناحية السيكولوجية أن تقدم تلك الأقلية، ما أن تجد سبيلاً إلى ذلك، على التمرد والثورة على كل ما يمت بصلة لتلك الحياة... نظامها الأسرى.. نظامها الديني.. نظامها التعليمي.. نظامها التشريعي. أي بعبارة أخرى، ولو شئنا استخدام التعبير الاصطلاحي؛ فإن تلك الأقلية لابد من أن تتخذ صورة الجماعة الخارجة على التقاليد، والعادات، والقيم والأفكار، والأنماط السلوكية الشائعة لدى الجماعة الأصلية التي تمثل الأغلبية. وما أن تواتي الفرصة ذلك الخروج الجماعي، حتى يتخذ لنفسه صورة

---

(١) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، دراسة في علم اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد (٦٠ - ٦١) يونيو ١٩٨٨، (ص ١٧٠).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠ (ص ٢٣).

الجماعة الجديدة التي لا يربطها بالجماعة القديمة الأصلية سوى العداء والتناقض[1] لذلك كان الفكر الصهيوني حريصـاً على طمس ملامح اليهودي الجيتوى، والقيام بعملية "إحلال محل"، بمعنى تجريد هذه الشخصية اليهودية الجيتوية من الخصائص النفسية السيئة العالقة بها، وخلق خصائص جديدة تتوافق وروح التحديث المخطط للأيديولوجية الصهيونية، ومن هنا خلقت شخصية "الصبار"[*] Sabra التي أصبحت بمثابة الشخصية الرئيسة والمحورية في الأدب العبري الحديث، وهي الشخصية التي حلم بها الآباء المؤسسون للاستيطان الصهيوني لتقوم بتحقيق أحلامهم، وألقوا على كاهلها مهمة أن تحقق في حياتها نبوءة الأجيال الصهيونية[2] فما هي الملامح التي يتسم بها هذا "اليهودي الصهيوني"؟

إذا حاولنا أن نتعرف على الملامح الخارجية لليهودي الصهيوني الذي يتجلى في صورة "الصبار"، سنجدها تبدو في الملامح الآتية: طويل، له خصلة شعر على جبينه، قوى ومتين أسود، ذو عينين لامعتين، شعره أصفر أو رمادي، والملابس: بساطة لا مبالية، صندل، بنطلون، قبعة تمبل[*][3].

---

(١) نقلاً عن د. رشاد عبد الله الشامي الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، الكويت، العدد١٠٢، يونيو ١٩٨٦. (ص ٦٧).

(*) الصبار: أخذ ذلك المصطلح يتردد في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة واستخدم للمرة الأولى في مدرسة "هرتسليا" الثانوية في تل أبيب، وهي مدرسة كانت تضم بين تلاميذها اليهود شبانًا من مواليد فلسطين إلى جانب الذين هاجروا مع آبائهم، والذين كانوا غالبًا ما يتفوقون على أولئك المولودين في فلسطين بسبب قدومهم من حضارة أكثر تقدمًا. وفي محاولة لتعويض الشعور بالنقص كان اليهود من مواليد فلسطين، يلجأون إلى الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بأيديهم، ويدخلون في مسابقات التقشير هذه مع أبناء المهاجرين، وكانت تنتهي عادة بأن يكسب أبناء اليهود من مواليد فلسطين هذا التحدي، ويتمكنون من نزع القشرة الشائكة ليحصلوا على الثمرة الحلوة. ومن هنا التصقت كلمة "التين الشوكي" (الصبار) بهذه الفئة من اليهود مواليد فلسطين، ثم انتشرت التسمية لتغطى ما يسمى بجيل "الصباريم" الذي أصبح يقصد به أولئك اليهود الذين ولدوا في فلسطين رغم تخلفهم الحضاري، إلا أنهم أكثر قدرة على تحمل المشاق.

(أنظر د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، ص ٢٩)

(٢) نفس المرجع (ص ٢٣).

(*) تمبل: هي كلمة عامية عبرية تطلق على غطاء الرأس المميز للشخصية الإسرائيلية "الصبار"، وهي من الكلمة العامية الإنجليزية "دومبل".

(٣) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ١٠٦).

ويتميز جيل الصابرا من الذكور، بصفة عامة، بأنهم طوال القامة وأقوياء، لفحتهم أشعة الشمس، ذوى اتجاه عدواني إزاء الحياة والناس[1].

وقد اختلفت السمات الشخصية التي تتسم بها هذه الشخصية الصهيونية عند بعض المحللين لهذا النمط الصهيوني. وعلى سبيل المثال يوردها أحمد محمد رمضان في كتابه "إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر" في النقاط التالية[2]:

(١) الميل إلى العنف.

(٢) التمركز حول إسرائيل زمانيًا ومكانيًا (الجيتو الجديد).

(٣) طموحهم منصب على الأمان المادي والحياة المريحة.

(٤) الانتماء القوى إلى إسرائيل ومجتمعها.

(٥) عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودي الحديث والضيق بالحديث عن الرواد الأوائل.

(٦) احتقار المهاجرين القدامى والجدد (والعرب طبعًا).

والمقصود بالطبع، في هذه السمة الأخيرة، هم هؤلاء المهاجرون الشرقيون، ذلك لأن جيل الصباريم من "الإشكنازيم"[*] ينظرون إلى جيل الصباريم من "السفارديم"[*] نظرة فوقية. وعلى سبيل المثال، ذكر "هربرت روسكول" وزوجته "مارجاليت باتاى" - وهما من مواطني إسرائيل - في كتابهما (المليون الأول من الصابرا، صورة للإسرائيليين مولدًا ووطنًا) أن "الصابرا" هم الإسرائيليون الصغار من أبناء وبنات المهاجرين من كافة بقاع الأرض. وأن أكثر ما يقلقهم هو ارتفاع معدل مواليد اليهود الشرقيين الذي يبلغ ثلاثة أضعاف نظيره لدى اليهود القادمين من الغرب، مما سوف يجعل في إسرائيل شعبًا متخلفًا داكن البشرة(٣).

---

(١) جون لافين: العقلية الإسرائيلية، دار نشر كاسل ليمتد، لندن، ١٩٧٩، (الهيئة العامة للاستعلامات، كتب مترجمة)، (ص ١٨٣).

(٢) أحمد محمد رمضان: إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر، دراسة في سيكولوجية التاريخ اليهودي وعلاقته بفلسفة التاريخ الإنساني العام، دار الكرمل للنشر، ١٩٨٧، (ص ٢٤).

(*) إشكناز: كلمة تعنى بالعبرية ألمانيا. وهى تطلق على كل اليهود المنحدرون من أصول ألمانية وفرنسية، ويمتد شمول التسمية لتطلق كذلك على يهود أمريكا الشمالية والجنوبية.

(*) سفارديم: صيغة الجمع بالعبرية من الاصطلاح "سفاردى" نسبة إلى "سفاراد" (أسبانيا). وهو اصطلاح يطلق على اليهود الذين أقاموا في أجزاء مختلفة من شمال أفريقيا (المغرب - تونس - الجزائر - ليبيا) وتركيا وإيران واليونان والبرتغال.

(٣) د. قدرى حفنى: دراسة في الشخصية الإسرائيلية "الإشكنازيم"، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، ١٩٧٥، (ص ١١١).

وبالإضافة إلى التوق الدائم إلى القيم التي تلقاها من التضحية الذاتية (الأنا تنسحب أمام النحن)، وهي القيم التي تلقاها الشباب الصهيوني في الحركة الصهيونية الاشتراكية وفي بيت الأباء[1] يورد الأستاذ الدكتور رشاد الشامي سمات النمط اليهودي الصهيوني في النقاط التالية[2]:

(١) التمرد على اليهودية التقليدية والانجراف نحو العلمانية.

(٢) رفض الاندماج في الشعوب أو نبذ العبودية اليهودية.

(٣) الرغبة في الانتقام من الأغيار وتبني العنف.

(٤) رفض الشخصية اليهودية الجيتوية.

وهكذا؛ نستطيع أن نتفهم الهدف الرئيس من المحتويات الدراسية في المناهج الدراسية؛ فقد سعت الصهيونية ومن بعدها دولة إسرائيل في خلق جيل جديد من النشء يستطيع أن يكمل المسيرة الصعبة في المواجهة.

ومن البديهيات أن لا تكون مناهج التعليم الإسرائيلية عادلة ما دامت تتحدث عن المستوطنات والهجرة وأرض الأجداد والقدس والحدود الآمنة وقانون العودة والحق التاريخي وأرض إسرائيل الكبرى، وتقديم الحرب على أنها ضرورة حتمية للمحافظة على اليهودية واليهود. . . ومن دلائل الظلم والعنف فيها أنها تتكئ على الكتب اليهودية المقدسة كالتوراة والتلمود؛ وتترجم ما فيهما من حكايات وقصص إلى صور حية تعبر عن منهج الكيان الصهيوني وسرّ بقائه وقد صرح موشبه منوحن قائلاً: (علمونا في الجمنازيوم أن نكره العرب وان نحتقرهم وعلمونا كذلك أن نطردهم على اعتبار أن فلسطين هي بلادنا لا بلادهم)، والمؤسف أن أسس هذه التعاليم سواء كانت صهيونية جديدة أو من ثمار ما بعد الصهيونية أو صهيونية كلاسيكية أو دينية أصولية، فهي في كل الأحوال تجذر العنف وتدعو إلى الإبادة وقتل الشيوخ والنساء والأطفال وتمتد إلى البقر والحمير والشجر وتقدم على شكل عقائد ونصوص وتشريعات يهودية للأطفال يجب الالتزام بها كما ورد في التوراة عن "يشوع بن نون "المقرر في المرحلة الابتدائية، ثم نجد على أرض الواقع تطبيق عملي معاصر لتلك الحكايات الباطلة، حصار القرى الفلسطينية، واغتيال الأطفال، وترك

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر، الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧، مرجع سابق، (ص٢٤).
(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٤٨).

الجرحى ينزفون حتى الموت، وإعاقة سيارات الإسعاف وتأخير النساء الحوامل من الوصول للمستشفيات، واقتحام المساجد والمدارس والكنائس[1].

وربما نلاحظ أيضًا ثقافة الصراع في أدب الطفل الإسرائيلي الذي ابتعد تمامًا عن قصص الطيور والحيوانات والأزهار؛ وصار أدبًا يغرس في نفوس الأطفال الكراهية والعنف ضد العرب. ويقول لافين أحد كتاب الأطفال الإسرائيليين، معلقًا على الهدف من وراء أدب الطفل الإسرائيلي:

"كنت أسأل نفسي باستمرار: ماذا يمكن أن أقرأ لو كنت طفلا أعيش مثل هذا الواقع.. نحن نعيش في زمن الصراع مع العرب؛ نعيش فيما يمكن أن يطلق عليه "حقول الدم". لهذا نجد من واجبنا أن نبتعد عن كتابة القصص الجميلة التي تتحدث عن الفراشات والأزهار وزيت الزيتون النقي.. هذا سيوقعنا في كارثة؛ نحن في غنى عنها. ترى ماذا سيكون موقف الطفل الذي تفاجئه الحرب، وهو يقرأ قصة الطائر المغرد؟ ماذا سيفعل.. لا شك أنه سيفقد ثقته بنفسه وينهار وهذا تضليل لا يمكن أن نسمح به"[2].

وتقول الناقدة الإسرائيلية "تامرا مازور": "إن الظاهرة التي تهزنا بعنف هي أدب الأطفال في إسرائيل؛ حيث نجد أن الأطفال تتخطف الكتب بلهفة وشوق كبيرين؛ هذه الكتب التي تركز دائما على موضوع واحد؛ هو تصوير الأطفال اليهود بأنهم أطفال جبابرة عظماء لا يقهرون؛ يهزمون العرب الأغبياء بسهولة ويسر؛ هؤلاء الذين يريدون أن يقتلونا من أجل المتعة الذاتية فقط"[3].

وهكذا كتب أدب الطفل في إسرائيل لأهداف سياسية واستراتيجية؛ فهو يعمق ثقافة الصراع والعنف لدى الطفل الإسرائيلي، ويغرس فيه قيم المحافظة على الأرض والحذر من العربي الذي يتربص به دومًا، فهو من الممكن أن ينقض عليك في أية لحظة. وفي مقابل هذا فإن هذا الأدب يصور العرب بالأغبياء والمهلوسين؛ أرباب حضارة متخلفة. فالعربي في هذا الأدب لا يعرف سوى لغة القوة. وهو أمر مقصود يغرس في الأطفال الإسرائيليين شعوراً بالفوقية والتميز من ناحية؛ ويهمش العربي من ناحية أخرى، وهي محاولات ترمي إلى تغييبه وتركيعه. ولكن هل كان لهذا الأدب ثمة تأثير سلبي على هؤلاء الأطفال اليهود؟

---

(١) د. عبد الله بن سعد البحيى: مرجع سابق.

(٢) السيد نجم: حول أدب الطفل العبري، http://www.arabiancreativity.com/negm8.htm

(٣) نفس المرجع.

يمكننا الإجابة على هذا السؤال من خلال دراسة تحليلية أجريت على شريحة سنية من العاشرة حتى الثالثة عشر؛ لعينة عشوائية عددها ٥٢٠ تلميذا، نفذها البروفيسور "أدير كوهين" تحت عنوان بحثي: "انعكاس شخصية العربي في أدب الأطفال العبري" (تم البحث عام ١٩٨٥م). . وقد انتهى البحث بالنتائج التالية[1]:

١ـ شيوع فكرة "الخوف من العربي"، فأكثر من ٧٥٪ من العينة وصفت العربي بـ"خاطف الأطفال" و"المخرب" و"المجرم"، و"القاتل".

٢ـ أكثر من ٨٠٪ من العينة وصفت العربي ب"في وجهه ندبة"، "يلبس كوفية"، "راعى البقر"، "يعيش في الصحراء"، "قذر"... الخ

٣ـ الجهل بحقيقة العرب كأفراد وشعب، من الأطفال من وصفه "العرب لهم ذيول"، "العرب لهم شعر أخضر".. الخ.

٤ـ حوالي ٩٠٪ من أطفال العينة يرون أنه ليس للعرب حق في البلاد؛ لذا يجب قتلهم أو ترحيلهم بعيدا.

٥ـ الغالبية من أطفال العينة لا يعرفون أسباب النزاع بين العرب وبينهم.. وكانت سمة الإجابة العامة هي: إن العرب ينون قتلهم، وتشريدهم من بلادهم، واحتلال مدنهم، بل ورميهم في البحر.

٦ـ مفهوم "السلام" عند أطفال العينة، هو سيطرة الإسرائيليين على أرض إسرائيل الكاملة.

(٢) صورة العربي في الأدب العبري الإسرائيلي:

احتلت الشخصية العربية الفلسطينية، منذ بدء الهجرات الصهيونية إلى فلسطين مع نهاية القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، مكانًا رئيسيًا بارزًا في الأدب العبري الحديث والمعاصر، وظهرت في عدة رؤى، اختلفت من فترة لأخرى، طبقًا لتطور مراحل الصراع العربي الإسرائيلي، حيث تم التعامل مع العربي الفلسطيني طبقًا لفرضيات الواقع، وما يستجد من أحداث تطفو على سطح الصراع، واختلفت رؤية الأدباء الإسرائيليين له منذ ما قبل قيام الدولة (١٩٤٨) وحتى ما بعد حرب أكتوبر (١٩٧٣).

---

(١) السيد نجم: حول أدب الطفل العبري، مرجع سابق.

وقد أخذت حالة الصدام مع العربي الفلسطيني، اتجاهات عديدة فرضتها الظروف والأحداث التي وقعت على مدى القرن العشرين بين كل من اليهود والعرب، حيث حاول كل طرف من أطراف الصراع أن يثبت حقه في الوجود على هذه الأرض، وأن يدافع عن استمرارية هذا الوجود فيها. لا سيما وقد ادعى المهاجر الصهيوني لنفسه حقوقًا تاريخية تارة، ودينية تارة أخرى. ومن هنا أصبح العربي الفلسطيني في نظر الصهيوني، ثم بعد ذلك الإسرائيلي، هو بمثابة الوجه الآخر الذي يرى من خلاله مدى صحته أو بطلان ادعاءاته.

وانعكس ذلك الوضع في بعض الأعمال الأدبية لبعض الأدباء الإسرائيليين، الذين شعروا بأن وجودهم على هذه الأرض يتناقض مع جذرية الوجود العربي الفلسطيني. ومن هنا كانت معالجتهم للصراع تختلف باختلاف الظروف والأحداث بين الطرفين.

وينبغي التأكيد على أن الشخصيات العربية في الأدب العبري لا تستمد من واقع قائم، وإنما تستمد من "تلافيف العقل الصهيوني، ومن أدنى المستويات الاجتماعية وأشدها بدائية وتخلفًا وبعدًا عن مقومات ومستلزمات نشوء مجتمع بشري مستقر"[(١)]. ولا تتجاوز تلك الأنماط مرحلة البداوة علمًا بأن نسبة البدو إلى مجموع سكان فلسطين من العرب لا تزيد عن ٤ ,٦٪ حسب سارة غراهام في كتابها(الفلسطينيون ومجتمعهم)[(٢)].

وسوف نستعرض هنا صورة العربي في الأدب العبري الإسرائيلي من خلال بعض الأعمال الأدبية التي كتبها الأديب الإسرائيلي الشهير عاموس عوز كنموذج يعبر عن صورة العربي في الأدب الإسرائيلي؛ وكنموذج صادر عن أديب ينتمي إلى حركة السلام الآن؛ ويدعو إلى إقامة دولة فلسطينية؛ وذلك من خلال ما يلي:

أ- الملامح الخارجية للعربي:

حظيت السمات الخارجية للعربي باهتمام بعض الأدباء الإسرائيليين، نظرًا لأن السمات الخارجية لأي شخص تعطى انطباعا خاصًا عنه، بل ربما تذهب إلى أبعد من ذلك، وتعكس بعض الانطباعات الداخلية والمشاعر النفسية تجاهه. وفى إطار ذلك نجد أن

---

(١) بديعة أمين. الأسس الأيديولوجية. صـ٢٠٣، نقلا عن د. محمد أيوب: صورة العربي في الأدب العبري،
http://www.alhaqaeq.net/defaultch.asp?action=showarticle&secid=6&articleid=2

(٢) نفس المرجع.

الصفات الجسدية والملابس الخارجية هما العنصران الرئيسيان اللذان يكونان ملامح السمات الخارجية لأي إنسان[1].

لذلك سوف نبدأ بتناول العربي في إطار الملامح الخارجية له، كما ظهرت في أدب عوز، من خلال المحاور الآتية:

البنيان الجسماني:

حاول عوز لدى تناوله للبناء الجسماني للعربي إسباغ صفات جسمانية على العربي الفلسطيني تساير طبائعه البيئية، وقد ظهر ذلك على سبيل المثال في قصته (البدو الرُحّل والأفعى):

"وفى الوسط كان هناك راع نائم، أسود ككتلة البازلت.. يضربك برائحته.. جسده محنى، وكتفيه محدودبان"[2].

وفى موضع آخر من القصة يصف ذلك الراعي بأوصاف غير آدمية:

"سوف أحكي لكم بوضوح، إن ذلك الراعي يتمتع بملامح وجه ماكرة إلى حد التشوه، مفتوح العينين، مكسور الأنف، لعابه يسيل، يبرز من بين فكيه أسنان طويلة حادة ومقوسة كأسنان الثعلب"[3]. ويستمر عوز في وصف العربي بهذه الأوصاف:

"كان جلده قاتمًا للغاية، مفعمًا بالحياة دافئًا، تملأ الشقوق خديه. إنه أغرب إنسان عرفته "جيئولا"، ذو لون وطابع ورائحة غريبة، ذو أنف دقيقة ومستطيلة، وربما كانت أيضًا معقوفة قليلاً، وأسفل ظل شاربه شديد السواد، ويبدو جلد وجنتيه كما لو كان غائرًا إلى داخل فراغ الفم"[4].

ويستمر عوز في إسباغ هذه الأوصاف على مدار أعماله الأدبية الأخرى، ففي روايته (عزيزي ميخائيل) يصف توأمين عربيين بنفس هذه الأوصاف والملامح:

---

(١) د. محمود صميدة: الشخصية العربية في القصة العبرية القصيرة، عالم الفكر، المجلد ٢٤ / العدد ٣، يناير / مارس ١٩٩٦، (ص ١٠٧).

(٢) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، دار نشر عم عوفيد، ١٩٨٢، (ص٢٧).

(٣) نفس المرجع (ص٢٩).

(٤) نفس المرجع (ص٣٥).

"لقد حكيت لميخائيل عن التوأمين . . كانا ذئبين بنيين، مرنين ذوى أسنان بيضاء، وحشين قاتمي اللون"[1].

ولعل ما ينبغي أن نشير إليه، أن هذه الملامح الجسمانية التي أسبغها عوز على العربي الفلسطيني، هي ملامح تقتصر فقط على نمط معين من أنماط الشخصية العربية، وهو نمط الشخصية البدوية. ولم يتعرض عوز في الأعمال الأدبية التي تم تناولها للأنماط الأخرى، مثل نمط الإنسان الحضري أو الذي يعيش في المدينة.

. **الملابس:**

سار عوز على نهج بعض الأدباء الإسرائيليين في وصف الملابس الخاصة بالعربي وكأنه لم يرتد إلا الملابس الريفية أو البدوية فقط :

" أخذت الفتاة تستعرض بعينيها جلبابه الغامق البدوي قائلة : ألا تشعر بالحرارة وأنت داخل هذا الشيء "[2].

" أما ملبسه فعبارة عن ملبس من الصوف والكتان، ومعطف أوربي قصير ومخطط، ومن أسفله جلباب أبيض بدوي "[3].

" وفي كل صباح مع نهاية الصيف . . كان يأتي فلاحون من القرية العربية التي تقع على الشاطئ . . بعباءات غامقة "[4].

ونلاحظ هنا أن عوز ركز في وصفه لملابس العربي أيضًا على نمطين فقط من أنماط الشخصية العربية، وهو نمط الفلاح، ونمط الإنسان الريفي. ومن خلال وصفه للملابس عمد عوز إلى إظهار العربي الفلسطيني بملبس غير منسق، وغير مهندم، فهو يرتدى أشياء كثيرة غير منسقة أو متلائمة، ولا يراعى فيهم حالة الجو.

الأعمال التي يقوم بها العربي:

كان الصهيونيون يرون أنه لكي ينجح الاستيطان في فلسطين فإنه يجب تحديد موقف

---

(١) عاموس عوز : "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، دار نشر عم عوفيد، تل أبيب، ١٩٧٣ (ص٢٢).

(٢) عاموس عوز : "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٦).

(٣) نفس المرجع (ص٢٧).

(٤) عاموس عوز : "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، دار نشر عم عوفيد، ١٩٨٧، (ص ٢٠٩).

اليهود من أرضها، الأمر الذي أفرز بدوره ما يسمى بـ "صهيونية العمل" التي ترى أنه لابد لليهودي من العمل في الأرض الفلسطينية وفلاحتها حتى يتم الاستيلاء والسيطرة عليها. ومن هنا تعمد اليهود إبعاد العرب عن مجالات العمل تحت شعار "العمل العبري" الذي كان يهدف إلى تجاهل وجود شعب آخر _ غير اليهود _ في فلسطين، وكذلك إزالة جزء من الطبقة العاملة العربية فيها من أجل إنجاز برنامج الدولة الذي تبنته الحركة الصهيونية، وهو الاستيلاء على العمل والاستيلاء على الأرض. وتحت تأثير هذا الشعار طرد مبعوثو الصهيونية مئات العمال العرب من أماكن عملهم، ومن تبقى منهم انحصرت أعمالهم في الأشغال الحقيرة التي لا يقوم بها العامل اليهودي كالعمل في المجارى والبناء [١].

وفى أعمال عوز انحصرت الأعمال التي يقوم بها العربي الفلسطيني في البناء، والحرف، ورعاية الغنم، وغير ذلك من الأعمال الحقيرة. ففي روايته (صندوق أسود) يشير عوز إلى الأعمال التي يقوم بها الفلسطيني قائلاً:

"وكنت أرى من نافذة الحجرة العمال العرب الثلاثة الذين أحضرهم "ميشيل" يحفرون قواعد لصب أساسات التوسع الذي يبنيها "ميشيل" بأموالك" [٢].

ويشير عوز في هذه الرواية أيضًا، إلى الأعمال الأخرى التي يقوم بها العرب الفلسطينيين:

"وبعد ذلك وجدت عملاً آخر، وهو تنظيف المناضد في مقهى، وهناك كانوا ينادونني أحمد، لأنهم اعتقدوا أنني عربي صغير. وفى الحقيقة، وبسبب ذلك فقط بدأت أضع طاقية على رأسي [٣].

وعلى الرغم من أن هذا العمل، وهو تنظيف المناضد في المقاهي، يقوم به شخص يهودي وهو ما يؤكد أن هذه الأعمال لم تقتصر فقط على العرب، بل كان هناك يهود يعملون فيها، إلا أن عوز يريد القول أنه من الغريب أن يقوم إسرائيلي بمثل هذه الأعمال، لذا فقد اعتقدوا أن "ميشيل "هو عربي، وكانوا ينادونه "أحمد"، فاضطر "ميشيل" رغبة منه في ألا يتشبه بالعرب إلى وضع طاقية يهودية على رأسه. ويريد عوز أن يلصق هذه

---

(١) د. محمود صميدة: الشخصية العربية الفلسطينية في القصة الإسرائيلية القصيرة (١٩٦٧-١٩٨٤)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب / جامعة عين شمس (ص ١٢١).

(٢) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).

(٣) نفس المرجع، (ص١٦٣).

الأعمال للفلسطيني، ليس فقط في فلسطين بل أيضًا في الخارج، رغبة منه في التأكيد على أن هذه الأعمال يقوم بها العربي الفلسطيني في أي مكان، ولا يعمل إلا فيها:

"عندما كنت شابًا، عملت بباريس في خدمة الزبائن، وكان هناك من بين الزبائن بما في ذلك اليهود يعتقدون، عن طريق الخطأ، بأنني عربي صغير"[1].

ويشير عوز كذلك في نفس هذه الرواية إلى الأعمال التي كان يقوم بها العربي: "كان هناك خدم من العرب المسيحيين يرتدون فراك[*] أسود، يقدمون لنا السمك المملح"[2].

كما ظهر العربي الفلسطيني في أعمال عوز الأدبية ضمن الباعة المتجولين ذوى الحرف الحقيرة:

"ويتجول في المدينة باعة جائلون طاعنون في السن، وذوى حرف مذهولون.. وكان هناك رجل بدين ذو رأس ضخمة في هيئة الحداد القديم يصيح قائلاً: (أصلح وابور بريموس)"[3].

والعرب الفلسطينيون هم حرفيون أيضًا في روايته (الحالة الثالثة):

"اتضح أن الأب المسن كان يريد إبلاغ ابنه، أنه وجد لـ "فيما" حرفيين سوف يأتون الأسبوع القادم لدهان شقته، وهم عرب من قرية (أبوديس)"[4].

ويحاول عوز كذلك في هذه الرواية إظهار أن الأعمال التي لا تحتاج إلى عقل أو تفكير تقتصر فقط على الفلسطينيين، رغبة منه في تعضيد مقولة "عمل عربي" الشائعة لديهم في إسرائيل، وذلك للحط من قدر الشيء ولوصف انعدام الكفاءة في مهارة العمل:

"لماذا العرب في المناطق هم بهائم العمل الخاص بنا؟ ماذا تعتقدون؟ أنهم سوف يوافقون على أن يكونوا حطابين سقائين للأبد؟... وأن العرب فقط في المناطق سوف يستمرون في هدوء حتى نهاية الأجيال في تنظيف المراحيض لنا، وفي كنس الشوارع، وفي غسل الصحون بالمطاعم، وفي تجفيف قذارة شيوخنا الذين في حاجة إلى مساعدة، ثم يقولون بعد ذلك شكرًا جزيلاً"[5].

---

(١) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق (ص١٩١).

(*) فراك: رداء رسمي يلبس في الاحتفالات الرسمية.

(٢) نفس المرجع (ص٩٠).

(٣) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).

(٤) عاموس عوز: "هامتساف هاشليشي" (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٤٥).

(٥) نفس المرجع (ص١٤٦).

وينبع ظهور العربي الفلسطيني في الأعمال الحقيرة التي لا يقوم بها اليهودي، من شعور اليهود بالتفوق، وبأنهم أسمى وأرقى من الشعب العربي، وهذا نتيجة للمفهوم السائد لدى الإسرائيليين بأن العربي كسول، وأنه لا يمكن إسناد أي عمل صعب إليه، لأنه ليس لديه الاستعداد ولا القدرة الذهنية أو الجسدية اللازمتين لأدائه، لأنه لا يستطيع أن يؤدى العمل إلا "بطريقة العربي"، وهو تعبير شائع الاستخدام بعد أن صار جزءًا من الموروث الإسرائيلي عن العرب، فالمثل العبري "عمل عربي" يكاد يكون ترجمة حرفية لتعبير أداء العربي للعمل، ويستخدمه الإسرائيليون للحط من قدر الشيء، ولوصف أفظع درجات انعدام الكفاءة والافتقار إلى المهارة في أداء العمل[1].

ولكننا نرى أن مثل هذه الأعمال لم تقتصر فقط على العرب، بل كان هناك من اليهود من يعملون فيها، مثل "ميشيل" في رواية (صندوق أسود) الذي كانوا ينادونه "أحمد"، وكان ينظف المناضد في المقاهي، وكان يعمل كذلك في خدمة الزبائن بباريس. وكان يعمل أيضًا في البناء مع العمال الذي أتى بهم للعمل في منزله:

"ميشيل نفسه يعمل مع هؤلاء العرب يوميًا... ولم يكن بحاجة إلى مقاول لأنه كان يعمل بنّاء منذ العام الأول لمجيئه إلى البلاد"[2].

المساكن التي يعيش فيها الآخر (الفلسطيني):

ظهر العربي في الأدب العبري في صورة من يسكن الصحراء في خيام، ويعيش في قرى عشوائية قذرة، ويسكن البيوت الحجرية المتداخلة: "وخيام البدو الرحل مصنوعة من القماش الأسود"[3].

"تصاعد ما هو أشبه بالنواح الغامض من مخيمات البدو الرحل ناحية الجنوب"[4].

وفى قصة عوز (دير الصامتين) يصف القرية في صورة أكواخ:

"كانت دير الناشف تقع أسفل الجبال الشرقية... وظلام الخوف والفزع يخيم على أكواخها"[5].

---

(١) د. محمود صميدة: استراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب، سلسلة (نحن وهم)، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر، أبوظبي، ١٩٨٠ (ص ١٣٨).

(٢) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).

(٣) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٨).

(٤) نفس المرجع (ص٣٨).

(٥) نفس المرجع (ص٨٧).

ويصف عوز الفلسطينيين وهم يعيشون في بيوت حجرية متراصة:

"وحول مآذن المساجد تقبع قرى متراصة مبنية من الحجارة"[1].

"ومن الناحية الثانية للوادي يطل الحي العربي، لا هو بالضاحية ولا هو بالقرية. مجموعة من البيوت الحجرية الصغيرة متجمعة حول مئذنة أحد المساجد"[2].

ب- السمات الداخلية للعربي:

كانت الملامح الخارجية للعربي كما ذكرناها سابقًا، هي بمثابة تمهيد للحكم على سلوكه وطبائعه السيكولوجية في الحياة. ذلك لأن الهيئة الخارجية لأي إنسان تعطى انطباعا خاصًا لمن يراه، ويمكن من خلال مظهره الخارجي تقييم هذا الشخص تقييمًا ذاتيًا وسلوكيًا. لذلك عندما يصف الأدب الإسرائيلي العربي في هيئته الخارجية بأن "منظره قميء"، و"لعابه يسيل"، و"يثير الغثيان"، و "ملبسه ممزق"، ويعمل في "أحقر المهن"، ويسكن الصحراء والبيوت الحجرية، فمن الطبيعي أن تكون هذه الأوصاف بمثابة مقدمة للتمهيد لسلوكياته التي تتجلى في العنف، والاغتصاب، والتخلف، والسرقة.. الخ.

وبالفعل فإن الأوصاف الداخلية للعربي في أعمال عوز الأدبية، قد تجلت في السمات التالية:

غير متحضر (متخلف):

يظهر الأدب العبري الحديث الإنسان العربي في صورة المتخلف الذي لا يعرف كيف يتصرف، والبعيد عن النظافة والتحضر. فموشيه سطابيسكى يؤكد على أن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تنعدم بين العرب. والإجراءات الصحية التي لا يستطيع الإنسان الغربي أن يعيش دونها ولو ساعة واحدة غير متوفرة في أية قرية عربية، حتى في القرى الكبيرة الغنية[3]. وقد حاول عوز في العديد من أعماله إظهار صورة العربي المتخلف

---

(١) عاموس عوز: "بانتير بامرتيف" (فهد في السرداب)، رواية، دار نشر كيتر، القدس، ١٩٩٥، (ص ٦٤).

(٢) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٤).

(٣) غانم مزعل: الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث (١٩٤٨-١٩٨٥)، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٦. (ص ١٥٠).

الـــذي يجلـــب معـه المـرض والقحـط ، ولا يعـتني بنفسه أو ببهائمه . ففي قصته (البدو الرحل والأفعى) يقول :

"لقـد جـاء المـرض مـن الصحراء ، حمله لعاب البهائم المهملة التي لم تخضع أبدًا لأي إشـراف بيطـري . وعلـى الـرغم من أننا أقدمنا على اتخاذ عدة وسائل وقائية ، إلا أن الوباء أصـــاب أغنامنـــا وأبقارنا ، وقلل بصورة صعبة من إنتاج الألبان ، وتسبب كذلك في قتل عدة بهائم"[1] .

وهـنا نلاحـظ أن عوز يضع العربي في صورة الإنسان القذر ، الذي ينقل الأمراض معه أيـنما ذهـب ، ولا يعـتني بغنمه ولا يوفر لها العناية البيطرية اللازمة ، مما يؤدى إلى إصابتها بكثير من الأمراض التي تنتقل هي الأخرى إلى أغنام المستوطنين الصهاينة . وفى هذا الصدد يقـول غانم مزعل : "في كل هذا الأمر مبالغة كبيرة ، إذ من المعروف عن القروي العربي أنه يعنى بحيواناته عناية فائقة ، لأنها مصدر مهم من مصادر رزقه ، وهو حريص على أن تكون في صـحة جيدة لأنها تقيم أوده ، وتسد كثيرًا من حاجاته اليومية . ولعل التراث الشعبي عن هـؤلاء الفلاحـين في مختلف القرى والمضارب يصور مدى حرصهم على أغنامهم وأبقارهم وخيولهم وجمالهم"[2] .

وقـد حـرص عـوز كذلك على وضع "الكيبوتس" الذي يرمز إلى المدينة الإسرائيلية في مـواجهة القـرية العربية التي يمثلها شخص بدائي همجي ، قذر ومتخلف . فيقـول في قصته (بلاد ابن آوى) :

"كـان عالمنا عبارة عن مجموعة من الدوائر ، الدائرة الخارجية هي دائرة الظلمة الغامضة الـتي تقع بعيدًا عن هنا في الجبال والصحارى الشاسعة . وفى الليل تقع في وسط هذه الدائرة دائرة مغلقة ومصمتة ، حيث حقولنا وكرومنا وبياراتنا وبساتيننا"[3] .

وربمـا يـريد عـوز القـول ، إن إسـرائيل محاطة بدائرة كبيرة من الظلام تمثلها الصحارى الـشاسعة ويقـصد بها العرب ، وهى دائرة جرداء ومظلمة وقاحلة ، بيتما الدائرة الداخلية ، هـي الدائـرة الـتي تـشع بالحـياة وبخـيرات الدنـيا وبناتج العمل والدأب : الحقول والكروم والبساتين . . الخ التي هي إفراز حي للحضارة الحديثة التي تجاوزت كل عقبات التعامل مع هذه الصحارى ، وحولتها إلى جنان مزهرة .

---

(١) عاموس عوز : "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى) ، مجموعة قصصية ، مرجع سابق ، (ص٢٨) .
(٢) غانم مزعل : مرجع سابق (ص ١٦١) .
(٣) عاموس عوز : "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى) ، مجموعة قصصية ، مرجع سابق ، (ص ١٥) .

ويستمر عوز في إظهار العربي في صورة غير المتحضر الدميم القذر في أغلب أعماله الأدبية من قصص أو روايات :

" كان الفلاحون يأتون من القرية العربية التي على الشاطئ بحميرهم المطيعة . . . كانت تفوح من المكان رائحة نسائية غامضة ، تظل باقية حتى بعد رحيلهم "[1] .

ويقول على لسان " متياهو " أحد أبطال قصته (بلاد ابن آوى) :

" جمع من الناس قذر غامق اللون ، بارز العظام ، يتوالد عليه القمل والبراغيث ، والجوع والكراهية يرتسمان على وجوههم "[2] .

وفي روايته (مكان آخر) يصف الإنسان العربي الفلسطيني بالهمجية :

" لكن الهمجية لم تستطع تحمل عملهم الطيب "[3] .

يمشي حافيًا:

اعتاد الأدباء الإسرائيليون ـ ومن بينهم عوز ـ وحتى تكتمل صورة الآخر المتخلف غير المتحضر ، على إظهار الإنسان العربي في كثير من المواقف حافي القدمين ، وهي صورة مغايرة للواقع . ذلك لأننا إذا نظرنا إلى أحد أعمال عوز الأدبية ، ولتكن على سبيل المثال قصته (البدو الرحل والأفعى) سنجده يصف مجموعة من العرب البدو ساكني الصحراء ، وحين يصفهم بأنهم ذو أقدم عارية أو حافية ، فهذا ليس من طبيعة البدو الذين يسيرون في الصحراء ، حيث أن الصحراء مليئة بالطرق الوعرة غير الممهدة ، وبالتالي من الصعب أن يسير بها أحدًا حافيًا ، إلا أن عوز أصر على ذلك في الكثير من مواضع القصة :

" ونساء حافيات يتجولن هناك في الليل "[4] .

" . . ودلف خارجًا حتى ابتلعه الوادي في سفح السور ، ومعه مرافقيه الحافيين "[5] .

ويقول في رواية (عزيزي ميخائيل) على لسان " حنة " عن التوأمين العربيين :

---

(١) عاموس عوز : " قوفساه شحوراه " (صندوق أسود) ، رواية ، مرجع سابق ، (ص٢٠٩) .
(٢) عاموس عوز : " أرتسوت هاتين " (بلاد بنات آوى) ، مجموعة قصصية ، مرجع سابق ، (ص٢٢) .
(٣) عاموس عوز : " ماقوم أحير " (مكان آخر) ، رواية ، دار نشر سفريات بوعاليم ، ١٩٦٦ ، (ص٨٣) .
(٤) عاموس عوز : " أرتسوت هاتين " (بلاد بنات آوى) ، مجموعة قصصية ، مرجع سابق ، (ص٢٨) .
(٥) نفس المرجع (ص٣٠) .

"كانا عاريين حتى خاصرتهما، خفيفين وحافيين لدى انزلاقهما في الخارج"[1].

"كنت أشعر بأن التوأمين يندفعان في الخارج. إنني أسمع حفيف أقدام حافية"[2].

وفى رواية (صندوق أسود) تبدو هذه الصفة وكأنها خاصة بالعربي فقط:

"إنك بالتأكيد، تسير هناك حافيًا مثل العربي"[3].

لا يفهم سوى لغة القوة:

يحفل الأدب العبري بوصف العربي بأنه لا يفهم سوى لغة القوة، وإذا ما عومل بليونة فإنه يظن أنك تخشاه، فيتمرد. فالعربي في نظر الكاتب العبري يرفض معاملته عن طريق السند للسند. وكثيرًا ما نجد هذه العبارة تتردد في قصصهم، وهى: (أن العرب لا يحترمون جارًا ضعيفًا)[4]. ويحاول عوز ترسيخ هذا المفهوم في أغلب أعماله الأدبية، مؤكدًا ضرورة التعامل مع العربي بعنف، فالضعف من شأنه أن يثيره:

"إن الرحال يشتم رائحة الضعف من بعيد. وإذا ما قلت له كلمة طيبة أو ابتسامة، تجدينه ينقض عليك كالحيوان المتوحش محاولاً اغتصابك"[5].

ولذلك فإن التعامل معه بهذه اللغة هو الأفضل:

"جاء عدد من الفتيان الصغار، واقترحوا علينا أن نهجم على هؤلاء المتوحشين في إحدى الليالي، لنلقنهم درسًا قاسيًا بتلك اللغة التي اعتادوا عليها ويفهمونها جيدًا"[6].

وفى رواية (مكان آخر) يقول عوز على لسان "يوآش":

"كان يوآش يقول: إن هؤلاء لا يفهمون سوى لغة واحدة فقط، وهى لغة القوة"[7].

وتقول "حنة" عن التوأمين العربيين في رواية (عزيزي ميخائيل):

"كنت أخضعهما بيد قوية.."[8].

---

(١) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٢).
(٢) نفس المرجع (ص٨٣).
(٣) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص١٦٤).
(٤) غانم مزعل: مرجع سابق، (ص ٩٧).
(٥) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٩).
(٦) نفس المرجع (ص٢١).
(٧) عاموس عوز: "ماقوم أحير" (مكان آخر)، رواية، مرجع سابق، (ص١١٤).
(٨) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص١٥).

مغتصب للنساء:

اعتاد الأدباء الإسرائيليون إدراج صفة الاغتصاب ضمن قاموس السمات التي يتمتع بها العربي رغبة منهم في اكتمال الصورة المشوهة له. وعلى الرغم من أننا نجد هذه التهمة تأتي من خلال علاقة مباشرة وملموسة بين الجاني والمجني عليها، لدى بعض الأدباء الإسرائيليين ممن تناولوا صورة العربي؛ فإننا نلاحظ أن عوز تناول موضوع الاغتصاب في أعماله من خلال علاقة غير مباشرة. بمعنى أن الفتاة أو المرأة الإسرائيلية يحدث لها اغتصاب "وهمي" عن طريق أحلام وكوابيس، وأحيانًا عن طريق خيالات تأتي نتيجة لقاء عابر وعادي يحدث مع العربي في اليقظة.

إن "حنة" في رواية (عزيزي ميخائيل) كانت تحلم دائمًا بأن التوأمين العربيين يأخذونها إلى سرداب مظلم ويتناوبون الاعتداء عليها:

".. وعبر سلالم كثيرة سحباني إلى داخل سرداب يضيئه مصباح زيت قذر. وكان هذا السرداب مظلمًا، وطرحاني أرضًا فأحسست بالرطوبة. وفجأة، رفع التوأمان جلبابيهما الصحراويين "[1].

وتواصل "حنة" على مدار الرواية الحلم بالتوأمين العربيين اللذان يقلقان منامها:

"تقلبت الأميرة بقميص النوم الخفيف على البلاط الجليدي، وكانت مكشوفة لنظراتهما الثاقبة.."[2].

"أمسك التوأمان الصامتان بذراعي لربطهما خلف ظهري "[3].

وفي قصة (البدو الرحل والأفعى) التي تشير إلى الانحراف الجنسي لعضوه "الكيبوتس"، نجد "جيئولا" بطلة القصة تلدغها أفعى فتحدث تموجات في جسدها، فعلى الفور تتخيل بأن البدوي قام باغتصابها:

".. لدغها في جلدها، فشعرت بالتعب، وكان الألم مكتومًا يكاد يكون ممتعًا "[4].

"ينقض عليك.. محاولاً اغتصابك. حسن، أنك هربت منه "[5].

---

(١) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٣٥ـ٣٦).
(٢) نفس المرجع (ص١٣٨).
(٣) نفس المرجع (ص١٣٦).
(٤) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٤٢).
(٥) نفس المرجع، (ص٣٩).

وإمعانًا في تصديق هذا الاغتصاب "الوهمي" تقول "جيئولا" في هذه القصة:

"لقد نجوت منه فقط عن طريق العض والركلات، وكان على أن أغسل بطني وكل شيء مرات ومرات بالصابون"(١).

إننا لا نبرئ العرب، أو غير العرب من وجود أناس قلائل قد يفكرون في الاغتصاب، ولكن هذه القلة بين العرب تعتبر ضئيلة إذا ما قيست بما هو شائع عند اليهود في إسرائيل، وعند مختلف شعوب العالم. والمراجع للصحف اليومية والأسبوعية في إسرائيل يجد عشرات الحوادث الجنسية: الاغتصاب، الخيانة الزوجية، الدعارة بشكل محسوس.. بينما لا نجد ذلك في المحيط العربي بشكل محسوس(٢).

القسوة في معاملة الحيوان:

وصف عوز شخصية العربي بالقسوة والوحشية حتى في معاملته مع الحيوان:

".. وأمسك بخصر العنزة، ورفعها فوق رأسه، ثم أطلق صيحة وحشية مخيفة، وطرح العنزة أرضًا دونما رحمة "(٣).

"في تلك الأثناء، جاءت عنزة نحيفة وبدأت تحك بقدمه، فأبعدها بركلة قدم قاسية"(٤).

وتتوالى المعاملة القاسية من قبل الراعي تجاه العنزة حتى أنه عندما هم وأمسك بحجر ثقيل ليضربها به، قالت له "جيئولا" فتاة "الكيبوتس":

"اتركها، لماذا تضربها. فهي لا تفهم شيئًا، إذ أنها بهيمة "(٥).

لص ومهرب:

حرص الأدباء الإسرائيليون أيضًا على أن يظهروا العربي في صورة المتسلل، واللص، ورجل العصابات. وذلك حتى يبرروا لأنفسهم مطاردته، ومعاملته بقسوة وعنف، وطرده من أرضه. وقد تكررت هذه الصورة كثيرًا في كتابات الأدباء الإسرائيليين، مما يؤكد شيوع المفاهيم الخاصة بتشويه صورة العربي الفلسطيني(٦).

(١) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٩).
(٢) غانم مزعل: مرجع سابق، (ص ٩٤).
(٣) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٣٧).
(٤) نفس المرجع (ص٣٦).
(٥) نفس المرجع (ص٣٧).
(٦) د. محمود صميدة: إستراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب، مرجع سابق، (ص١١٠، ١١١).

ولم تخل قائمة عوز من هذه الصور، فيقول في قصته (البدو الرحل والأفعى):

"إن قضية هذه السرقات هي أكثر ما يقلقنا، فهم يسرقون ثمار الفاكهة غير الناضجة من البساتين... حتى أن أيديهم امتدت إلى الأمتعة الثمينة الخفية التي توجد في شققنا الصغيرة"[1].

"كما لو أن الأرض نفسها اختارت أن تتستر على أعمال السلب والنهب، وتتجرأ بالسارقين"[2].

وحين تلتقي "جيئولا" بالبدوي العربي تقول له على الفور:

"ماذا تفعل هنا؟ أتسرق؟"[3].

وهنا يتضح أن فكرة السرقة عن العرب هي فكرة شائعة، حتى أن "جيئولا" في أول لقاء لها مع البدوي تسأله عن السرقة، على الرغم من أن "أتقين" عضو "الكيبوتس" يعترف بعدم وجود دليل قاطع يدل على أن العرب هم الذين قاموا بأعمال السلب والسرقة:

"وفيما يتعلق بقسائم الأرض المدمرة، يجب أن نعترف بأننا لم ننجح أبدا في القبض على أحد الرحل وقت ارتكاب الجريمة"[4].

والعربي لدى عوز رجل عصابات أيضًا، فتقول "حـــنة" في رواية (عزيزي ميخائيل):

"فمازال يتذكر عصابة حسن سلامة، وهجومها على حولون"[5].

والعربي لدى عوز هو مهرب، في روايته (صندوق أسود):

"ظهر هذا القارب متروكًا على مسافة ليست بعيدة من رأس محمد، وذلك بعد أن استخدمته، على ما يبدو، مجموعة من البدو المهربين لنقل المخدرات (الحشيش) من الشاطئ المصري"[6].

(١) عاموس عوز: "أرتسوت هاتين" (بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٩).
(٢) نفس المرجع (ص٢٩).
(٣) نفس المرجع (ص٣٦).
(٤) نفس المرجع (ص٢٨).
(٥) عاموس عوز: "ميخائيل شلي" (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص١٦٨).
(٦) عاموس عوز: "قوفساه شحوراه" (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٠).

وفى رواية (الحالة الثالثة) يقول "فيما" عن العرب :

"أولاً، وبشأن العرب، فقد أوضحت لك ألف مرة أن العرب بصفة عامة ليسوا شرفاء، إلى هذا الحد، حتى يكونوا عظماء في نظري"[1].

مخرب وسافك للدماء:

وصف عوز العربي في أعماله الأدبية بأنه مخرب، ومتعطش دائمًا لسفك الدماء، ويحب القتل (قتل الإسرائيليين)، فأعطى له صورة الفتى الذي يحمل المتفجرات والقنابل والرشاشات، دون أن يعطى مبررات لكل هذه الأعمال.

فتقول "حنة" في رواية (عزيزي ميخائيل) عن التوأمين العربيين :

"في الفجر، كانا التوأمان يتدربان بالقنابل اليدوية بين صخور صحراء يهودا . . . وهناك رشاش على الكتف. . . ويرتديان ملابس كوماندوز مهلهلة وملطخة بزيت البنادق . . . أما عزيز كان يقذف قنبلة في حركة دائرية "[2].

وتقول "حنة" عنهما أيضًا :

". . وفى المساء يستعد كلاهما لإعداد عتادهما للسفر وهو عبارة عن جربنديات عسكرية ثقيلة، صندوق متفجرات، طبات للقنابل، فتائل إشعال، ذخيرة، قنابل يدوية، وخناجر لامعة"[3].

ولم يقتصر التخريب فقط على حمل الأسلحة والقنابل واستخدامها، بل أن يد التخريب امتدت إلى حقول "الكيبوتس" في قصته (البدو الرحل والأفعى) :

". . . . وغير ذلك وجد تخريب متعمد في أنابيب الري، وفى الأعلام الإرشادية التي توضع على أطراف الحقول، وكذلك في الآلات الزراعية التي تركت في الحقل، وفى سائر قطع الغيار"[4].

ويشير عوز في روايته (مكان آخر) إلى أن العربي يعد من القوى الهدامة التي تهدد المشروع الصهيوني، وتسفك دماء الإسرائيليين :

---

(١) عاموس عوز : "هامنساف هاشليشى "(الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص١٤٦).
(٢) عاموس عوز : "ميخائيل شلي"(عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٣-٧٤).
(٣) نفس المرجع (ص١٩٦-١٩٧).
(٤) عاموس عوز : "أرتسوت هاتين"(بلاد بنات آوى)، مجموعة قصصية، مرجع سابق، (ص٢٨).

" . . لقد امتدت يد مدمرة ومتآمرة إلى مشروعنا، يد تدمر وتدبر المكائد . . . . وآهارون راميجولسقى، كان أول المقتولين برصاص القتلة، وبقتله أبرمنا حلفًا دمويًا مع هذه الأرض "[1].

ويشير عوز في روايته (الحالة الثالثة) إلى احتراق صبى عربي حاول إحراق عربة جيب عسكرية إسرائيلية :

" . . وفى الصفحة الثانية من صحيفة "معاريف " ، كان هناك خبر عن صبى عربي من جنين احترق عندما حاول إضرام النيران في جيب عسكرية . . . . "[2].

ويحاول عوز في هذه الرواية أن يظهر مدى الكراهية المتبادلة بين الطرفين، وذلك حين أشار إلى أن العرب تجمعوا حول ذلك الصبي الذي يحترق، وحالوا دون وصول رجال الإسعاف إليه، اعتقادًا منهم بأن الذي يحترق هو جندي إسرائيلي :

" . . . واتضح أن الجمهور العربي الذي تجمع حول الصبي الذي يحترق، حال دون أن يقدم المضمد العسكري الإسعافات الأولية له، لأن ذلك الجمهور ظن أن الصبي الذي يحترق أمامهم هو جندي إسرائيلي "[3].

بالإضافة إلى الكراهية المتبادلة التي يؤكد عليها عوز، فإن ذلك يدل على إنه أراد القول أن العربي عديم الرحمة أو الشفقة، لأنه يحول دون تقديم أقل الواجبات الإنسانية لشخص اندلعت فيه النيران .

ويؤكد عوز على تلك السمة أيضًا في روايته (فهد في السرداب) :

"كان لدينا عن كل شعب لقب محدد : . . . فالعرب قد أطلق عليهم سافكي الدماء "[4].

ويقول القاص أيضًا في هذه الرواية مكررًا تلك السمة :

"كانوا يأملون في مجيء جيوش العالم المتحضر . . ليدافعوا عنا ضد خطر الذبح على أيدي هؤلاء العرب المتعطشين للدماء "[5].

---

(١) عاموس عوز : "ماقوم أحير "(مكان آخر)، رواية، مرجع سابق، (ص٨٣).
(٢) عاموس عوز : "هامتساف هاشليشى "(الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٣٠-٢٣١).
(٣) نفس المرجع (ص٢٣٠-٢٣١).
(٤) عاموس عوز : "بانتير بامرتيف "(فهد في السرداب)، رواية، مرجع سابق، (ص٢٢).
(٥) نفس المرجع (ص٢٢).

ولم يكتف عوز بذلك، بل حاول القول بأن صفة القتل والتخريب تنبع من عقيدة الإنسان العربي، ففي روايته (صندوق أسود) يسيء إلى الإسلام في قوله إنه دين السيف:

" . . ولكن سفك الدماء هو أمر عميق جداً في عقيدتهم . . إن دين محمد بالسيف "[1].

وهكذا، حاول عوز الإيحاء بأن صفة القتل وسفك الدماء لم تكن فقط سلوكًا بشريًا مكتسبًا، بل هو سلوك عقائدي ينبع مباشرة من العقيدة الإسلامية . وهو أمر بعيد للغاية عن الإسلام.

كابوس مزعج:

تركت الانتصارات العسكرية المتتالية التي حققتها الصهيونية أثارًا عميقة على الأدب العبري في كافة مراحله، فيوم كان شخصية يهودي الشتات ونفسيته هما السائدتان في الوسط اليهودي، كان العربي يمثل نموذج القوة والسيطرة . وأخذت هذه الصورة تتحطم بعد كل معركة عسكرية . وأصبح العربي يتحول من " الشيء الطبيعي " الذي يشكل خطرًا جسمانيًا على الكاتب العبري إلى " الشيء " الذي يشكل خطرًا نفسيًا وروحيًا . ومن هنا بدأت أزمة " الكابوس الوجودي " ، وقد عبر عوز عن هذه الأزمة بقوله : " بالنسبة لي العرب، عدا هؤلاء في الناصرة ووادي عارة، هم كابوس . إنني أخافهم وفجأة رأيت أنهم موجودون ويخافون منى، ولم أكن مستعدًا قط لهذا الوضع من الناحية النفسية "[2].

وربما كان عدم استعداد عوز لهذا الوضع هو الذي جعله يصور العربي في صورة كابوس مزعج في جل أعماله الأدبية . فحنة بطلة روايته (عزيزي ميخائيل) تحلم على مدار الرواية بكوابيس مزعجة تؤرق نومها . وبطلا تلك الكوابيس هما التوأمان العربيان اللذان يمثلان لها كابوسًا مزعجًا ومخيفًا :

" . . تمامًا مثل الواقع الملموس، كانا يجيئان إليّ مع بزوغ الفجر جميلين وعنيفين "[3].

وخوفًا من هذين التوأمين تحكى عن أمرهما لزوجها في همس :

---

(١) عاموس عوز : " قوفساه شحوراه " (صندوق أسود)، رواية، مرجع سابق، (ص١٠٢).
(٢) انطوان شلحت : شخصية العربي في الأدب العبري، دار ابـن رشد للنشر، عمان ، ١٩٨٥ (ص ٢٣).
(٣) عاموس عوز : " ميخائيل شلي " (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٤٠).

" همست لزوجي البعيد عنى بذلك الأمر الذي كان أكثر حساسية بداخلي. أمر التوأمين العربيين، حكيت له هامسة "[١].

والتوأمان العربيان هما سبب إزعاج المستوطنين، وكابوس متكرر لحنة كل يوم:

" مازلت أستيقظ مع بزوغ الفجر مهتمة بتلك الأصوات الشريرة، وبالكابوس الذي يتكرر بألوان لم تدل على شئ. . . لقد أصبحت ليالينا مزعجة بشكل لم نشهده أبدًا من قبل "[٢].

وهكذا، كانت " حنة " كثيرة الأحلام والكوابيس بالتوأمين العربيين، اللذين مثلا لها كابوسًا مخيفًا، راحت ترتعد منه طوال حياتها. ولم يكتف عوز بمواجهة العربي في الواقع الملموس، بل راح يزج به في الأحلام والكوابيس لتكتمل منظومة ذلك المخلوق المخيف الذي لم يكن كابوسًا في النوم فقط، بل في اليقظة أيضًا.

كذلك، كان العربي كابوسًا مزعجًا لـ " فيما " بطل رواية (الحالة الثالثة). فهو الآخر كثير الأحلام والكوابيس، ذلك لأنه كان يهتم دائمًا بأمور الدولة، وبالعرب، وبالحروب. وقد انعكس ذلك عليه في صورة كوابيس وأحلام:

" في الحلم اندلعت الحرب في مكان يشبه هضبة الجولان. . . وكان هناك طابور مدرع من العدو يسير ويقترب من ممر جبلي ضيق "[٣].

ويقول " فيما " كذلك متهكمًا على الوضع في دولته في حلم من أحلامه:

" إن الكارثة النووية القادمة، لن تكون من الدول الكبرى، بل منا نحن هنا. . . وخلال مائة عام، لن يكون هنا مخلوق حي، لا " يوعزر[*] "، ولا سحلية أو حتى حشرة "[٤].

ونلاحظ هنا أن عوز تعامل مع ذلك الكابوس في الحلم، وليس في الواقع، كما رأينا مع " فيما " و " حنة ". وربما يؤكد ذلك أن عوز ـ كما قال ـ يخاف العرب فتجنب المواجهة معهم وجهًا لوجه، واكتفى بتصويرهم في الأحلام ككابوس مخيف يؤثر على مجريات الحياة

---

(١) عاموس عوز: " ميخائيل شلي " (عزيزي ميخائيل)، رواية، مرجع سابق، (ص٧٠).
(٢) نفس المرجع (ص١٧٧ـ١٧٨).
(٣) عاموس عوز: " هامنساف هاشليشى " (الحالة الثالثة)، رواية، مرجع سابق، (ص٥٧).
(*) يوعزر: شخصية خيالية نسجها " فيما ". وهى حفيد الأحفاد الذي سيظهر بعد مائة عام ليقيم أعمال أجداده الحالية.
(٤) نفس المرجع (ص٩٧).

السيكولوجية، وقد يكون عوز يطلق صرخة في الخيال لما قد يحدث في الواقع الملموس ويحذر منه.

وهكذا، ظهر العربي في أعمال عوز ككابوس مخيف ومزعج يهدد المجتمع الإسرائيلي، وظهر كشخصية ليس لها ماضي أو حاضر أو مستقبل، وأحيانًا كانت سببًا في تذبذب الشخصية اليهودية نفسيًا واجتماعيا[1]. كما أنه كان عنصرًا من عناصر الطبيعة المهددة فتقول "نوريت جريتس "عن المجموعة القصصية (بلاد ابن آوى): "في هذه المجموعة يدور صراع بين ابن الحضارة الذي يعيش في كنف الأيديولوجية الصهيونية وبين الطبيعة المهددة بعناصرها المتمثلة في: الذئاب، العرب، والجبال"[2].

وهكذا يتعامل عوز مع الواقع بصورة واقعية، وينظر إلى ما يحيط بالشخصية الإسرائيلية بنظرة واقعية تكشف عن ما يحيط بها من عناصر مهددة حتى ولو كان من بينها العربي الفلسطيني. وربما يكون عوز قد نظر إلى العربي على أنه أحد العناصر الطبيعية المهددة للوجود الصهيوني على أرض فلسطين، إيمانًا منه بأن العربي، شأنه شأن قوى الطبيعة، التي هو عنصر من عناصرها، يستحيل القضاء عليه، ولكن لابد من أسلوب وحل للتقليل من خطورته، فكما أن عناصر الطبيعة لا يمكن محوها ولكن من الممكن التقليل من أخطارها، فكذلك العربي لا يمكن تجنبه وتجنب أخطاره المهددة للكيان الإسرائيلي ولكن من الممكن الحذر منه. فتعامل معه عوز من منطلق الهجوم عليه. وعمد إلى تشويه صورته، ونظر إليه على أنه ظاهرة يجب التعامل معها بحرص وبحذر.

لقد حكم عوز منذ إصدار مجموعته القصصية (بلاد ابن آوى) هذا العواء الذي ينبعث في الليل ويهدد الكيان الإسرائيلي المعزول عن محيطه العربي. وبالطبع "ابن آوى "هو رمز للعرب، وتوراتيًا هو رمز للاندثار والخراب. وفى روايات عوز جميعها نرى صراعًا بين الإنسان المتحضر الذي يمثله اليهودي، عادة، وبين الطبيعة المتمثلة في الجبال والصحارى والعرب. وكل ذلك يهدده بالخطر والزوال. وفى روايته (مكان آخر) يبدو العربي كظاهرة طبيعية شريرة يجب القضاء عليها، بينما في روايته (عزيزي ميخائيل) لا يظهر العربي إلا في

---

(١) شمعون ليفى: "شفوييم بافديون، هاعرفى باسيبورت هاعفريت هاحداشاه" (أسرى في الخيال، العربي في الأدب القصصي الإسرائيلي)، مجلة موزنايم، العدد ٥-٦، إسرائيل، ١٩٨٣، (ص٧٣).

(٢) نوريت جيريتس: "عاموس عوز، مونوجرافية" (السيرة الذاتية لعاموس عوز)، دار نشر سفريات بوعاليم، تل أبيب، ١٩٨٠ (ص٩٣).

صورة كابوس يطارد "حنة" في أحلامها بسبب شعور الاغتراب الذي ينتابها بشكل دائم داخل إسرائيل، والمخاوف والوساوس التي تطاردها لدرجة أنها ترى أن أمانها واستقرارها يكمنان في استسلامها لقوى وحشية بدائية متمثلة في هذين الفدائيين العربيين التي تربت معهما في صغارها ويطاردنها في أحلامها. وعمومًا، فإن العربي الفلسطيني في أعمال عوز له في نفس الوقت، حضور دائم وغياب دائم، وهو حضور لا يأخذ شكلاً إنسانيًا قط برغم أنه أحد المحاور الأساسية في الصراع. ففي روايته (صندوق أسود) التي كتبها على شكل رسائل بين أفراد عائلة يهودية وأصدقائها وأقاربها ومحاميها، يظهر العربي أو على الأقل يوصف بأنه شخصية متوحشة تتعطش لسفك الدماء، وينصح الابن بالابتعاد عن العرب حتى لا يصبح مثلهم. فالحل في رأى عوز أن يبتعد اليهودي عن العربي، وأن تكون هناك دولتان: إسرائيلية وفلسطينية[1].

إن العربي مهما حاول أي أديب إسرائيلي أن يشوه صورته، إلا أن ذلك الأديب في داخله لن يستطيع أن يذيب صورة العربي الحقيقية أو ينكر العلاقة التي تربطه به كعلاقة الند للند، حتى وإن عمد الأدباء الإسرائيليون إلى وضعه في صورة هامشية، وإظهار أنه أدنى بكثير من الشخصية الإسرائيلية، ليسهل التعامل معه والقضاء عليه.

ويمكن القول؛ إن هذا هو الواقع المفهوم الذي تحاول إسرائيل أن تصل إلى غرسه في أذهان الإسرائيليين اليهود أولاً، ثم في أذهان الأفراد والجماعات الاجتماعية والحكومات في العالم ثانيًا، وذلك على أساس أن هذه الفكرة لو استقرت في الأذهان، فإن شأنها أن تساعد إسرائيل لدرجة كبيرة على مواصلة سياستها العدوانية التوسعية إزاء العالم العربي، وعلى حساب العرب الذين لا يستحقون وفقًا لمنطق الدعاية الإسرائيلية الصهيونية اهتماما كبيرًا ما داموا أدنى من الإسرائيليين[2].

(٣) نفوذ المتدينين والحاخامات اليهود داخل المجتمع الإسرائيلي:

تمثل القوى الدينية في إسرائيل مروحة واسعة من الاتجاهات تتراوح بين تأييد

---

(١) أحمد عمر شاهين: أحمد عمر شاهين: الرواية الإسرائيلية المعاصرة، مجلة إبداع، العدد الثاني فبراير ١٩٩٥، (ص ١٤، ١٥).

(٢) السيد ياسين: الشخصية العربية بين مفهوم الذات و مفهوم الآخر، مكتبة مدبولي، ١٩٩٣. (ص ١٨٥).

الصهيونية العلمانية فيما عرف بـ "الصهيونية الدينية" وبين "معاداة الصهيونية"، وبين السلفية المغالية في التشدد وتكفير الدولة والانعزالية (الحريديم)[1]، إلا أنها تشترك جميعًا في طرح تعريف اليهودية لتكون مجرد انتماء أو لمجرد الانتماء. إن المعيار لدى هذه القوى سواء حزبية أو غير حزبية، هو التقيد الصارم بالعبادات والتأكيد على الالتزام "بالشريعة اليهودية" (الهالاخاه)، والتعبير عن الإيمان وسيادة الطقوس والتقيد بأحكام المذهب الديني الذي يتمسك به زعماؤها الروحانيون فيما يتصل بقضايا الحياة[2].

وفيما يتعلق بمسألة الصراع العربي الإسرائيلي؛ تشهد إسرائيل منذ الثلث الأخير من القرن العشرين زيادة مطردة في نمو القوى الدينية المتطرفة حتى باتت تشكل قوة فاعلة ومؤثرة في الداخل، كما تشكل على نحو خاص خطورة على قضايا السلام والأمن في المنطقة العربية.

ويمكننا حصر خطورة الأحزاب والجماعات الدينية المتطرفة في النقاط التالية[3]:

* إنه يغلب على الخطاب الصادر عن الأحزاب والجماعات والأحزاب الدينية في إسرائيل سمة التطرف؛ يتساوى في ذلك علاقتهم بالآخر اليهودي الخارج عن نطاق جماعتهم، والآخر بوجه عام؛ ثم العربي وإن كانت تتخذ مواقف أشد عداوة وقسوة مع الأخير.

---

(١) الحريديم: يطلق على اليهود المتدينين المغالين في التشدد، والذين يعادون الصهيونية، ويكفرون الدولة ويعيشون في عزلة جيتوية. و "الحريديم" ليسوا كالمتدينين العاديين الذين يرتدون "الطاقية اليهودية"، فهم خلافًا لهؤلاء جميعًا يرتدون ملابس ذات لون أسود أيًا كانت درجة حرارة الجو، ويرتدون غطاء أسود للرأس أسفل قبعة سوداء، ويرسلون ذقونهم. ويعيشون في جو القرون الوسطى، ويتحدثون "اليديش". وهم واثقون أن طريقهم هو الطريق الصائب الوحيد، ويستخدمون وسائل "الإكراه الديني" والتدخل في حياة الآخرين، وكل الوسائل بالنسبة لهم مشروعة بما في ذلك استخدام سلاح الاعتداء والمتفجرات ضد اليهود الآخرين الضالين، ويشنون حربًا على الثقافة العلمانية للمجتمع الإسرائيلي.

(أنظر: د. رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، سلسلة عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو ١٩٩٤، العدد ١٨٦، ص(٣٠١، ٣٠٢).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق (ص٩)

(٣) أنظر: د. منى ناظم الدبوسي: توظيف النصوص الدينية في الخطاب السياسي للحاخامات اليهود المتطرفين؛ توظيف المصطلح والنص في الدراسات العربية، دار العلوم للنشر، القاهرة؛٢٠٠٦، (ص ٢١٥).

* إن الفتاوى والأحكام التي يصدرها حاخامات الأحزاب والجماعات وكل ما يتعلق بحياة أتباعهم تأتي مُشَبَّعَة بعبارات ومصطلحات دينية ترجع في أصولها إلى مواقف وأحقاب موغلة في القدم ثم يتم توظيفها وفقا لأهداف تبعد عن تلك الأصول كل البعد، الأمر الذي يضفي على الفتاوى الجديدة قدسية دينية خاصة.
* إن أتباع هذه القوى الدينية المتطرفة يأتمرون بأمر حاخاماتهم ويطيعونهم طاعة عمياء وينظرون إلى فتواهم وأقوالهم على أنها أوامر منزلة توجب التنفيذ دون مناقشة.
* إن المشهد السياسي في إسرائيل يكشف أنه على الرغم مما تبديه الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من رفض لبعض ما يصدر عن تلك الأحزاب والجماعات الدينية من فتاوى ومواقف متشددة فإنها في ذات الوقت تجيد توظيف كل ما يصدر عنها لتحقيق أهدافها ومطامعها في المنطقة.
* إن الخريطة السياسية في إسرائيل تشير إلى أن التيارات الدينية واليمينية المتطرفة أيضا في زيادة مستمرة وهو ما أثبتته الانتخابات الأخيرة.

من هنا يمكن القول بأن المتدينين والحاخامات(*) اليهود؛ كممثلين للديانة اليهودية بطابعها الكهنوتي المغلق، يلعبون دوراً مهمًا ورئيسًا في تشكيل الوعي الديني والسياسي داخل المجتمع الإسرائيلي، فالحاخامات اليهود في كل مكان داخل المجتمع الإسرائيلي.. في المحكمة الشرعية، وفى دور العبادة، وفى الجيش، وفى الكنيست، يرفضون ويقررون ما يشاءون.

وثمة نظرة عابرة تجاه دور الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلي، تكشف لنا عن مدى الرعب الذي يتأجج في قلوب اليهود من فتاوى هؤلاء الحاخامات فيما يتعلق بقضايا الصراع العربي الإسرائيلي، والتي تعد أمراً واجب التنفيذ دون أدنى مناقشة أو اعتراض، لاسيما وأن من أهم وصايا اليهودية (اتخذ لنفسك حاخامًا)؛ وهى ثقافة يحاول هؤلاء

(*) "حاخام" كلمة عبرية معناها "الرجل الحكيم أو العاقل" وكان هذا المصطلح يطلق على جماعة المعلمين الفريسيين "حاخاميم" ومنها أخذت كلمة حاخام لتدل على المفرد. أما كامة "راباى" فهي في عبرية التوراة بمعنى "عظيم" وهى من الجذر السامي "رب" بمعنى "سيد" أو "قيم على آخرين" مثلما نقول في العربية "رب البيت". ولكنها على أية حال لا ترد في التوراة نفسها. وتطور معنى الكلمة في العبرية المشناة، وأصبحت بمعنى "سيد" مقابل "عبد" ولكنها في كتابات معلمي المشناة "تنائيم" أصبحت لقبًا للحكماء، وكلمة "راباى" تعنى "سيدي" وينطقها السفاراد "ربى". ولما كان اللقب لا يخلع إلا على من تم ترسيمه حاخامًا (ولم يكن هذا إلا في فلسطين).

الحاخامات بثها في ربوع المجتمع، مستغلين في ذلك مكانتهم الدينية ونفوذهم على المستوى السياسي داخل إسرائيل.

ويمكن القول، إن الحاخامات اليهود المتطرفين أقاموا دولة داخل دولة - إن صح التعبير - وتغلغلوا في شتى نواحي الحياة وفرضوا كلمتهم، وعرضوا حياة المسئولين الإسرائيليين بما فيهم رئيس الوزراء للخطر؛ مثلما رأينا في حادثة مقتل يتسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق؛ الذي قتل بناء على فتوى من أحد الحاخامات اليهود لأنه كان بصدد إبرام اتفاق سيعيد بموجبه بعض الأراضي المحتلة إلى الفلسطينيين.

لقد نظر الحاخامات اليهود إلى خطة رابين؛ التي جاءت في إطار اتفاقية "أوسلو"، على أنها تخليًا عن "أرض إسرائيل" فأقاموا صلوات طلب الهلاك له المعروفة بمصطلح "بولسا دنورا" أي لعنة "الضرب بسياط من النار" وهو مصطلح ديني، في الشريعة اليهودية، يعني اللعنة والموت لمن لعن، حيث ورد مصطلح "بولسا دنورا" في كتاب "الزوهار" اليهودي في عدة فقرات كعقاب للخاطئين. كما أصدروا كذلك فتاوى دينية متنوعة تحل دمه وتهدره وتجعله حلالاً لأي يهودي يستطيع القضاء على حياته، والذي يشمل فتوى "دين روديف" أي حكم "القائم بمطاردة يهودي وتعريض حياته للخطر"، وفتوى "دين موسير" حيث أن المصطلح يعني "المفرِّط" أي الذي يسلم شخصا ما أو ممتلكات الغير للجوييم - (غير اليهود)، أو من "يفرط في "أرض إسرائيل" (حديثا)، وهي الفتوى التي تسمح لأي يهودي، يلاحظ أن يهوديًا عاديًا يطارد يهوديًا آخر بهدف قتله أو تعريض حياته للخطر، بقتل اليهودي العادي إنقاذًا لحياة اليهودي المسالم محل المطاردة. تلك الفتوى التي استخلصها الفقهاء المتطرفون من أحكام الشريعة اليهودية، وطبقوها على حالة "رابين" باعتباره يهوديًا معاديًا يعرِّض حياة اليهود المسالمين للخطر. وهو ما أعطى خلية من الشباب اليهودي الديني السند الديني اللازم لقتل "رابين"[1].

من هنا تبقى الفتاوى الخاصة بـ"أرض الميعاد" مسألة غاية في الخطورة، تشكل في النهاية ثقافة مجتمعية وإشكالية معقدة ومتشابكة من المنظور الديني للصراع، خاصة وقد اتخذ الحاخامات اليهود من فكرة "الوعد الإلهي" بالأرض ذريعة من أجل دفع الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التي وعدهم بها الرب حسب ادعائهم، واتخذت فتاواهم منحنى

---

(١) أنظر: سامية جمعة على، توظيف المصطلح الديني في الواقع السياسي في إسرائيل، كتاب (توظيف المصطلح والنص في الدراسات العبرية)، مرجع سابق؛ (ص٣٤٣-٣٤٤).

خطر تجاه التعامل مع الفلسطينيين أصحاب هذه الأرض بكل قسوة وعنف . ولم تكن رائحة القتل والهدم والتخريب التي تنبعث من فتاواهم مصدر رعب أو خوف بالنسبة للعربي (الفلسطيني) بقدر ما تمثله من كابوس ومظهر من المظاهر الصارخة التي تجتاح المجتمع الإسرائيلي وتشكل في النهاية تصعيداً يكمن وراءه خلفية عقائدية عنصرية .

لقد شكلت فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين وجدان النفسية الإسرائيلية المتدينة، وتعاظمت، إلى أن تخطت حدود المعقول، حينما تحدثت عن إهدار الدماء، حتى لليهودي، في سبيل المحافظة على (الأرض المقدسة) معتمدين في ذلك على بعض النصوص المقدسة التي يأمر فيها الرب بقتل النساء والأطفال وتخريب المرتفعات، مثلما جاء في بعض النصوص التوراتية؛ وكما سنبين بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

ويعلق الأديب الإسرائيلي عاموس عوز على نفوذ هؤلاء الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلي بقوله : " إن الأهداف الحقيقية لهذه الجماعة هي، فرض سلطة عنيفة وقبيحة ومشوهة لليهودية على دولة إسرائيل . . . إن الهدف الحقيقي لهذه الجماعة هو طرد العرب من أجل قمع اليهود بعد ذلك، وإخضاعنا جميعًا لادعاءات أنبيائهم الكاذبين المتوحشين "[1] .

ويضيف عوز قائلاً ومحذرًا من دور هؤلاء الحاخامات : " إن إسرائيل الجديدة ليست نموذجًا من سوق مملكة داود وسليمان ولا دولة الهيكل الثاني . إن هذه الدولة غارقة في وضع معوج ومرتبط بكل ما هو مقابل أو معارض، فالتوراه والأنبياء والمشنا والجمارا و البيوط والهالاخاوت والصلوات، كل هذا حاضر هنا ويحملق فينا من كل صوب دون أن نكون وسطهم ودون أن نكون بعيدًا عنهم . . "[2] .

وينظر الحاخامات اليهود إلى الأرض - محور الصراع العربي الإسرائيلي - بوصفها تلك الأرض المقدسة التي ذكرتها توراتهم وغيرها من كتب الدين اليهودي، في مواضع شتى كثيرة . وهو الأمر الذي لعبت عليه الحركة الصهيونية في مداعبة أحاسيس اليهود في بلاد الانتشار وحثهم على الهجرة إلى أرض فلسطين أرض الميعاد؛ التي وعدهم الرب بها؛ واستقلت الصهيونية؛ وقتها؛ قطار اليهودية حتى وصل بها إلى أرض فلسطين .

---

(١) عاموس عوز : "بشم هاحييم فهاشالوم" (باسم الحياة والسلام)، صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، ١٠-٣-١٩٩٨ .

(٢) عاموس عوز : "بأور هاتيخليت هاعازاه" (في الضوء الأزرق الساطع)، مرجع سابق، (ص٧٨) .

فالدين اليهودي، بكتبه وأساطيره المختلفة، يضفي على أرض فلسطين الكثير من الصفات الدينية التي رأى مؤسسو الصهيونية إمكانية استثمارها وتوظيفها في خدمة أهدافهم والدعاية لها، على المستويين اليهودي والعالمي معًا، وعلى المديين القريب والبعيد.. لاسيما وأن هذه الصفات راسخة في الوجدان الديني للكثير من يهود العالم، بل تكاد تشكل الجزء الأعظم من نسيج هذا الوجدان.. فهي - أي أرض فلسطين - (الأرض المقدسة) (سفر زكريا ٢ -١٢)، والأرض التي يقطن فيها الله، ولذا فهي (أرض الرب) (يوشع ٩-٣)، و(أرض الميعاد)، لأن الله (وعد) إبراهيم بها وعاهده على أن تكون لنسله. وهي أيضًا (أرض الميعاد)، لأن اليهود (سيعودون) إليها تحت قيادة الماشيح (المسيح المخلص اليهودي)، وهي (الأرض التي يرعاها الله) (تثنية ١١ - ١٢)، والأرض المختارة التي تفوق في قدسيتها أي أرض أخرى (لارتباطها بالشعب المختار)[1].

في هذه الحالة؛ فيصير الصراع حربًا مقدسة؛ بمباركة الحاخامات بإجازة قتل الأطفال والشيوخ والنساء وكل من يعترض احتلال اليهود لهذه الأرض المقدسة؛ إنها حرب مقدسة امتزجت فيها فتاوى القتل بظهور الحاخامات؛ وهم يباركون الجنود المشاركين في الاعتداء على الشعب اللبناني والفلسطيني؛ وهم ممسكون بالتوراة في ميدان المعركة وبجوار الدبابات.

ومعنى هذا أن الحاخامات اليهود المتطرفين اتخذوا من الوعد الإلهي حجة من أجل دفع الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التي وعدهم بها الرب حسب ادعائهم، وأحاطوا فتاواهم بنوع من القدسية والتهديد في آن واحد، بحيث لا تقبل المراجعة أو النقد؛ فهي أمر واجب التنفيذ فحسب، واتخذت فتاواهم منحنى خطرًا تجاه التعامل مع الفلسطينيين أصحاب هذه الأرض بكل قسوة وعنف؛ وأصبحت عمليات القتل والهدم والتخريب، وكأنها طقس من الطقوس البدائية التي عادت لتقدم قربانًا للرب طمعًا في إرضائه.

وكان الحاخامات اليهود وما زالوا يدلون بدلوهم في كافة المفاوضات السياسية التي يقوم بها المسئولون الإسرائيليون مع الفلسطينيين، فهم حجر عثرة في تنفيذ هذه الاتفاقيات، ولعل سياسات المماطلة والرجوع إلى المربع رقم واحد؛ خير دليل على هذا، وعلى سبيل المثال؛ وبشأن مفاوضات إخلاء المستوطنات التي جرت في نهاية عام ٢٠٠٢،

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري، اليهودية والصهيونية وإسرائيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، ص (١٠ - ١١).

أصدرت لجنة حاخامات المستوطنات؛ بيانًا شديد اللهجة ضد إخلاء أية مواقع استيطانية مأهولة في الضفة الغربية. وقد انبثق هذا القرار عن سلسلة اجتماعات طارئة عقدت في المواقع الاستيطانية غير القانونية في أعقاب خطة الجهاز الأمني بإجلاء القاطنين في هذه المواقع.

وقد عقدت لجنة حاخامات المستوطنات اجتماعًا طارئًا تمخض عنه القرارات التالية[1]:

(١) كل موقع استيطاني في أرض إسرائيل هو فريضة من فرائض أعمار إسرائيل، ويمنع إخلاؤه منعًا باتًا.

(٢) الجيش الإسرائيلي هو جيش الشعب ومهمته تتجسد في محاربة (الإرهاب) والانتصار على أعداء إسرائيل.

(٣) لا يمكن لأية جهة كانت، حتى لو كان الحديث عن وزير في حكومة إسرائيل، أن يستغل مركزه استغلالاً سلبيًا ويستعمل الجيش الإسرائيلي لإجلاء المواقع الاستيطانية وجره بذلك إلى النقاش السياسي العام.

بالإضافة إلى ذلك، دعا حاخامات المستوطنات في الضفة الغربية ومن بينهم الحاخام زلمان ميلاميد والحاخام إلياكيم لفانون والحاخام دانئيل شيلا والحاخام دوف لئور، كل جندي للتوجه إلى قائدة بطلب إعفائه من كل أمر يتعلق بإخلاء المواقع الاستيطانية غير القانونية بسبب معتقداته الدينية والضميرية. وأضاف الحاخامات: "الجيش الإسرائيلي يعمل ليلاً نهارًا من أجل الدفاع عن الوطن من وجه (الأعداء)، وبناء على ذلك فإن أي توجيه آخر لقوات الجيش ستشغله عن مهماته الرئيسة ما سيؤثر حتمًا على الوضع الأمني، وذلك وفقًا لوجهات نظر الأجهزة الأمنية واستنادًا إلى الحقائق على ارض الواقع"[2].

ودعت لجنة حاخامات المستوطنات المزيد من العائلات الوصول إلى المواقع الاستيطانية غير القانونية والتشبث في كل موقع يحتاج إلى ذلك؛ وأعلن الحاخامات أيضًا "أن أية حكومة تمس بأي جزء من الاستيطان لا تستحق أي تعاون معها وعلى كل الأحزاب الصهيونية أن لا تساند حكومة كهذه"[3].

---

(١) أنظر صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٢.

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع.

ويـذهب "إسحاق نسيم" حاخام إسرائيل الأكبر السابق، إلى أن "أرض إسرائيل هي الميراث المقدس لدى كل يهودي، ولا تملك أية سلطة دنيوية أو دينية على نقض هذا الدعاء أو التقليل من شأنه"(1).

ويمتد هذا التعصب الديني إلى أن بعض الحاخامات اليهود المتطرفين لا يعترفون بوجود أراض عـربية، ويستندون في ذلـك إلى مـا ورد في الـتوراة علـى أنهـا تـراث الآباء إسحاق ويعقـوب، حـيث يقـول الحاخـام يهودا كوك الابن: "إن هذه البلاد لنا، ولا توجد هنا أية مـناطق عـربية أو أرض عـربية، بـل أرض إسـرائيل. تـراث الآباء الخالد، وهي ـ في جميع حدودها الواردة في التوراة ـ تابعة للحكم الإسرائيلي"(2).

ويعـتمد الحلـم الاستيطاني لـدى الحاخامـات الـيهود المتطـرفين، على توسيع نطاق الاحتلال أي توسيع نطاق مملكة إسرائيل حتى الحدود الموعودة في العهد، الذي قطعة الرب مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ظنًا منهم بأن توسيع الاستيطان يعنى المحافظة على العهد، والـتقاعس عـنه يعنـى مخالفـة العهد. وقد كتبت لجنة حاخامات الضفة الغربية وقطاع غزة تقـول: "لا يجـوز أن يقـوم المـؤمن الـيهودي بـأي دور في خـيانة الـوعد الإلهي المكتوب في توراتـنا، الـذي وعـد فيه اليهود بأرض إسرائيل... وقد كتب الحاخام دافيد شفيتس أحد كـتاب حـركة (زعامـة يهـودية)، إنه لا مجال للتفاوض بشأن الحفاظ على العهد الذي تلقاه أبونا إبراهيم من الرب، فهذا (إرث شعب إسرائيل)"(3).

وهكـذا تمـثل فـتاوى الحاخامـات الـيهود عنصرًا فاعلاً في تزكية ثقافة العنف والصراع داخل المجتمع الإسرائيلي، وربما كانت هذه الفتاوى سببًا رئيسًا من أسباب الروح العدوانية تجـاه العـرب لـدى الشخـصية الـيهودية الإسـرائيلية، وهـو مـا يفسر أيضًا الممارسات غير الإنسانية التي يقوم بها الجنود الإسرائيليون ضد الفلسطينيين في المناطق المحتلة. فتعليقًا على اتهام ضابط إسرائيلي برتبة نقيب أطلق النار على جثة طفلة فلسطينية عند محور فيلادلفلى، يقـول الحاخـام يـوفال شارلو: "في هذا الصدد، وردت في الشريعة اليهودية قاعدة أساسية تقـول: (مـن جـاء ليقـتلك بكـر بقتله) فطالما أن هناك خطرًا من جانب شخص على حياة الإنسان، فإن الشريعة تقرر قتل هذا الشخص"(4).

---

(1) أحمـد بهـاء الـدين شـعبان: أحمـد بهـاء الـدين شـعبان: حاخامـات وجنرالات، الدين والدولة في إسرائيل، نوارة للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦، (ص ١٥).

(2) نفس المرجع، (ص٣٣).

(3) يوسيف حرموني – www.nrg.co.il

(4)www.a7.org / 23-11-2004

وفـي حقـيقة الأمـر تنـبع خطـورة هـذه الفتاوى في التأثير على بعض الجنود والضباط الإسـرائيليين الـذين يعتبرونها نوعًا من الأوامر الشرعية الأخلاقية واجبة الطاعة والتنفيذ في الحـياة اليومـية بالمـناطق المحـتلة، ومـن ثم فإن هذه الشرعية تعنى أن المواجهة بين إسرائيل والفلـسطينيين ليست صراعًا سياسيًا يمكن حله عن طريق التسوية السياسية، بل هي حرب إلهيه أبدية، حرب الرب ضد شعب العماليق.

(٤) استلهام العنف من التراث الديني اليهودي:

حـاول العديـد مـن علماء النفس الإسرائيليين تفسير الروح العدوانية تجاه العرب لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية، وعزوا ذلك إلى عدة عوامل؛ كان أهمها درء الأخطار التي تهـدد المجـتمع الإسـرائيلي الـذي يعـيش محنة القلق الوجودي طالما تحتل إسرائيل جزء من الأراضـي العـربية. وتتزايد هذه المخاوف مع كل حرب تخوضوها إسرائيل ومع كل هجمة من هجمات الفدائيين الفلسطينيين عبر الحدود العربية المتاخمة لإسرائيل.

وعلـى أي الحالات، فإنه لا يمكن الاقتصار في تفسير العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسـرائيلية، على العوامل الخارِجية أو المثيرات الخارجية الموضوعية فحسب، بل لابد من تقـصي جـذورها الضاربة في التكوين السيكولوجي التاريخي والعقائدي للشخصية اليهودية الإسرائيلية[1].

حيث يزخـر تـاريخ الـيهود علـى الـنحو المدون بـه في "العهـد القـديم" بالكثير من الإشـارات إلى أشـكال هذا الصراع التي تجسدت فيما عرف بأنه "الحرب"، فالتوراة تطبع العقـيدة الإسرائيلية بعد ذلك برباط و ثيق بين "حرب إسرائيل" و"رب إسرائيل"، حيث يصبح هذا الرب هو "رب الجنود" الذي يمهد لبنيْ إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم في الغزو و الاحـتلال و طـرد الـشعوب: "حدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مـصر مـن بكـر فـرعون الجـالس علـى كرسـيه إلى بكـر الأسير الذي في السجن و كل بكر بهـيمة" (سـفر الخـروج ٢٩ : ١٣). "الـرب الهك هو العابر أمامك نارا آكلة. هو يبيدهم ويـذلهم أمامك فتطردهم و تهلكهم سريعا كما كلمك الرب" (التثنية ٣ : ٩). وبعد ذلك حيـنما تحدث معجزة شق البحر و يخلص الرب إسرائيل من يد المصريين، فإن موسى و بني إسـرائيل يترنمون بتسبيحة للرب يصفون فيها الرب بأنه "رجل الحرب" (الخروج٣ : ١٥). وحيـنما انتـصر جـند موسـى علـى المديانيين و جاءوا بالسبايا و الغنائم، قال لهم موسـى:

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٤٤).

" فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوهما . لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيات " (العدد ١٧ : ٣) . ويوصي الرب موسى قائلا : " فتطردون كل سكان الأرض من أماكن، و تمحون جميع تصاويرهم و تبيدون كل أصنامهم المسبوكة و تخربون جميع مرتفعاتهم " (العدد ٣٣ : ٥٢) . وقد جمعت قوانين الحرب في " العهد القديم " في سفر التثنية، وهي تحدد لهم أسلوب الاستيلاء على المدن، و أسلوب التعامل مع أهل البلاد في الإصحاحات التالية : وهي الإصحاح العشرون، والإصحاح الحادي و العشرون الفقرات ١٠ـ١٤ ، والإصحاح الثالث و العشرون الفقرات ١٠ـ١٦ ، والإصحاح الرابع والعشرون الفقرة الخامس . . . وهذه القوانين هي التي يتسلمها القادة الإسرائيليون كمصدر وحي، و كشريعة مقدسة لاستئناف البعث الإسرائيلي في فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية و قانونية من أجل تحقيق وعد الرب . وكان يشوع بن نون هو الذي أرسى تقاليد العسكرية الإسرائيلية التي تحظى بالقدسية، والتي تنفذ كما لو كانت طقسا من طقوس القرابين البدائية طمعا في رضاء الرب في الجسد العربي و اللحم العربي والأرض العربية [١] .

وهكذا، تسود روح العنف في نفسية هذه الشخصية كتعبير عن طاقة مكبوتة، وعن ظروف وقعت أسيرة فيها . وروح العنف يمكن الإحساس بها كقوة تحريرية كتنفيس عن طاقة مكبوتة ، لتخفف من نير العبودية التي لم يعد ضغطها محتملاً . كانعتاق . كتحرير [٢] . وهو أمر تنبه إليه جيل الآباء، فحاولوا غرس العداوة والعدوانية في جيل الأبناء، وفي نفوس أطفالهم لتكون نشأتهم نشأة عدوانية تحميهم من أية محاولة يتذكرون فيها الماضي وذله .

ومن هنا، فإن العنف يصبح هو الأداة التي يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة شخصية اليهودي، فاليهودي - في هذا التصور - يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه، ومن ذاته الطفيلية الهامشية . إن العنف يصبح هنا مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أفرادها إلى سن الرجولة، لأن اليهودي حينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديراً بالحياة [٣] .

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٤٤) .
(٢) د. قدري حفني : دراسة في الشخصية الإسرائيلية ، مرجع سابق ، (ص ٢٥٩) .
(٣) د. رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، (ص ١٨٤) .

وقد كانت إحدى النتائج التي ترتبت على تقاليد الروح العدوانية في الفكر الصهيوني وتواصل الحروب، أن ثبتت عبادة القسوة بين الشباب الإسرائيليين. حيث يقول الكاتب " عاموس ايلون " موضحًا الكيفية التي تتم بها عملية زرع روح عبادة القوة والقسوة : "لقد نما نوع من القسوة الإسبرطية على مر السنين، وأصبحت تميز الآن أقسامًا كبيرة من الإسرائيليين الراشدين. وهذه القسوة الإسبرطية الوحشية، تبدأ منذ سنوات مبكرة في حياة الفتى الإسرائيلي من خلال اختبارات قاسية لقوة الاحتمال في مناخ وظروف وأرض قاسية جدًا أثناء تدريبات " الجدناع(*)،(1) وكثيرًا ما تظهر "الأنا" الإسرائيلية بمظهر استفزازي في المقدرات الاقتصادية للناس، تدعو السوقة والغوغاء من المتضررين بالعبث اليهودي إلى استعمال العنف، والعنف قوة جنونية إذا أفلتت وجمحت لا يدرى أحد كيف تنتهي(2).

وغالبًا ما تأتي العدوانية نتيجة إحساس بعدم الأمان، والخوف من الهزيمة. ويلجأ الفرد الإسرائيلي إليها لعدم الثقة في الآخر أو فيما حوله، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لأنه تربى عليها وتشربها واقتنع بها جيدًا واستلهما من تراثه الديني، فهي ملاذ له من الأخطار المحيطة به من كل صوب. وهو الأمر الذي يعطى له علم النفس التفسير المقبول: (إذا ما تعرض الفرد لعدوان لا قبل له بمواجهته، وأصبحت الهزيمة خطرًا يهدد اتزانه النفسي، فإنه كثيرًا ما يلجأ إلى اتخاذ مصادر العدوان مصادر له يقتدي بها، ومثلاً عليا يسير على هديها حفاظًا على اتزانه النفسي(3).

ولكي نتدارك أسباب العنف في النفسية الإسرائيلية، علينا أن ندرك الشخصية اليهودية التي تتسم، بصفة عامة، بنوع من الجدلية المتناقضة ما بين الشعور بالدونية تجاه الأمم غير اليهودية تارة، والشعور بالاستعلاء تارة أخرى. وهو أمر يحاول اليهودي أن يستعوضه باستعراض أقسى درجات العنف والقسوة تجاه (الآخر) غير اليهودي.

(*) الجدناع : هي اختصار الكلمات العبرية (كتائب الشباب) . وتعتبر منظمة عسكرية للشباب ما قبل سن الثامنة عشرة ، أي ما قبل دخول الجيش . وفيها يتدرب الشباب الصغار على استعمال الأسلحة، والعمل متطوعين في المستوطنات اليهودية المختلفة .

(1) د. رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، (ص ٢٠٠) .

(2) د. حسن ظاظا : الشخصية الإسرائيلية ، مرجع سابق ، (ص ٨٩) .

(3) د. رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، (ص ١٤٦) .

وفي حقيقة الأمر، كان للديانة اليهودية دور مهم في صياغة هذه الشخصية اليهودية على هذا النحو، فبعض النصوص التوراتية تحدثت عن اليهود كجماعات دونية ومستعبدة مثلما جاء في سفر الخروج الذي تحدث عن حياة العبودية لليهود في مصر، "فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف" (خروج، ١٥ :٣)، "ومرروا حياتهم بعبودية قاسية" (خروج، ٣ :٩)، وتبدأ الوصايا العشر بتذكير اليهود بتخليصهم من "بيت العبودية" في مصر "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية" (الخروج ٢٠ :١). إن هذه النصوص التوراتية التي تغلغلت في النفس البشرية اليهودية وساهمت في تكوينها الشخصي والنفسي والأخلاقي تجاه التعامل مع غير اليهود على مر العصور أثرت بلا شك في طبيعة هذا السلوك اليهودي، الذي اتسم عند الشعور بالاستعلاء بممارسة العنف تجاه الآخرين، بل وربما التلذذ بتعذيبهم، وهي إشكالية معقدة، يطلق عليها علماء النفس، "التوحد في المعتدى"، أي أن العبد ينقلب سيدًا ويأخذ في ممارسة دور السيد تجاه الآخرين الذين صاروا بالنسبة له عبيدًا، وتتخذ سلوكياته وقتها مناحي أكثر عنفًا وأكثر قسوة.

"لقد خلقت لديهم هذه النصوص الدينية والتاريخية إحساسًا بالمذلة الدائمة، عوضوه بعد ذلك بسلوك عدواني ووحشي تشهد على ممارسته مدوناتهم كما سجلت في قصة غزو كنعان من منظورهم الديني القومي"[1].

وثمة عوامل تاريخية أخرى، أثرت أيضًا في التكوين الشخصي لليهود، تتضح في المراحل العديدة التي مرت بها الجماعات اليهودية منذ فجر التاريخ، ومرورًا بمرحلة الانعزالية "الجيتوية" والانعزالية "الصهيونية" ووصولاً إلى الانعزالية "الإسرائيلية" وهي مراحل ساهمت في تأصيل الروح العدوانية لدى اليهودي، كرد فعل للأحداث التاريخية والنفسية التي مرت بها جموع اليهود عبر هذه المراحل المختلفة.

ويمكن القول، إن الإحساس بالدونية والشعور بالاستعلاء في آن واحد لدى الشخصية اليهودية، هو أمر يحدث نوعًا من الارتباك والانفصام الشخصي غالبًا ما يتولد عنه الروح العدوانية وعبادة القسوة والعنف، مثلما يؤكد على ذلك علماء علم النفس والاجتماع.

وتبقى النصوص التوراتية دومًا، هي الدافع الرئيسي والمحرك الفعلي لتشكيل السلوك البشري اليهودي، فكما استلهمت الشخصية اليهودية مشاعر "الدونية" و"الاستعلاء"

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٢٩).

و "الاختيار" من العهد القديم، استلهمت أيضًا "الروح العدوانية" كسلوك مقدس يسمح لبني إسرائيل باستخدام كل السبل لتحقيق النبوءات والوعود، ويمهد الطريق أمام القتل والدمار والاحتلال، حيث يمتلئ العهد القديم بكثير من النصوص التي تنبعث منها رائحة العنف والدمار، والتي يستلهمها الحاخامات اليهود في فتاواهم ويعضدونها بهذه النصوص العدوانية التي تقذف الرعب في قلوب "الجوييم" (غير اليهود) وتذكرهم "برب إسرائيل" الذي يحارب مع بني إسرائيل ويمهد الطريق أمامهم لتحقيق مآربهم في الغزو والاحتلال: "الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك" (سفر التثنية ٧ : ١٥)، "الرب إلهك هو العابر أمامك نارًا آكلة هو يبيدهم ويزلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعًا كما كلمك الرب" (سفر التثنية ٩ : ٣).

ويتخذ الحاخامات اليهود من هذه النصوص التوراتية مصدرًا لفتاواهم الدينية، حتى لا تقبل الشك أو المناقشة، وأحيانًا يستخدمون هذه النصوص كتوصيف خطأ للحالة المراد الإفتاء فيها.

وعلى سبيل المثال، تتضح الروح العدوانية، في الفتوى التي أكد عليها الحاخام "شلومو أفنير" ونشرت في ٧/ ١٢/ ٢٠٠٤، بشأن حادثة مقتل أحد النشطاء الفلسطينيين المصابين على أيدي جنود الوحدة البحرية الإسرائيلية، فقد أفتى هذا الحاخام، بأن جنود الوحدة كان يجب عليهم قتل هذا الناشط، ، حتى بعد أن تم القبض عليه، ويطبق الحاخام هنا "حكم الجائر" الذي يهدر دمه، ويبرر الحاخام ذلك بأن هذا الناشط مازال يرغب في مواصلة القتل، ومن المحتمل عندما يشفى من جرحه ويخرج من سجنه أن يواصل اعتدائه[1].

ويبدو هنا أن الحاخامات يلتقطون فقط النصوص الدينية المبتورة التي تدعُو إلى العنف والقتل، ولا يلتفتون إلى النصوص المباشرة الأخرى، فهي تحرم أيضًا القتل مثل: "سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه. لأن الرب على صورته عمل الإنسان" (التكوين ٩ : ٦)، كما أن هناك أمرًا صريحًا لشعب إسرائيل يقول: "لا تقتل".

وتعلق "شولاميت آلوني" عضو الكنيست السابق، على مثل هذه الفتاوى، التي تهدر الدماء باسم الدين بقولها: "يبدو أن التعسف جعل رجال الدين حاخامات المدارس الدينية ذات الصبغة العسكرية يتجاوزون حدود العقل والدين. فجيش الاحتلال، والجشع

(١) يوسف عيدان، صحيفة معاريف، ٧-١٢-٢٠٠٤.

واستعراض القوة، والسهولة التي يمكن بها طرد الفلسطينيين من أرضهم وتحويل مدنهم إلى سجون، وردم آبارهم وإغلاق كهوف الدعاة في جبل الخليل، بما يعنى في الواقع تدمير أساس وجودهم، كل ذلك زاد من العجرفة والتكبر إلى أن أسفرا عن صدور رأى - هو بمثابة فتوى شرعية - يسمح أثناء أي عملية انتقامية ضد الفلسطينيين بقتل النساء والأطفال وكبار السن والمواطنين العاديين، رغم أنهم آدميون خلقوا على صورة الرب ولهم الحق في الحياة طبقًا لأي قانون"[1].

وقد أشارت ألونى أيضًا، إلى أن العقيدة الدينية تتسم بكثير من الجوانب الإنسانية، وقارنت بين قوانين نوح التي ورد ذكرها في سفر التكوين (٩ : ٤-٧) وبين مثل هذه الفتاوى المتطرفة التي تطالب بإراقة دماء الفلسطينيين، وشددت على أن قوانين نوح هي قوانين عالمية تطبق على كل البشر، حيث حظر الإله على نوح وأبناءه سفك الدماء، وأن هذه الشرائع ملزمة لليهود وغير اليهود.

وتمجيدًا لروح العدوانية والدعوة للقتل باسم الرب، قام بعض الحاخامات الذين يعتبر بعضهم "معتدلين" بالتوقيع على فتوى تبيح للجيش الإسرائيلي أن يوجه ضرباته إلى المدنيين الأبرياء أيضًا[2]. وقد أعطت هذه الفتوى الجديدة للجيش الإسرائيلي حرية قصف المناطق المكتظة بالسكان دون الاكتراث بوجود أطفال أو شيوخ. ورغم أن الجيش الإسرائيلي يتصرف على هذا النحو، دون حاجة إلى تصريح من رجال الدين، إلا أنه بذلك قد حصل أيضًا على موافقة صريحة من المتحدثين باسم الرب.

ومثل هذه الفتاوى تأخذ شكلاً أكثر خطورة بالنسبة لجنود المدارس الدينية تلاميذ، هؤلاء الحاخامات، وهو أمر يحذر منه أحد الكتاب الإسرائيليين بقوله: "إن كافة أقوال وتبريرات أولئك الحاخامات هي التملق بعينيه، فهم يحرضون على قتل المدنيين. وإذا لم نوقفهم ولم نندد بأقوالهم بكل الطرق، فسوف نتدهور بسرعة كبيرة لنصير في مستوى سدوم وعمورة"[3]. وهى الأقوام التي أهلكها الرب قديمًا.

وقد حذر البعض أيضًا من تدنيس "الإنسانية" باسم الدين على أيدي هؤلاء الحاخامات المتطرفين، رغم ما يستلهمونه من نصوص توراتية لتدعيم مواقفهم وأقوالهم،

---

(١) شولاميت ألونى، هاآرتس، ١٩-٩-٢٠٠٤، (עמ' 4).

(٢) صحيفة يديعوت أحرونوت، ١٩-٩-٢٠٠٤.

(٣) نفس المرجع.

فمثل هذه الفتاوى تمثل العنصرية في دولة تدعى الديمقراطية، فتقول شولاميت ألونى تعليقًا على هذه الفتاوى: "لن تؤدى مثل هذه الفتاوى، التي تقر بأن الدم اليهودي أكثر حمرة من دم غير اليهود، إلى احترام الشعب اليهودي. وللأسف، ففي الوقت الذي يتمتع فيه شعب إسرائيل بالسيادة على أرضه، ويسيطر على أقوى دولة في الشرق الأوسط، أصبحت (الإنسانية) مهددة إلى هذا الحد في نظر الكثيرين... على الرغم من أن هناك بعض رجال الدين الذين أصدروا فتاوى مختلفة عن تلك التي تقضى صراحة بقتل المدنيين، أو عن تلك التي تمتدح يجال عامير وشباب التلال(*)، وكل الذين يدمرون ويقتلون ويتسكعون في المناطق المحتلة ويطلقون النار في كل اتجاه"[1].

وتمتد خطورة هذا التعصب الديني العنصري في فتاوى هؤلاء الحاخامات إلى أنهم لا يعترفون بمشروعية التعبير عن رأى في مسألة سياسية أو عسكرية أو أخلاقية، ويتطلعون فقط إلى التأثير على السياسات الحكومية فحسب، وبما يخدم مصالحهم الشخصية تحت غطاء الشرعية الدينية، فهم يعطون لأنفسهم سلطة الإفتاء بما فيه مصلحتهم هم وأتباعهم ويتلونون طبقًا للظرف السياسي الذي تمر به الدولة. لقد صوت حزب "شاس" الديني ضد اقتراح قدم في الكنيست في الثامن وعشرين من مارس ٢٠٠٥ يدعو إلى عمل استفتاء عام قبل الانسحاب من غزة، وهو أمر يتعارض مع مبادئ الحزب، وتناقض نستطيع أن ندركه حين نعلم بأنه جرى اتفاق ما، بين أعضاء الحزب ورئيس الحكومة بشأن الميزانية.

وهكذا، تبدو الروح العدوانية سمة سيكولوجية تميزت بها الشخصية اليهودية على امتداد المراحل التاريخية المختلفة لدولة إسرائيل، وهى سمة تكاد تكون يهودية خالصة، "حيث كان بن جوريون يقول (إنني اعتبر يشوع بطل التوراة، إنه لم يكن مجرد قائد عسكري بل كان المرشد) وفى دير ياسين وغيرها من الأماكن كرر الإسرائيليون ما فعله يشوع بن نون عند دخوله أرض كنعان وفق ما ورد في التوراة... وقد علق موشيه مينوهين على هذا بقوله: (إن الاستشهاد بالتوراة والتوصل بالإرهاب لنشر الذعر، هما أسلوبان قديمان لتحرير أرض موعود بها والتخلص من سكانها الأصليين... وأشباه اليوم

(*) (شباب التلال): هي تسمية لجماعة من الشباب الإسرائيليين، تسكن التلال الجديدة في الضفة الغربية ويبلغ عددهم أكثر من ٢٠٠ شخص تقريبًا ويعيشون في نمط حياتي ديني_قومي يختلف عن النمط الشائع في المستعمرات، والنفسي يكونوا مختلفين عن الآخرين تبنوا نمطًا حياتيًا يقوم على الحياة البدائية.

(١) شولاميت ألونى، هاآرتس، نفس المرجع.

يتصرفون بنفس أسلوب يشوع في العصور القديمة، ثم يعرضون السلام بعد أن يكونوا قد أنجزوا المهمة القذرة"[1].

"وقد دعمت كتب التراث اليهودي التي جاءت بعد (العهد القديم) كالتلمود هذه القيم وتمسكت بها كذلك الفرق اليهودية المختلفة، وكانت الوسيلة أيضًا من أجل تحقيق المسيحانية لمن يؤمنون من اليهود (بالخلاص المسيحاني). وقد جعلت (الصهيونية الدينية) الحرب أساسًا من الأسس التي تقوم عليها هذه الصهيونية مستندة في ذلك إلى كل ما سبق ذكره من جذور تراثية في (العهد القديم) وتدعو للحرب وتشريعها"[2].

وكأننا أمام نصوص مقدسة وملزمة للإسرائيليين بضرورة إبادة الفلسطينيين، لأنهم من سلالة العماليق، وهى القبيلة التي تأمر التوراة اليهود بإبادتهم فهم رمز الشر. وكأننا أيضًا أمام صياغة جديدة ل "توراة جديدة" تحتوى فقط على مثل هذه النصوص المدمرة.

وبالطبع كان لهذه النصوص التوراتية التي اتخذها الحاخامات المتطرفين مصدرًا لفتاوى القتل والطرد أثر كبير في تغذية الوجدان الإسرائيلي بمبررات العنف والقسوة والوحشية، وتدريسها في المدارس الإسرائيلية دون أن تحظى بمعالجة نقدية تذكر، وتأثيرها بدون شك على سلوكيات الجنود الإسرائيليين والضباط أيضًا تجاه التعامل مع الفلسطيني. فقد أثارت شهادات الجنود التي قام بجمعها أعضاء حركة "محطمو الصمت"(*) شكوكًا في ممارسات خطيرة ترتكب بحق الفلسطينيين خلال العمليات العسكرية في المناطق المحتلة. وثمة نظرة سريعة على بعض من هذه الشهادات التي نشرها هؤلاء الجنود على صفحات الجرائد وفى موقعهم الإلكتروني، تبين لنا مدى تأثير هذه الفتاوى على هؤلاء الجنود في ارتكاب أبشع الجرائم ضد الفلسطينيين . . . "حيث تتعلق إحدى الشهادات بطبيب عسكري قام بإعطاء درس في التشريح للممرضين على جثة فلسطيني. . . فيقول الجندي الذي عمل كرجل إسعاف، إن جثة الفلسطيني كانت ممزقة من الرصاص، وبرزت منها بعض الأعضاء

---

(١) د. رشاد عبد-الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٧٢).

(٢) نفس المرجع، (ص١٧٣).

(*)שוברים שתיקה (محطمو الصمت): أسست هذه الحركة في يونيو ٢٠٠٤ على يد "شموئيل نفو" وهو رقيب أول بسرية استطلاع لواء الناحال، وهى حركة تكونت من الجنود الإسرائيليين الذين أنهوا الخدمة في الجيش الإسرائيلي وقرروا رواية ما شاهدوه من فظائع ترتكب بحق الفلسطينيين أثناء أدائهم الخدمة في المناطق الفلسطينية المحتلة، وهم ليسوا من رافضي الخدمة في الجيش الإسرائيلي وتسعى على حد وصفها إلى وضع مرآة أمام المجتمع ليعرف الثمن الذي يدفعه الجندي الإسرائيلي مقابل الخدمة في المناطق المحتلة ولاسيما على المستوى الأخلاقي.

الداخلية . . . وقد أخرج الطبيب مشرطًا وبدأ في تقطيع أجزاء من الجثة وشرح لنا على أجزاء مختلفة منها، الغشاء المحيط بالرئتين، وطبقات الجلد، والكبد وأشياء أخرى"[1].

وفي نهاية سبتمبر ٢٠٠٤ نشرت جماعة (محطمو الصمت) شهادات جديدة لمجموعة من الجنود الإسرائيليين، تركزت جميعها هذه المرة على الحالات التي ارتكب فيها الجنود الضباط مخالفات متعمدة لتعليمات الجيش الإسرائيلي بالنسبة لإطلاق النار تجاه الفلسطينيين . . . "فتحدث جندي مدرعات في رفح عن إطلاق ١٥٠٠ عيار من مدفع رشاش بشكل عشوائي تجاه الفلسطينيين، وجندي آخر يطلق ذخيرة حية تجاه راشقي الحجارة، وجنود بالمدرعات يطلقون نيران رشاشاتهم إلى مسافة بعيدة تجاه البيوت في جنين بدون تحديد هدف معين، وضابط برتبة عقيد يفتح النار تجاه مظاهرة بصورة عنيفة في الوقت الذي كانت التعليمات تقضي باستخدام وسائل التفريق فقط"[2].

ولم يكن هذا فقط، بل وصل الأمر إلى حد التمثيل بالجثث والتقاط الصور التذكارية مع أشلاء الجثث، "فقد حكى أحد جنود كتائب "الناحال" الدينية عن جثة فلسطيني كان مقطوع الرأس، وقد وضعت الرأس في عامود حديدى، وكأنها خيال المآتة ووضعوا سيجارة في فم الجثة . . . لقد كان هذا أكثر المشاهد إضحاكًا في السرية، والتقط الجميع صورًا مع هذه الرأس المقطوعة، وفي وقت لاحق تم عرض الصور للبيع بسعر رمزي. ويمضي الجندي في شهادته ويقول، لقد أصبحت صور الجنود مع جثث الناشطين الفلسطينيين في أوضاع مختلفة ظاهرة متفشية في الجيش الإسرائيلي، تحدث في كل سلاح، وفي كل سرية، وفي كل مكان يحدث فيه اتصال بين الجنود الإسرائيليين والناشطين الفلسطينيين"[3].

وهكذا، تبدو مظاهر العنف والروح العدوانية في سلوكيات الشخصية اليهودية الإسرائيلية، وكأنها "جينات" من مكونات التكوين السيكولوجي والديني والتاريخي والأيديولوجي لهذه الشخصية، أي أن إيعاز هذه الروح العدوانية لم يكن فقط إلى فتاوى الحاخامات اليهود فحسب، بل أنها سمة من سمات الطابع القومي للشخصية الإسرائيلية، وهي سمة تتفاوت من شخص إلى آخر، بدليل ظهور جماعة (محطمو الصمت)، ولكنها

---

(١) www.walla.co.il/٢٨-١-٢٠٠٥

(٢) www.walla.co.il/٢١-٩-٢٠٠٤

(٣) صحيفة يديعوت أحرونوت، ٧-١١-٢٠٠٤.

سمة عامة تغلغلت في وجدان النفسية اليهودية نتيجة لترسبات تاريخية وأحداث مر بها اليهود عبر التاريخ، ولتعاليم صهيونية كانت الحركة الصهيونية في حاجة إليها، وقبل كل هذا نصوص توراتية، أعطت للروح العدوانية صبغة دينية شرعية استلهمها الحاخامات اليهود المتطرفين في فتاواهم، حتى صارت نمطًا جديدًا يضاف إلى أنماط السلوك العدواني في الشخصية اليهودية الإسرائيلية ويدعمه، ولكنه في نفس الوقت خطير لأنه يرتكز إلى الشرعية ويرتكب باسم الرب، ويبرر أشكال العدوان المختلفة.

ثانيًا: الصراع الإسرائيلي الإسرائيلي:

سعت الصهيونية منذ البدايات الأولى لظهورها إلى هدف تجميع شتات اليهود في وطن قومي، ورفعت شعار بوتقة الانصهار التي ستذوب فيها جموع اليهود المختلفة في هذا الوطن الجديد، ولم تضع الصهيونية، آنذاك، في الحسبان الثقافات اليهودية المختلفة التي تأثر بها اليهودي في أثناء وجوده في البلد التي عاش فيها، وواجهت بعد قيام الدولة معضلة تمثلت في اختلاف الأجناس والعادات وتمسك كل يهودي بما اكتسبه في البلد الذي عاش فيه مرحلة طويلة من عمره؛ مما أدى إلى صعوبة التجانس والتكيف بين اليهود داخل إسرائيل؛ بل وصل الأمر إلى تناحر الجماعات اليهودية المختلفة حول الرؤى والاتجاهات؛ مما يؤكد على أن ثقافة العنف والصراع ضربت بجذورها في أعماق النفس اليهودية وامتدت أواصلها إلى المجتمع الإسرائيلي داخليًا، لتسقط "بوتقة الانصهار" التي تشدقت بها الصهيونية، سقوطًا مروعًا وتتحطم مع البدايات الأولى لقيام الدولة.

وعلى هذا الأساس، ينظر الأديب الإسرائيلي "أبراهام يهوشواع" إلى الحركة الصهيونية كحدث تاريخي يقف عند حد إقامة الدولة، ولم ينجح في تحقيق هدف تجميع الشتات اليهودي داخل إسرائيل، "إذ إن ثلاثة أرباع اليهود مازالوا يعيشون خارج حدود الدولة"[1]، كما أن الصهيونية لم تنجح في صهر اليهود المتجمعين داخل الدولة، حيث يقول: "إنني أظن أن الهدف الأساسي للصهيونية قد انتهى. فأنا لا أرى في الصهيونية أيديولوجية كاملة، أو نهجا حياتيا شاملا، أو فلسفة اجتماعية خاصة، بل هي أولاً وقبل كل شيء عملية تاريخية خاصة؛ كان هدفها تحقيق الطبيعية مهما كانت كحل للمشكلة

(١) مناحم برينكر: "احارى هاتسيونوت" (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، ١٩مارس -١٩٨٦ (ص٢١).

اليهودية عن طريق تمركز جزء من الشعب اليهودي بشكل إقليمي في دولة خاصة بهم "(١)؛ لكنها لم تنجح في ذلك، وهو الأمر الذي جعل المجتمع الإسرائيلي مكدسًا بآفات الاختلاف بين طوائف اليهود في العالم.

وفي حقيقة الأمر، لم تضع الصهيونية في اعتبارها؛ وهى تغرز ثقافة العنف والصراع في النفس اليهودية لمواجهة تحديات الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، أن هذه الثقافة سوف تمتد إلى الداخل في إسرائيل، وتهدد المجتمع الإسرائيلي، وتشتت اتجاهاته. لقد كانت هذه الثقافة سببًا رئيسًا في اعوجاج النفس اليهودية، وسببًا رئيسًا أيضًا في توق الشخصية اليهودية دومًا إلى الصراع، الذي إذا هدأ داخليًا، لجأ إليه مع الفلسطينيين، والعكس صحيح. إنها إشكالية معقدة تجعل من شعار الصهيونية الشهير (لنكن شعبًا مثل سائر الشعوب) أكذوبة وخديعة لجأت إليهما الصهيونية حتى تحقق هدفها في إقامة كيان يهودي خالص، وما أن تحقق هذا الهدف في إقامة دولة إسرائيل، حتى وقع المجتمع الإسرائيلي في مأزق خطير يهدده ويجعل منه مجتمع اللا مجتمع، ويمكننا أن نرصد الصراع الإسرائيلي داخل المجتمع الإسرائيلي من خلال هذين المحورين:

(١) الصراع بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين:

بدأت أبعاد هذا الصراع بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين مع نشأة حركة "الهسكالاه" (التنوير اليهودية) التي هدفت إلى تحطيم النفوذ الديني وسيطرته واستبداده على النفس اليهودية من الداخل، وإلى تحطيم أسوار "الجيتو" (مناطق الانعزال اليهودي) الشاهقة التي كانت تفصل بين اليهود ووجوه الحياة العلمانية في الدول التي كانوا يعيشون فيها؛ خاصة في شرق أوربا وغربها.

" ومن أجل تحقيق هذا الهدف وتحطيم الأسوار الداخلية للجيتو ولبناتها الدينية، كان تركيز حركة (الهسكالاه) ودعاتها من الفلاسفة والأدباء على ضرورة تغير نظام التعليم الديني والمزج بينه وبين التعليم العصري القائم على منجزات العقل في العلوم الطبيعية والإنسانية، وكان من الطبيعي أن تنمو حركة (الهسكالاه) وأن تصل، في النهاية، إلى حد المواجهة الكاملة مع السلطة الدينية الكهنوتية وسيطرتها على كل وجوه الحياة اليهودية.. "(٢).

---

(١) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت "(أحاديث حول مردود الصهيونية)، دار نشر عوفيد، تل أبيب، ١٩٨٦، (ص٩٦).

(٢) د. إبراهيم البحراوى: الدين والدنيا في إسرائيل، كتاب الهلال، مايو ١٩٩٨، العدد ٥٦٩، (ص١٠).

فبينما كانت الحياة اليهودية تسير بشكل عادى بين أسوار الجيتو، انطلقت حركة "الهسكالاه" أو حركة التنوير اليهودية على يد موشيه مندلسون لأول مرة عام ١٧٥٠ بهدف تحطيم عزلة اليهود ودفعهم نحو الاندماج والذوبان في المجتمعات التي كانوا يعيشون بينها. "ورويدًا رويدًا بدأت الآراء الجديدة عن حرية الإنسان تدخل إلى حارات اليهود الضيقة، وحينئذ بدا اليهود يشعرون بجو (بيت هامدراش) الضيق الخانق (مركز للعبادة والدراسة في آن واحد)، وبعالم الربانيم (الحاخامات التلموديين) القاسي المتزمت. ولم يعد يرى كثير من اليهود أي معنى لبعدهم الزائد عن الشعوب التي بشرت بحب الإنسانية وبالحرية، وتفجرت في كل ناحية هتافات (لنخرج من الجيتو) و(لنتقرب من الشعوب) و(لنتعلم لغاتهم) و(لنتثقف ونتعلم الحكمة والمعرفة). وبذلك بدأت حركة تثقيف عصرية بين اليهود، كانت بدايتها في ألمانيا، عبر عنها بما يسمى حركة التنوير اليهودية أو (الهسكالاه) وهو الاصطلاح الذي استخدمه يهودا جيليتس لأول مرة عام ١٨٣٢ للدلالة على عصر النهضة الثقافية اليهودية الذي استمر من عام ١٧٥٠ إلى ١٨٨٠"[١].

ومع انتقال اليهود من بلاد الشتات إلى فلسطين، انتقل معهم هذا الصراع واتخذ أبعادًا مختلفة. وقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين نموًا كبيرًا في أعداد اليهود المتدينين ونفوذهم، وبخاصة بعد حرب يونيو (١٩٦٧)، الأمر الذي جعل اليهود العلمانيين يشعرون بأن الخطر يتهددهم، واقترح بعضهم اقتسام إسرائيل بين الطرفين. "وترك ١٠٪ من اليهود العلمانيين القدس في عام (١٩٩٧) بسبب تدهور العلاقة مع اليهود المتطرفين"[٢]، حيث تشهد القدس تركزًا يهوديًا دينيًا، بينما تشهد تل أبيب تركزًا يهوديًا علمانيًا.

"وربما للمرة الأولى على مدى هذه الفترة، منذ قيام دولة إسرائيل وحتى الآن، يرتبط القلق بالانقسام الداخلي أكثر من الصراع الخارجي، ويظهر ذلك مثلاً، من استطلاعات أظهرت أن ٦٠٪ يرون الخطر الأكبر في التصدعات الداخلية، مقابل ٣٠٪ فقط يعدون الصراع الخارجي هو الأخطر"[٣].

وهكذا، أصبح الانقسام اليهودي الديني العلماني من أكثر القضايا التي تقلق المجتمع

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٤١).
(٢) عطية عيسوى: إسرائيل تتساءل من أنا، الأهرام، ٢/ ٥/ ١٩٩٨ (ص٥).
(٣) د. وحيد عبد المجيد: حدود الانقسام الداخلي في إسرائيل، مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية، الأهرام، ٨/ ٥/ ١٩٩٨، (ص١٨).

الإسـرائيلي، وبدأ يفرض تساؤلات عديدة تتردد بقوة داخل إسرائيل وخارجها منها، على سـبيل المثال: هل إسرائيل دولة يهودية أم يهودية ديمقراطية ؟ . . ومن الإسرائيلي ؟ هل هو يهودي خالص، أم إسرائيلي يهودي، أم يهودي إسرائيلي، أم إسرائيلي فقط ؟ خاصة وأن الـيهود المتديـنين المتـشددين في إسـرائيل وخارجهـا يرفـضون الاعـتراف بإسـرائيل كدولة علمانية.

وقـد أصـبحت أشـكال الـصراع الدائر بين اليهود المتدينين والعلمانيين في إسرائيل من المظاهـر التي تميز طبيعة الواقع اليهودي في إسرائيل والتي تعرض مظاهرها خارج إسرائيل؛ فعلـى سبيل المثال؛ يقول محمد حقي مراسل صحيفة الأهرام القاهرية في أمريكا في تقرير له حـول احـتفال إسـرائيل بمرور خمسين عامًا على قيام دولة إسرائيل: "بدأت الصحف وكل شـبكات التليفـزيون في أمـريكا تذيـع وتنشر عشرات المقالات والأفلام يوميًا حول احتفال إسـرائيل بمـرور خمسين عامًا على إعلان إنشائها كدولة، فإذا بها جميعًا وبلا استثناء تقريبًا، تـتحدث عـن هـذه الاحـتفالات بلهجة جديدة، يملؤها القلق على ما يجرى في إسرائيل من انقـسامات وصـراعات ديـنية وعقائدية، وإذا بنا نشاهد على شبكات التليفزيون الأمريكية مناظـر الاقتـتال بـين الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة من جانب، واليهود العلمانيين من جانب آخر ... ورحنا نشاهد كل ليلة كيف أن هؤلاء المتزمتين والمتطرفين من اليهود اقتطعوا جـزءًا مـن مدينة تل أبيب، وأقاموا سياجًا حولها، لمنع المواطنين من ركوب السيارات يوم الـسبت، علـى اعتـبار أنـه خـروج علـى الديانة اليهودية، وأقام بعضهم مكبرات الصوت يذيعـون فـيها خطـبهم المديحـية في البيوت التي حولوها إلى معابد، ويرد عليهم العلمانيون بإقامـة صـالات " للديـسكو " والـرقص والملاهي الليلية، ويعلقون على أبوابها مكبرات الـصوت لكـي تطغـى علـى الخطـب الديـنية، ويـبدأ الطرفان في تبادل اللكمات والضرب بالأيـدي والعصي وتتدخل الشرطة يائسة لمحاولة التفريق بين الجانبين .... ووصل الصراع إلى تهـشيم السيارات وحرق بعضها، وتبادل إلقاء القاذورات والمخلفات البشرية علنًا، إلى حـد جعـل "مـناحم فـريدمان" ـ أحـد علماء الاجتماع في إسـرائيل ـ يقـول (إننا أصبحنا نعيش على الجرف، ولم نعد نطيق بعضنا بعضا)"[1].

---

(١) محمـد حقي: الصراع الداخلي في إسرائيل على شاشات التليفزيون في أمريكا، صحيفة الأهرام، ١٢ / ٥ / ١٩٩٨، (ص٦)

وتعد حرمة يوم السبت(*) من أشد القضايا الخلافية بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل؛ حيث هي "المعركة الأكثر احتدامًا، في إطار هذا الانقسام، ولعل آخر مظاهرها هو حملة المتدينين ضد المجتمعات التجارية الكيبوتسنية التي صار معتادًا أن تعمل في ذلك اليوم، وحملة العلمانيين لإلغاء قانون محلى في تل أبيب يحظر فتح أماكن التسلية والمطاعم في اليوم المتنازع عليه"[1].

لقد وصل الأمر إلى تقسيم الأحياء إلى دينية وعلمانية، حيث تصدرت حي "بارديس حانا" لافتة تقول: (إنكم الآن تدخلون حيًا دينيًا، وعليكم أن تتحشموا في ملابسكم وأن تحترموا شعائر السبت)، فإذا ببعض سكان الحي يعلقون لافتات على بيوتهم تقول (إن حي "بارديس حانا" يفخر بأن يكون علمانيًا).

ويشدد "واتنبرج"، الكاتب في صحيفة "واشنطن تايم"، على الانقسامات، بل العداوة السافرة بين اليهود المتشددين المتدينين والغالبية العظمى من السكان اليهود العلمانيين ... ويروى الكاتب ما ذكرته كل وسائل الإعلام عما يحدث، من فرقة الرقص الشعبية التي هاج ضدها المتدينون المتشددون، لأن الراقصات فيها يخلعن ملابسهن الداخلية، فاضطروهن للرقص بسراويل طويلة، إلى آخر الروايات الأخرى مثل فرض الرقابة على فيلم تسجيلي لأنه أظهر الجانب الآخر لما حدث في سنة (١٩٤٨)، بالنسبة للجانب الفلسطيني[2].

وهكذا، اتخذ الانقسام الديني - العلماني بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين صورة مخيفة ومزعجة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي، وأظهر هذا الانقسام مدى الانفصال التام

(*) تعد حرمة يوم السبت من أشد القضايا الخلافية بين المتدينين اليهود والعلمانيين، فهناك بعض المحظورات الخاصة بيوم السبت بالنسبة لليهود المتدينين، والذي بموجبها يعتبرون ممارستها من قبل اليهود العلمانيين بمثابة تدنيس لحرمة ذلك اليوم. ففي هذا اليوم يحظر البيع أو السفر أو الخروج من البيت، ويحظر كذلك إيقاد المصابيح الكهربائية أو مشاهدة التلفاز أو سماع الراديو أو استخدام السيارات. وفي هذا اليوم يعارض اليهود المتدينون المتشددون (الحريديم) فتح دور السينما أو الكازينوهات أو المطاعم.

(انظر: يشعياهو ليفمان، العلاقات بين المتدينيين والعلمانيين في إسرائيل، ترجمة: د. محمد محمود أبو غدير، مراجعة وتقديم: د. إبراهيم البحراوى، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٠).

(١) د. وحيد عبد المجيد: مرجع سابق، (ص١٨).

(٢) محمد حقي: الصراع الداخلي في إسرائيل على شاشات التليفزيون في أمريكا، مرجع سابق، (ص٦).

والواقع الديني الذي يعيش فيه اليهود المتشددون عن الواقع العام للمجتمع الإسرائيلي العلماني، ومما يزيد من هذا الانفصال التام، أن اليهود المتدينين المتشددين لا يخدمون في الجيش الإسرائيلي ولا يدفعون الضرائب، لأنهم يتفرغون لدراسة التوراة طوال اليوم ويحصلون على مبالغ باهظة لمدارسهم غير المعونات الاجتماعية الأخرى.

وتمتد القضايا الخلافية بين المتدينين اليهود والعلمانيين في إسرائيل لتشمل الكثير من أوجه الحياة التي تشتد حولها الصراعات. فبالنسبة للملبس، لابد وأن ترتدى المرأة ملابس طويلة وتغطى رأسها، أما الرجال فيرتدون البالطو الأسود الطويل ويطلقون لحاهم وهو مالا يفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطعام، فالشريعة اليهودية تحظر على اليهودي تناول طعام غير كاشير أو تناول طعام طهي في أوعية سبق استخدامها في إعداد طعام غير كاشير وهو ما لا يفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطهارة، تمنع العلاقات الزوجية على امتداد ١٢ يومًا على الأقل خلال الدورة الشهرية للمرأة، وفى نهاية هذه الفترة فإن على المرأة أن تغطس في بركة مياه التطهر (مغطس التطهر)[١].

ومن مظاهر اتساع الهوة بين المتدينين اليهود والعلمانين، يدرس أبناء اليهود المتدينين في مدارس دينية منفصلة وينتمون إلى حركات شبابية دينية منفصلة. وهناك في إسرائيل مؤسسات مختلفة، مثل البنوك، تقوم بتشغيل عناصر دينية فقط. كما يطالب الحريديم بتخصيص شواطئ خاصة بالرجال وأخرى للنساء على غرار ما يحدث في المعابد التي يوجد بها حواجز تفصل بين النساء والرجال.

ومن هنا، يعد الصراع الديني العلماني داخل إسرائيل مظهرا من مظاهر تحطم بوتقة الانصهار داخل إسرائيل، عبر عنه بعض المفكرين الإسرائيليين؛ أحيانًا، بصورة ساخرة انتقدو فيها اليهود المتدينين، وحاولوا إبراز الصهيونية كسبب رئيس في احتدام هذا الصراع، في تأكيد على فشلها في تجميع الشتات اليهودي داخل المجتمع الإسرائيلي.

وقد أكد مناحم برينكر على أن الصهيونية قد تكون سببًا في تقويض هذا المجتمع لدورها في هذا الصراع، إذ يقول: "إن المشاكل الوجودية الصعبة لإسرائيل هي أيضا مشاكل صهيونية... فكيف ستعيش في إسرائيل الثقافة اليهودية العلمانية والثقافة اليهودية الدينية، كل منهما بجوار الأخرى، دون أن يقوضا المجتمع الإسرائيلي؟"[٢].

(١) (انظر: يشعياهو ليفمان، العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل، مرجع سابق).
(٢) مناحم برينكر: "احارى هاتسيونوت" (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، مرجع سابق، (ص٢٧)

وهكذا، يتبين لنا مصدر جديد من مصادر الصراع وثقافته؛ ومظهر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر داخل المجتمع الإسرائيلي، ويعد ذلك الصراع من أخطر ما يهدد المجتمع الإسرائيلي، نظرًا لخطورته الشديدة؛ حتى إننا نجد اليهود المتدينين ينقسمون على أنفسهم أيضًا، فهناك الجماعات اليهودية الدينية المتشددة (الحريديم)، والجماعات اليهودية الدينية المتطرفة، فالأولى تسعى إلى خلق "جيتو" يهودي داخل الدولة، يحافظ على خصائص يهودية الشتات من حيث الثقافة في اللغة والتشدد في تطبيق الشريعة اليهودية، وتقف موقفًا معاديًا من الصهيونية العلمانية. أما الثانية ـ الجماعات اليهودية الدينية المتطرفة ـ فهي من أصحاب المواقف الصهيونية السياسية القومية المتطرفة التي تسعى لاستيطان الأراضي المحتلة باعتبارها ضمن حدود الوعد الإلهي أو ضمن الميراث الديني و التاريخي لليهود.

ومن هنا، يمكن القول، إن الصهيونية بنفسها قد أسهمت في هذا الانقسام بين اليهود المتدينين، وقامت بالدور البارز في قيادة هذا الانقسام بتبنيها ثقافة الصراع والعنف، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى الصدام مع اليهود العلمانيين، ليجلس المجتمع الإسرائيلي فوق فوهة بركان من شأنه أن ينفجر في أية لحظة. وبالتالي؛ فقد أخفقت الصهيونية في وعودها بالتحام اليهود وتجميعهم داخل حدود آمنة لدولة يهودية ازدادت صراعاتها الداخلية وتزايدت مع مرور الوقت، وأصبحت مصدرًا للتهديد المستمر والمتعاظم على مر السنين.

(٣) الصراع بين اليهود الإشكناز (الغربيين) واليهود السفارد (الشرقيين):

يأتي الصراع الدائم بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلي كإخفاق جديد من إخفاقات الصهيونية، ومظهر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر التي تحدثت عنها الصهيونية، وهدفت من خلالها إلى إذابة جموع اليهود داخل كيان يهودي واحد، إلا أن اختلاف الثقافات والحضارات بين الجماعات اليهودية المتجمعة داخل الدولة يقف حائلاً أمام تحقق هذا الهدف، ليضيف إلى الصهيونية انتقادًا جديدًا عبر عنه الكثير من الأدباء والمفكرين الإسرائيليين في أعمالهم المختلفة.

ويمكن القول، إن الصهيونيين الأوائل أرباب الحضارة الغربية، الذين قامت الحركة الصهيونية على أيديهم، كان لهم دور بارز في تفاقم هذا الصراع، نظرًا لتفاخرهم الدائم بأن الدولة قامت على عاتقهم فقط، مما حدا باليهود الشرقيين إلي الشعور بالدونية تجاههم، وبأنهم جيل مكمل للكيان اليهودي داخل الدولة الجديدة.

لقد بدا هذا الصراع واضحًا في احتفالات إسرائيل بعيد قيامها من كل عام. فتتحرك مظاهر الاحتفال في اتجاهات مختلفة لتلقي الضوء على صور عديدة من صور هذا الاحتفال، حيث تحرص كل طائفة من الطوائف اليهودية المختلفة على إبراز بعد خاص تتمتع به ويرجع إلى البلد التي كانت تعيش فيه، فإذا بنا نجد احتفالات خاصة باليهود المغاربة، على سبيل المثال، واليهود الروس، وكافة الطوائف اليهودية المختلفة، لِيبرز أمامنا في النهاية مدى انقسام ذلك المجتمع على نفسه في صورة جماعات طائفية تحرص كل جماعة منها على هويتها الخاصة، ولا تسمح مطلقًا بطمس تلك الهوية، حتى وإن كان ذلك في صالح الدولة التي تعيش فيها، وإن كانت هي الملاذ الوحيد لهم.

. إن الصهيونية بما طرحته من أهداف منذ الإرهاصات الأولى لتكوينها، لم تضع في الاعتبار تلك المعضلة، وظنت باليهود الشرقيين سوءًا، وبأنهم سيكونون أفضل وضعًا وهم يؤدون دورهم الهامشي في الدولة، ورفعت شعار البوتقة، وإذا بتلك الجماعات اليهودية تتناحر فيما بينها للمحافظة على هويتها الخاصة، ولتتفاخر كل جماعة بإنجازاتها الفردية فحسب.

ويعبر "شلومو بن عامي" المغربي الأصل، والقيادي في حزب العمل، عن ذلك الوضع الهامشي الذين يعيشه اليهود السفارديم في لقاء معه بقوله: "جئت من مدينة طنجة وعمري اثنا عشر عامًا، إنني مجنون بهذه المدينة... كما يتحدث عن (جرح الخمسينيات) الذي لا يزال مفتوحًا، عندما وصل وعائلته سنة ١٩٥٥ إلى فلسطين ضمن موجة هجرة جماعية لليهود الشرقيين، فرشوهم بمادة الـ د. د. ت. ثم نقلوهم إلى (المعبراة)؛ أي معسكر انتقال؛ حيث (المشهد المأسوى) الذي (يمزق القلوب): مكان هو لا مكان- على حد تعبيره- واشتملت شهادته أيضًا على تجربته في معسكر حركة العمل: (نحن في الداخل ولسنا في الداخل)، مضيفًا أن ابن الطوائف الشرقية لا يزال يجد صعوبة في الحصول على الشرعية الكاملة لوجوده داخل هذا المعسكر. ويذهب بن عامي إلى القول، بأن هذه الطوائف توجه احتجاجها وسخطها نحو حركة العمل لا نحو الليكود، لأن هذه الحركة هي التي قادت عملية التحديث طوال ثلاثين عامًا من دون أن تصل باليهود الشرقيين إلى الطمأنينة والمساواة "[1].

---

(١) خالد عايد: اليهود الشرقيون في إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد (٣٦) خريف ١٩٩٨، (ص١٠٤).

وتـرجع " إيـلا شـوحط " هـذا الوضع الذي يعيشه اليهود السفارادیم في إسرائيل إلى الـصهيونية، حيـث تقـول: "تـزعم الـصهيونية أنهـا حركة تحرر لجميع اليهود، ولم يوفر الإيديولوجـيون الـصهيونيون أي جهـد في محاولـة جعـل تعبيري (اليهودي) و(الصهيوني) مترادفـين فعليًا. لكن الصهيونية، في الواقع، كانت أساسًا حركة تحـرر لليهود الأوربيـين (وهـذا الأمـر كمـا نعلم مشكوك فيه)، وبصورة أكثر دقة لتلك الأقلية الصغيرة من اليهود الأوربيين القاطنين بإسرائيل فعلاً، ومع أن الصهيونية تزعم أنها تقدم وطنًا إلى جميع اليهود، فإن ذلك الوطن لم يقدم إلى الجميع على المستوى نفسه، فقد جيء باليهود الشرقيين في البداية إلى فلـسطين لأسـباب صهيونية أوربية خاصة. ثم جرى التمييز بينهم بصورة منهجية، من قبل الـصهيونية التي بذلت طاقاتها ومواردها المادية بصورة مميزة، لمصلحة اليهود الأوربيين الدائمة، وللأذى الدائم لليهود الشرقيين"[1].

وتـضيف "إيـلا شـوحط" قائلـة: "بدأ التمييز العرقي ضد اليهود الشرقيين مع بداية اسـتقرارهم. فلدى وصولهم إلى إسرائيل وزعت مجموعات متعددة منهم عبر البلاد، على الـرغم مـن إرادة الـبقاء معًـا. العـائلات فـرقت، والمجمـوعات القديمـة فتـتت، والقـادة التقليديون جردوا من مناصبهم. واليهود الشرقيون أسكنوا في الغالب، في (معبروت)، أي معـسكرات انـتقال، وقرى نائية ومستوطنات زراعية، وفي ضواحي المدن، ومنها ما أفرغ حديثًا من الفلسطينيين"[2].

وعـن الوضـع الاجتماعـي الذي يعيشه هؤلاء اليهود السفارادیم في إسرائيل تقول إيلا شـوحط: "... وباعتـبار الـيهود الـشرقيين قـوة عاملـة ورخيـصة، ومتحركة، وقابلة للـتلاعب بهـا، فقـد كانوا ضروريين للتطور الاقتصادي لدولة إسرائيل، فأصبح الكثيرون منهم عمال بناء بأجور منخفضة. ثم أدت الأرباح العالمية، الناشئة عن الأجور المتدنية، إلى توسـع سـريع لـشركات البـناء الـتي يديرها اليهود الإشكنازيم أو يملكونها... وتكشف الوثائـق المنـشورة مؤخـرًا الحجـم الـذي كان فيه التمييز سياسة محسوبة ميزت، عن قصد، المهاجـرين الأوربـيين وأوجـدت، أحـيانًا، أوضـاعًا شـاذة يكـون فـيها الـيهود الشرقيون المتعلمون عمالاً غير مهرة بينما يحتل الإشكنازيم الأقل تعلمًا مواقع إدارية عالية"[3].

---

(١) ايـلا حبيـبة شـوحط: اليهود الشرقيون في إسرائيل، الصهيونيون من وجهة نظر ضحاياها اليهود، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٦)، (ص١٠٦).

(٢) نفس المرجع، (ص١٠٩).

(٣) انظر: ايلا حبيبة شوحط: نفس المرجع، (ص١١٠-١١١).

وتكشف لنا شوحط عن دخول النظام التعليمي في إسرائيل القائم على الفصل وعدم المساواة، دائرة التمييز ضد اليهود السفاراديم، " فللأشكنازيم، على العموم، ثلاثة أعوام من التعليم أكثر مما للسفاراديم. وحضورهم في المدارس العالية الأكاديمية يعادل ٤ر٢ ضعف، كما يبلغ خمسة أضعاف في الجامعات "[١].

ويؤكد أفيشاى مرجليت أيضًا على هذه الأوضاع التمييزية بقوله: " أربعة في المائة فقط من اليهود المولودين في إسرائيل من ذوى الأصول الشرقية يتجهون الآن إلى التعليم العالي، في مقابل ١٥ في المائة من اليهود المولودين في إسرائيل من ذوى الأصول الإشكنازية "[٢].

وقد عبر الأديب والمفكر الإسرائيلي أبراهام يهوشواع، باعتباره من اليهود الشرقيين، عن ذلك التفاوت الرهيب في المعاملة من قبل الدولة لليهود الشرقيين، وعن نظرة المجتمع الإشكنازى لليهود الشرقيين على أنهم جيل مساعد ومكمل لهم؛ الأمر الذي جعل والديه يزرعونه داخل المجتمع الإشكنازى.

" لقد ذكر يهوشواع في إحدى مقالاته أن أمه لم تكن تنتمي للسفاراديم القدامى في القدس، مثل أبيه، بل هاجرت من المغرب إلى إسرائيل في عام ١٩٣٢ (ولم تشعر تجاه الطائفة السفارادية بإحساس خاص). ولكنها رأت أن تزرع أبناءها بشكل عملي وعاطفي (في قلب البلاد التي تعج بالعالم الصهيوني الإشكنازى). وهكذا أرسل يهوشواع وأخته إلى مدرسة (رحافيا) الثانوية، ولم يرسلا إلى المدرسة " تحكمونى " (مدرسة الطائفة السفارادية بالقدس). وقد ذكر يهوشواع في العديد من اللقاءات التي أجريت معه، أنه لم يعر اهتمامًا لهياج أبويه تجاه حنينه للاستيطان السفارادى القديم من العقد السابق (١٩٨٧ وما بعده) "[٣].

ويفسر الناقد الإسرائيلي " أبراهام بلفان " الأسباب التي جعلت والدي يهوشواع يزرعانه داخل المجتمع الإشكنازى فيقول: " لاشك أن علاقة يهوشواع بأبيه نبعت أيضًا من ذلك الوضع المتدني الذي عاش فيه السفاراديم داخل المجتمع الإسرائيلي وثقافته . . . وتحول التوتر القائم بين الأب والابن إلى موضوع رئيس في إنتاجات يهوشواع. كما أن يهوشواع لم يتماثل مع أسرته، ولم يكن أبدًا منتميًا لذلك العالم الإشكنازى "[٤].

(١) نفس المرجع، (ص ١١٣).

(٢) أفيشاى مرجليت: إسرائيل الأخرى، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٣٦، خريف ١٩٩٨، (ص١٢٩).

(٣) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، تل أبيب، (ص٧).

(٤) نفس المرجع، (ص٨).

وقد كتب يهوشواع كثيرًا عن حالة الإهمال من قبل الحكومة الإسرائيلية تجاه اليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلي؛ وتحدث عن المناطق التي يعيش بها اليهود الشرقيون في إسرائيل، والإهمال الواضح من قبل الحكومة الإسرائيلية تجاه الأماكن التي يعيشون بها؛ وهي حقيقة يؤكد عليها شلومو بن عامي، الذي عاش هذه التجربة بنفسه في أثناء هجرته مع أبويه في الخمسينيات من المغرب إلى إسرائيل، حيث يقول: " . . وفى الطريق مررنا بكل تلك المستوطنات التي كانت قائمة في مرج ابن عامر، وفى كل مرة كنا نقول لأنفسنا، ها قد وصلنا مؤكد هنا، مؤكد هنا في هذا (الموشاف) الجميل، في هذا الكيبوتس حيث كانت المرشات تروى العشب الأخضر. وعندها وصلنا إلى مكان، هو لا مكان، هو لا شيء، معسكر من الخيام، كان يدعى (معبرات مانسى). لم يكن هناك صنابير للمياه. وقد أدرك الناس فورًا، أنهم ضللوا وأنهم كانوا ضحية عملية خداع، إذ إن أحدًا لم يقل لنا إننا سنقيم هنا بخيام، في شبه لا مكان كهذا. لقد كان إحساسًا فظيعًا بالانكسار. وبكت النساء، وشرعن في العويل كأنهن في مأتم وقام بعضهن بمهاجمة أزواجهن، ضربنهم وصرخن في وجوههم: إلى أين أتيتم بنا، إلى أين؟ كان المشهد يمزق القلوب. وببساطة أقول، إنه أمر كان مأساويًا "[1].

وهكذا، يعيش اليهود الشرقيين في هوة عميقة بعيدًا عن اليهود الإشكنازيم داخل المجتمع الإسرائيلي. ولم يتوقف الأمر عند حد التمييز الطائفي، بل امتد إلى كراهية الإشكنازيم للسفارديم؛ " إذ ينظرون إليهم باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلي، ويرون أن هذا الأمر يهدد أساس الوجود الإسرائيلي كدولة تعد امتدادًا طبيعيًا للحضارة الغربية "[2].

" إن الفجوة بين اليهود الشرقيين والغربيين ليست طبقية اجتماعية بالمعنى المألوف، وإنما هي جزء من طبيعة المجتمع الصهيوني الاستيطاني الإحلالية، باعتباره مبنيًا على اغتصاب الأرض، وطرد سكانها، واستيراد عنصر بشرى يهودي شرقي فقير، عليه أن يبقى كذلك حتى يظل قاعدة الهرم، ولذا يمكن القول، إن أزمة اليهود الشرقيين هي عن حق، بؤرة الأزمة الأيديولوجية الصهيونية "[3] ودليل قاطع على تحطم بوتقة صهرها،

(١) آرى شفيط: لقاء مع عضو الكنيست شلومو بن عامي، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٣٦، خريف ١٩٩٨، (ص١٤٣).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٩٧).

(٣) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص ١٩٤).

وإخفاق جديد ينضم إلى قائمة إخفاقات الصهيونية على أرض الواقع، ونبتة من نباتات ثقافة الصراع التي حصدها المجتمع الإسرائيلي بعد أن رواها الرواد الصهيونيين أملاً في مواجهة الآخر غير اليهودي الذين يوهمون بأنه يتربص بهم، ولكن الأمر انقلب عليهم وتربصوا ببعضهم البعض.

الفصل الثاني

المنظور الديني للصراع على الأرض
في فتاوى الحاخامات اليهود



المنظور الديني للصراع على الأرض في فتاوى الحاخامات اليهود

يلعب الحاخامات(*) اليهود؛ كممثلين للديانة اليهودية بطابعها الكهنوتي المغلق، دورًا مهمًا ورئيسيًا في تشكيل الوعي الديني والسياسي داخل المجتمع الإسرائيلي. فالحاخامات اليهود في كل مكان داخل المجتمع الإسرائيلي.. في المحكمة الشرعية، وفي دور العبادة، وفي الجيش، وفي الكنيست، يرفضون ويقررون ما يشاءون.

وثمة نظرة عابرة تجاه دور الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلي، تكشف لنا عن مدى الرعب الذي يتأجج في قلوب اليهود من فتاوى هؤلاء الحاخامات التي تعد أمرًا واجب التنفيذ دون أدنى مناقشة أو اعتراض، لاسيما وأن من أهم وصايا اليهودية (اتخذ لنفسك حاخامًا)؛ وهو الأمر الذي استغله الحاخامات ونجحوا في زيادة عدد اليهود المتدينين بضم عشرات اليهود المأزومين نفسيًا واجتماعيًا إلى معسكرهم الديني، علاوة على دعواهم بزيادة النسل، حتى وصل عدد بعض الأسر اليهودية المتدينة إلى عشرة أو ثلاثة عشر فردا.

ويمكن القول، إن الحاخامات اليهود المتطرفين أقاموا دولة داخل دولة - إن صح التعبير - وتغلغلوا في شتى نواحي الحياة وفرضوا كلمتهم، وعرضوا حياة المسئولين الإسرائيليين بما فيهم رئيس الوزراء للخطر. ومن هنا تبقى الفتاوى الخاصة بـ" أرض الميعاد" مسألة غاية في الخطورة، تشكل في النهاية إشكالية معقدة ومتشابكة من المنظور الديني للصراع، خاصة وقد اتخذ الحاخامات اليهود من فكرة "الوعد الإلهي" بالأرض ذريعة من أجل دفع الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التي وعدهم بها الرب حسب ادعائهم، واتخذت فتاواهم منحنى خطر تجاه التعامل مع الفلسطينيين أصحاب هذه الأرض

(*) "حاخام" كلمة عبرية معناها "الرجل الحكيم أو العاقل" وكان هذا المصطلح يطلق على جماعة المعلمين الفريسيين "حاخاميم" ومنها أخذت كلمة حاخام لتدل على المفرد. أما كامة "راباي" فهي في عبرية التوراة بمعنى "عظيم" وهى من الجذر السامي "رب" بمعنى "سيد" أو "قيم على آخرين" مثلما نقول في العربية "رب البيت". ولكنها على أية حال لا ترد في التوراة نفسها. وتطور معنى الكلمة في العبرية المشناة، وأصبحت بمعنى "سيد" مقابل "عبد" ولكنها في كتابات معلمي المشناة "تنائيم" أصبحت لقبًا للحكماء، وكلمة "راباي" تعنى "سيدي" وينطقها السفاراد "ربى". ولما كان اللقب لا يخلع إلا على من تم ترسيمه حاخامًا (ولم يكن هذا إلا في فلسطين).

بكل قسوة وعنف. ولم تكن رائحة القتل والهدم والتخريب التي تنبعث من فتاواهم مصدر رعب أو خوف بالنسبة للآخر (الفلسطيني) بقدر ما تمثله من كابوس ومظهر من المظاهر الصارخة التي تجتاح المجتمع الإسرائيلي وتشكل في النهاية تصعيداً يكمن وراءه خلفية عقائدية عنصرية.

لقد شكلت فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين وجدان النفسية الإسرائيلية المتدينة، وتعاظمت، إلى أن تخطت حدود المعقول، حينما تحدثت عن إهدار الدماء، حتى لليهودي، في سبيل المحافظة على (الأرض المقدسة) معتمدين في ذلك على بعض النصوص المقدسة التي يأمر فيها الرب بقتل النساء والأطفال وتخريب المرتفعات، مثلما جاء في بعض النصوص التوراتية.

وقد دار سجال واسع بين الحاخامات اليهود في إسرائيل حول مفهوم "تقديس الأرض"، حيث طالب الحاخام "عوبديا يوسيف" الزعيم الروحي لحركة "شاس" بالانسحاب من الأراضي المحتلة لإنقاذ حياة اليهود عملاً بمفهومפיקוח נפש (بيكوح نيفش)، أي احترام حياة اليهود والمحافظة عليها، وقد أيده بعض الحاخامات في رأيه واقتبسوا من النصوص التوراتية ما يؤيد وجهة نظرهم: "أشهد عليكم اليوم السماء والأرض. قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك" (التثنية ٣٠: ١٩). وقد عارضه بعض الحاخامات المتطرفين، وجاءوا بنصوص من العهد القديم لتخدم رؤيتهم: "كلم بنى إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم" (العدد٥١ : ٣٣-٥٢).

ونلاحظ هنا، أننا أمام موقفين، يتسم أحدهما بالتطرف والآخر بالاعتدال، وكلاهما وجدا في العهد القديم ما يخدم موقفهما. ورغم ذلك، فإن الأرض بالنسبة للحاخامات المتطرفين، هي المطلق، والحفاظ عليها يجب كل القيم الأخرى، ومنها حياة اليهود أنفسهم، وقد اقتنع الحاخام "عوبديا يوسيف" فيما بعد بهذا الموقف المتطرف وعدل عن موقفه وانضم إلى مبدأ "تقديس الأرض" والمحافظة عليها.

ومن هنا، تبقى فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين، من المنظور الديني للصراع، خطراً كبيراً على مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي من ناحية، والصراع الفلسطيني الإسرائيلي، من ناحية أخرى.

وثمة سؤال قد يطرح بشأن الحدود الفاصلة بين الحاخام المتطرف والحاخام المعتدل على المستويين الديني والسياسي . . وهو سؤال يمكن الإجابة عليه ، إذا أدركنا أن التطرف نهج ديني يتسم بعلاقة وطيدة بين عقيدة المرء الأساسية وبين سلوكه السياسي الذي يسعى من خلاله تحقيق رؤيته الدينية التي يؤمن بها ولا يستطيع أن يساوم عليها . وهنا تبدو المعضلة الرئيسية بين السياسة وطبيعتها المتلونة والمتغيرة بتغير الظروف والأحداث ، وبين الواقع الديني الذي يؤمن به المتطرف حين يمارس السياسة أو حتى حين يعلق عليها ويبدى رأيه فيها .

ومن هنا تكمن أيضًا خطورة التداخل بين الدين والسياسة في دولة مثل إسرائيل ، لأن الأحزاب الدينية أو حتى الجماعات المتطرفة تبنى ممارستها السياسية على مقتضيات لا تقبل المساومة أو التسوية ، وهو أمر يتعارض تمامًا مع طبيعة الممارسة السياسية ومع طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي .

أما الاعتدال ، فهو عكس كل ما سبق ، فهو يأخذ من العقيدة الدينية ما يحافظ على حياة الإنسان ولا يدفع به نحو الهلاك ، ويحاول أصحابه أن يحققوا التوازن بين الدين والسياسة ؛ وهو ما يفعله حزب "ميماد" الديني في إسرائيل ، والذي يعد رمانة الميزان بين القوى المختلفة في الحكومة الإسرائيلية .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن هذا البحث سوف يركز على تناول الفتاوى الصادرة عن الحاخامات اليهود المتطرفين ، الذين ينتمون إلى المؤسسة الحاخامية الرسمية في إسرائيل ، أو ممن ينتمون من حيث فتاواهم إلى رؤى اليمين الإسرائيلي المتطرف . . . وقد آثرنا أن تأتي بهذه الفتاوى المتطرفة والخاصة بالصراع على الأرض ، بصرف النظر عن الانتماءات الحزبية أو السياسية لهؤلاء الحاخامات . فقد وجدنا أن فتاواهم لا تعبر دائمًا عن المبادئ العامة للحركة التي ينتمون إليها خاصة إذا كانت هذه المبادئ لا تتسم بالشدة في مسائل المفاوضات والصراع على الأرض ، شأنهم في ذلك شأن الأحزاب الدينية التي تتلون سياساتها بطبيعة المرحلة السياسية التي تمر بها ، أو بطبيعة المتطلبات التي تسعى الأحزاب الدينية لتأمينها حيث لا تدخر الحركات الدينية في إسرائيل جهدًا في تأمين الميزانية اللازمة لتمويل مؤسساتها التعليمية والاجتماعية المنتشرة في كافة المناطق ، لذا فهي لا تتردد سياسيًا في الانضمام إلى أية حكومة توفر لها الميزانيات اللازمة للحفاظ على مؤسساتها المختلفة ، وعلى الرغم من مشاركتها في المؤسسات السياسية الرسمية ، إلا أنها تنطلق في مواقفها السياسية من أيديولوجيتها الدينية .

وعلى سبيل المثال، فقد صوت حزب "شاس" الديني ضد اقتراح قدم في الكنيست في الثامن والعشرين من مارس ٢٠٠٥ يقترح عمل استفتاء عام حول خطة "فك الارتباط" قبل الانسحاب من غزة، وذلك على الرغم من أن المبادئ الأساسية لحركة "شاس" تقر بضرورة عمل (استفتاء عام) قبل الانسحاب من أي جزء بالأراضي المحتلة.

كما أن هذا البحث، سوف يركز أيضًا على الفتاوى الخاصة بالحاخامات المتطرفين في إسرائيل ممن لا يرون حلاً للصراع على (الأرض المقدسة)، لاسيما وأن الأصوات المعتدلة في إسرائيل ليس لها من القوة التي تحدثها أصوات الحاخامات المتطرفة التي تقر بمبدأ تقديس الأرض، وترفض الحوار أو التفاوض، لاسيما وأن ميزان القوى دومًا في صالح الحاخامات المتطرفين الذين تؤثر فتاواهم وأقوالهم بكل قوة في وجدان الشخصية اليهودية الإسرائيلية المتدينة غالبًا والعلمانية أحيانًا، خاصة وأنها تحمل تحذيرًا وتهديدًا في آن واحد.

وهذا البحث، يحدد لنا تاريخيًا، علاقة الحاخامات اليهود بالصهيونية والدولة ومدى نفوذ الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلي، واستخدام فكرة "الوعد الإلهي" بالأرض؛ كمبرر لقتل (الآخر) الفلسطيني، في فتاوى الحاخامات اليهود، وموقف الحاخامات اليهود من الاتفاقيات المبرمة مع الفلسطينيين، وخاصة خطة "فك الارتباط".. في محاولة لاستقراء مدى ما يمكن أن تصل إليه حلول الصراع في ظل مثل هذه الفتاوى الحاخامية التي تحرم ما تشاء وتهدر دماء من تشاء، وتعطي الفرصة للمماطلة في حل الصراع على الأرض.

وبناء على ما سبق تم تقسيم محاور هذا البحث على النحو التالي:

أولاً: علاقة الصهيونية والدولة بالحاخامات اليهود:

نظر المؤرخون اليهود؛ منذ البداية للحركة الصهيونية، على أنها حركة قومية علمانية، على غرار الحركات القومية الأوروبية، التي نشأت في القرن التاسع عشر. ولكنهم كانوا يدركون تمامًا أن الأيديولوجية الصهيونية تفتقر إلى العديد من المقومات الأساسية للحركات القومية، مثل اللغة والأرض. ومن هنا صارت الأيديولوجية الصهيونية، إشكالية معقدة بالنسبة لبعض المؤرخين في كيفية تصنيفها بين سائر الأيدلوجيات، وتساءل الكثيرون، هل يمكن النظر إليها كأيديولوجية علمانية تختص بشئون اليهود فحسب وتحاول إخراجهم من مستنقع الدين واليهودية؟ وهل يمكن ربط الصهيونية بالتاريخ العام لليهود وبتراثهم الديني

أيضًا ؟ وهل هناك ثمة تعارض ما بين هذه الأيدلوجية كحركة علمانية وبين الدين اليهودي متمثلاً في الحاخامات اليهود؟.

إنها تساؤلات أثارت، في بداية الأمر، نوعًا من الارتباك بين المؤرخين، وذلك قبل أن تستقل الصهيونية قطار اليهودية وتتبنى كثيرًا من الاتجاهات السياسية والدينية والثقافية على كافة الأصعدة، وباختلاف روادها تجاه مناحي التقدم نحو تحقيق الهدف في إقامة وطن لشتات اليهود.

ويبقى السؤل: "هل يمكن النظر للحركة الصهيونية، على أنها حركة قومية تعبر عن الواقع السياسي لليهود ومتأثرة بالحركات القومية الأوروبية، التي نشأت بينها أم أنها حركة دينية نابعة من الفكر اليهودي، ومستمدة لأفكارها ونظرياتها من التراث اليهودي ؟"[(١)].

ولما كانت الجماعات اليهودية تشكل مجموعة من الأقليات الإثنية المتناثرة عبر التاريخ، فإن تصادمًا كان لابد من حدوثه، بين تلك الأيديولوجية كحركة علمانية وبين بعض الحاخامات اليهود آنذاك، ممن نظروا إلى هذه الأيديولوجية على أنها نوع من الزندقة والكفر، ورأوا أنها تعجل بنهاية اليهود، وأنها مخالفة لشريعة الرب.

أما البعض الآخر؛ فقد اعتبرها وسيلة أو آلة تمهد الأرض لقدوم المسيح المخلص، "فبعض اليهود يرفضون الصهيونية من منظور ديني، وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى قسمين: الأرثوذكس، الذين يعدون الحركة الصهيونية حركة علمانية، تجعل من اليهود أمة بالمعنى العرقي العلماني للكلمة، بما يتنافى مع تعاليم الدين اليهودي، التي تجعل اليهود شعبًا، بالمعنى الديني، ترتبط هويته بمدى تنفيذه للأوامر والنواهي.. ويرى الأرثوذكس أن الصهيونية حركة مسيحانية زائفة تتحدى الإرادة الإلهية، فيما يسقط الاصلاحيون الجانبين الإثنى والقومي ويجدون في الصهيونية دعوة إلى القبلية وضيق الأفق وحرفية التفسير"[(٢)].

غير أنه لا يمكن إنكار حقيقة معارضة الحاخامات اليهود لهذه الحركة لسببين: الأول، أنها تعجل بنهاية اليهود، كما روج البعض، مخالفة بذلك فكرة الخلاص المسيحاني، بدعوى أن الإله هو المسئول الأول عن خلاص شعبه وهلاك أعداء اليهود، والثاني، لأنها

---

(١) د. محمد خليفة حسن: الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدين اليهودي، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد (٤)، (ص ١٧).

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: يهود العالم، دليل إسرائيل العام، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٦(ص١٥٠).

قد تخرق اتفاقية الاختيار بين الشعب اليهودي والإله الذي اصطفاهم واختارهم لتبليغ رسالته إلى البشرية فهم شعبه، وهو إلههم فقط.. وهى علاقة تتسم في جوهرها بالصفات الأخلاقية، حسب الشريعة اليهودية، أي أنهم لابد وأن يتحروا الصفات الأخلاقية واعتبارها أساسًا في علاقتهم بالرب.

ولاعتبارات مثل هذه، كانت الحركة الصهيونية في نظر هؤلاء الحاخامات حركة علمانية تتدخل في أمور إلهية بحتة، وهى تخليص اليهود من الشتات، ومن ثم فمجاراتها هي مخالفة لشريعة الرب وخرق لاتفاق أخلاقي بين الرب واليهود.

وقد أدرك الزعيم الصهيوني، تيودور هرتسل، خصوصية هذه العلاقة، وإمكانية أن يشكل هؤلاء الحاخامات حجر عثرة، أمام تحقيق مبادئ الصهيونية العلمانية، وبدأ بمغازلة هؤلاء الحاخامات، "واستطاع بفضل مقولته الشهيرة ـ (الصهيونية هي العودة إلى اليهودية قبل العودة إلى دولة اليهود) ـ أن يحقق لنفسه مكانة داخل المعسكر المتدين الذي رحب برؤية الزعيم المندمج في غير اليهود، وهو يعود إلى شعبه ويمد ذراعه إلى الشريعة... ومع هذا، فلم يخاطب هرتسل اليهودية وفق المفهوم الروحاني أو الديني، بل كان يسعى إلى ما يمكن أن نسميه (اتفاق قومي)، أي الاستعداد للاعتراف بإطار قومي عام رغم الاختلافات في المعتقدات وفي الآراء"[1].

ويعلق شموئيل الموج، على مجهودات هرتسل في تقريب الحاخامات الصهيونيين إلى الصهيونية دون تسليمهم قيادة الحركة وعلاقته بهم، بقوله: "برزت هذه العلاقة بما حدث في المؤتمر الصهيوني الأول، حيث أقبل عدد من الحاخامات على هرتسل لسبر غوره، ولكنهم خرجوا من المقابلة مسرورين ومرتاحي البال. وعندما سئلوا عن سبب هذا السرور من جانبهم، قالوا بأن هرتسل أبلغهم أنه لا يعتزم مراعاة التقاليد اليهودية. لماذا إذن ـ هذا السرور؟ قالوا: إذا لم تكن لدى هرتسل الرغبة في مراعاة التقاليد اليهودية، فإن هذا يعنى أنه لا يريد أن ينظر إليه أحد على أنه (المسيح المخلص)، بل يريد أن ينظروا إليه على أساس أنه مجرد زعيم لحركة سياسية. وهدأت نفوس الحاخامات"[2].

وفي حقيقة الأمر لم يكن موقف هرتسل تجاه الحاخامات اليهود موقف خوف أو

---

(1) د. انيتا شابيرا: الصهيونية الدينية -مدخل تاريخي، ترجمة د. محمد محمود أبو غدير، مركز الدراسات الشرقية، ج القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد (3)، مارس 1998، (ص71).
(2) نفس المرجع، (ص72).

ضعف بقدر ما كان حنكة سياسية، "حيث تلقفت الصهيونية السياسية الأفكار الدينية اليهودية ووجدت في مكوناتها أداة مهمة وفاعله لشحن وتعبئة قطاعات مؤثرة من اليهود المتدينين، خدمة لأهدافها السياسية، وتحقيقًا لمطامعها الاستراتيجية، فليس هناك ما هو أكثر تأثيراً في النفس المكلومة، ولا أشد وقعًا في الأرواح المعذبة والمهانة على مدى قرون وقرون من التلويح بالمهمة الملقاة على عاتقهم، وبفكرة(الخلاص) و(العودة) إلى أرض(اللبن والعسل) والبلاد الموعودة التي وهبها الرب لهم"[1].

وعلى الرغم من المواقف السلبية المعروفة، التي اتخذها القادة الصهاينة الكبار ابتداء من هرتسل وحتى بن جوريون، من الدين اليهودي والحاخامات اليهود، فهم لا يؤمنون به ولا بمضامينه العقائدية، إلا أنهم نجحوا في استغلاله أفضل استغلال وأدركوا أهمية وحيوية العنصر الديني الكامن في النفس اليهودية عبر سنوات طويلة من الشتات، واستطاعوا مخاطبة مشاعر اليهود ومداعبة أحاسيس الحاخامات.

فمن وجهة نظر بن جوريون، العقيدة اليهودية هي" التعبير القومي" الذي يمكن من خلاله أن تتطلع الجماعات اليهودية إلى تحقيق غاياتها القومية. .

"إذن كان بن جوريون يرى أن الدين اليهودي وظيفة، عليه القيام بتأديتها وكفى، وهو ما عبر عنه بوضوح عندما قال: (إن الدين هو وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت، لا كل الوقت). ولم يكن يرتاح للحاخامات، فكان يقول: (إن حياة اليهود لو تركت لحاخامات اليهود لظلوا حتى الآن كلابًا ضالة في كل مكان يضربهم الناس بالأقدام، ويحتمي اليهود من أقدام الأغلبية الساحقة لهم في كل مكان بأحلام العودة إلى أرض الميعاد والأجداد، وانتظار المسيح، الذي سيهبط عليهم من السماء لينقذهم ويقوم لهم بالعمل، بينما هم يصلون الفجر والعشاء، ويبكون ليلاً ونهاراً"[2].

وهكذا، فبعد أن رفض الحاخامات، في البداية، استخدام الدين اليهودي ضمن المبادئ الأساسية للحركة الصهيونية حل القبول محل الرفض، والتقت مصالح الجانبين بعدما اضطلع الحاخامات بدور فاعل داخل الحركة الصهيونية فيما عرف بالصهيونية الدينية،

---

(١) أحمد بهاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات، الدين والدولة في إسرائيل، نوارة للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦، (ص٢٨).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد(١٨٦)، ١٩٩٤(ص٥٤).

وباتت النصوص المقرائية التي تتحدث عن الوعد الإلهي بالأرض ـ أرض فلسطين ـ والتي استخدمت في طليعة الشعارات الصهيونية، من أبرز الأمور التي ابتهج لها بعض الحاخامات اليهود واقتنعوا بها ورددوها بين مريديهم، وأكدوا على أن الفلسفة الصهيونية لا يمكن أن تقوم بمنأى عن الدين الموسوي الذي أصبح عماد الحركة الصهيونية العلمانية.

وقبيل قيام دولة إسرائيل دار خلاف شديد بين القيادات الصهيونية حول ماهية الدور الذي يمكن أن تلعبه القوى الدينية المختلفة بعد قيام الدولة، وبرز اتجاهان رئيسيان:

اتجاه يخشى من عواقب مشاركة الحاخامات في السلطة، ويرى في ذلك ارتدادًا نحو الرجعية والتخلف والماضي السحيق الذي لابد والخلاص منه.

اتجاه يؤمن بدور ما للحركات الدينية وحاخاماتها، دور لا يقود المجتمع، ولكن يسهم في حشده خلف الأهداف الصهيونية وبرامجها. وكان بن جوريون من أنصار هذا الاتجاه.

وفى عام ١٩٤٧ أرسل بن جوريون خطابًا إلى حركة "أجودت يسرائيل" أوضح فيه، تعهد قيادة الحركة الصهيونية بمجموعة من الالتزامات تجاه مطالب الأحزاب الدينية وهو ما عرف باتفاقية "الوضع الراهن" **status que**[1] من أهمها:

١) تحديد يوم السبت باعتباره يوم راحة في قوانين الدولة.

٢) اعتراف الدولة بالقضاء الديني في الأحوال الشخصية وطبقًا للهالاخاه.

٣) الاعتراف بمنظومة التعليم الديني المستقل ذاتيًا.

٤) تشرع الدولة قوانين تستمد من الشريعة الدينية.

٥) إعطاء دور فاعل للحاخامات بتحديد صلاحيات تشكيل المؤسسة الحاخامية التي تدعمها الدولة ماديًا.

"وقد كانت هذه هي مبادئ الوضع الراهن التي رافقت كل الاتفاقيات الائتلافية الصهيونية (منذ عام ١٩٥٥) والتي وقعت بين حزب المباى والأحزاب الدينية، وبعد ذلك بين حزب الليكود والأحزاب الدينية في الاتفاق الائتلافي عام ١٩٧٧، عام الانقلاب السياسي الكبير، حيث خصصت معظم بنود الاتفاقية لتوضيح الوضع الراهن"[2].

ومع البدايات الأولى لقيام دولة إسرائيل، كانت القوى والأحزاب الدينية المختلفة في

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق (ص٧٤).

(٢) نفس المرجع.

منأى عن لعبة السياسة، فقد كان جل اهتماماتها في المحافظة على الشريعة اليهودية، وكانت مطالبها ترتكز إلى النواحي ذات الطبيعة الدينية فحسب، مثل مطلبها بزيادة ودعم عدد من المدارس الدينية، أو التدقيق في الالتزام بقدسية يوم السبت، أو المطالبة بتخصيص شواطئ خاصة لليهود المتدينين، وما إلى ذلك من الأمور الدينية البحتة، حتى حدث الانقلاب الخطير في توجهات هذه القوى الدينية بعد حرب يونيو ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لمساحات كبيرة من الأراضي العربية، "وقفزت هذه القوى من مجرد (شريك متواضع) في الحكومة إلى (عامل مهم) في تشكيلها، ثم إلى (عامل حاسم) في تقرير إلى من تذهب السلطة و إلى أين تتجه ؟ وتطورت مطالبها إلى قضايا ذات طابع إستراتيجي تمس صلب التوجهات الأساسية للدولة . . . مثل الأرض المحتلة وحدود التفاوض بشأنها، واتفاقيات السلام مع العرب أو السلطة الفلسطينية، وغيرها من القضايا ذات الطبيعة السياسية الإستراتيجية الحساسة"[1]. ولنا أن نتصور مدى النشوة الدينية التي عاشها الحاخامات اليهود بعد حرب ١٩٦٧، فقد أرجعوا هذا الانتصار إلى (معجزة إلهية) ونظروا إلى هذه الأرض على أنها (أرض محررة) من يفرط فيها يعد خائنًا وجب قتله.

وهكذا، دخلت الأحزاب الدينية حلبة السياسة، وأصبحت بمثابة رمانة الميزان التي تحافظ على توازن الحكومة أو سقوطها. وعلى سبيل المثال، احتلت بعض الأحزاب الدينية في إسرائيل عددًا كبيرًا من المقاعد داخل الكنيست السادسة عشر، حيث هناك ثلاثة مقاعد في الكنيست لحزب "أجودات يسرائيل"، ومقعدان لـ "ديجل هاتوراه"، وستة مقاعد للمفدال (الحزب الديني القومي)، وأحد عشر مقعدًا لحزب "شاس" ويتحد حزب "ميماد" مع "حزب العمل" بتسعة عشر مقعدًا.

وتلعب الأحزاب الدينية في إسرائيل دورًا فاعلاً داخل الكنيست الإسرائيلي وتمسك بخيوط اللعبة السياسية مع الأحزاب الأخرى التي تحاول أن تستقطب الأحزاب الدينية إليها بما يضمن استمراريتها ونجاح سياستها داخل الكنيست، وتستغل الأحزاب الدينية هذا "التدليل السياسي"، إن صح التعبير، وتعمل على تحقيق مصالحها وتأمين ميزانيتها اللازمة لتمويل مشاريعها الدينية وكافة نشاطاتها الأخرى.

(١) أحمد بهاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات، مرجع سابق، (ص ٢٠).

ثانيا: مفهوم الوعد الإلهي بين العهد القديم وفتاوى الحاخامات اليهود:

(١) مفهوم الوعد الإلهي في العهد القديم:

يرجع ادعاء الحاخامات المتطرفين بالحق الديني لليهود في أرض فلسطين إلى فكرة الوعد الإلهي لليهود بتخصيص هذه الأرض لهم وفقًا لما جاء في العهد القديم من وعود.

" ويتلخص مضمون هذه الفكرة في أن الآباء الإسرائيليين، ابتداء من آدم إلى نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، قد تلقوا وعودًا إلهية، وأن التاريخ الإسرائيلي اللاحق يعتبر المسرح الذي تحققت عليه هذه الوعود. . . وقد تمت عملية ربط التاريخ اليهودي الحديث بالماضي من خلال التأكيد على تكرار هذه الوعود بتكرار العهد المعطى لموسى مع عدد من الآباء السابقين، ومن أهمهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بل العودة بفكرة العهد إلى نوح وآدم حتى يصبح التاريخ اليهودي وحدة واحدة لا تتجزأ "[١].

وتتضح فكرة الوعد الإلهي مع إبراهيم في سفر التكوين، حيث يقول الرب لإبراهيم في الإصحاح الثاني عشر: " وقال الرب لابرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك " (التكوين، إص ١٢ : ١). ويتم التأكيد على هذا الوعد في الإصحاح الخامس عشر من نفس السفر: " وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين، ليعطيك هذه الأرض لترثها " (التكوين، إص ١٥ : ٧)، " لذلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " (التكوين، إص ١٥ : ١٨)، وهذه الفقرة محور خلاف كبير بين بعض الحاخامات اليهود في مسألة حدود الأرض كما جاءت في العهد القديم، وهو ما سنراه فيما بعد.

ويتكرر هذا الوعد مع إبراهيم في الإصحاح السابع عشر أيضًا من هذا السفر، حيث كان إبراهيم يبلغ من العمر تسعًا وتسعين عاما، فظهر له الرب، وأمره بالسير أمامه ليقيم معه عهدًا، وقد أسماه الرب إبراهيم بعد أن كان يدعى أبرام، ثم وعده بأرض كنعان ملكًا أبديًا له: " وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًا. لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك. وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا " (التكوين إص ١٧ : ٧-٨).

---

(١) د. محمد خليفة حسن: دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥، (ص٥٥-٥٦).

وفي الإصحاح السادس والعشرين من نفس السفر، يؤكد مدون هذه النصوص على ذلك الوعد الإلهي، حيث يتجدد العهد مع إسحاق: " فظهر له الرب في تلك الليلة وقال أنا إله إبراهيم أبيك. لا تخف، لأني معك وأباركك وأكثر نسلك، من أجل إبراهيم عبدي " (التكوين إص ٢٦ : ٢٤).

ويأتي مدون العهد القديم بتلك الفقرة للتأكيد على الوعد الذي قطعه الرب مع عبده إبراهيم حسبما جاء في الرواية التوراتية، وذلك بعد أن زرع إسحاق في أرض كنعان فأصاب وصار له كثير من الغنم والمواشي وحسده الفلسطينيون على ذلك.

وفي الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين يظهر الرب أيضًا ليعقوب؛ وهو في طريقه من فدان أرام ويباركه، وبعد أن أسماه الرب إسرائيل بدلاً من يعقوب يجدد العهد معه ويمنحه أرض أجداده، كما ذهب مدون تلك النصوص: " والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحاق لك أعطيتها. ولنسلك من بعدك أعطي الأرض " (التكوين ٣٥ : ١٢).

وفي محاولة للتأكيد على هذا الوعد الإلهي، يتكرر العهد مع موسى في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد: " وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلاً كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان " (العدد، إص ٣٣ : ٥٠ – ٥١).

وهكذا، يتم التأكيد على هذا الوعد من خلال تكراره مع كل الآباء الإسرائيليين، والمثير للدهشة هنا هو تكرار هذه الوعود بنفس الصيغة والأسلوب، وكأنها محاولة من مدون العهد القديم للتأكيد على هذا الوعد بتلك الأرض، " وربما نلاحظ، أيضًا ذلك التقارب الشديد في الألفاظ المستخدمة في هذه العهود المتكررة على الرغم من المسافة الزمنية الفاصلة بين كل أب من هؤلاء الآباء. وهذا يدل على أن هذه الصيغ المتكررة للعهد إنما وضعت جميعها بيد كاتب واحد. ويظن بعض الدارسين، أنه موسى، بينما يظن آخرون، أنها من نتاج عصر النبوة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد "[1].

كما أن تكرار هذه الوعود مع آباء بني إسرائيل قد يشير أيضًا إلى عدم أحقيتهم بهذه الأرض، وهو ما جعل مدون العهد القديم يلجأ إلى حيلة الوعد الإلهي، وأكد عليه مرارًا وتكرارًا في محاولة لإعطائه شرعية دينية، ظنًا منه بأن التكرار يفيد التأكيد على تلك الشرعية، ولكنه بهذه الصيغة أفاد الشك والريبة.

---

(١) د. محمد خليفة حسن: دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة، مرجع سابق، (ص٥٦)

وقد ارتبط تنفيذ هذا العهد أيضًا، بعمليات قتل وتخريب وتشريد، كما جاء في العهد القديم وهو الأمر الذي يستلهمه الحاخامات اليهود المتطرفين في وقتنا الحالي في فتاوى التعامل مع (الأرض المقدسة). ومما يثير الدهشة والشك، هو أن هذه العمليات تتم بأمر من الرب ذاته، فحين كلم الرب موسى ـ كما ذهب مدون العهد القديم ـ أمره بطرد سكان كنعان وقتلهم، "فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم، تملكون الأرض وتسكنون فيها، لأني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها" (العدد إص ٣٣ : ٥٢).

ولم يقف الأمر عند الطرد والتخريب فقط، بل امتد إلى قتل النساء والأطفال. مثلما جاء في سفر العدد، "فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها" (العدد إص ٣١ : ١٧).

وهكذا، يبدو مدونو العهد القديم وكأنهم يدفعون بيهوه لأن يكون وراء هذا العنف والقسوة والتشدد، وقد حملوه بكل التبعات، فغدا الحقد حقده، والعدوان عدوانه، الذي يخطط له ويحث على تنفيذه دون رحمة أو رأفة لا بالنساء ولا بالأطفال ولا بالشيوخ الكبار.

وفي حقيقة الأمر، تمثل هذه الأمور مسألة غاية في الخطورة حينما يستخدمها الحاخامات اليهود المتطرفين في فتاواهم الخاصة بالأرض الموعودة؛ لاسيما وأنها نصوص مقدسة لا تقبل المناقشة أو الاعتراض، حسبما يروجون بين مريديهم. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن هذه القوانين الخاصة بأسلوب التعامل مع سكان هذه الأرض "يتسلمها القادة الإسرائيليون كمصدر وحي، وكشريعة مقدسة لاستئناف البعث الإسرائيلي في فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب"[1]. خاصة وأن "الوعد الإلهي" لدى الحاخامات اليهود المتطرفين يعد مقياسًا لدرجة إيمان الشعب اليهودي، فإيمانهم يقوم على الميثاق أو العهد الديني بين الرب وشعبه، فهذا الشعب، يستمر فقط في حالة المحافظة على هذا العهد الذي يبرهن على مدى الإخلاص والإيمان.

ويعد سفر التثنية، من أهم المصادر، التي يستند إليها الحاخامات اليهود المتطرفين في مسألة أسلوب تحقيق هذا الوعد الإلهي، الذي منحهم تلك الأرض من خلال الاستيلاء على المدن وسفك الدماء لأهل البلاد. ويتحدث الإصحاح العشرون من هذا السفر عن

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، الكويت، العدد١٠٢، يونيو ١٩٨٦، (ص١٧٠).

كيفية التسخير والاستبداد لأهل البلاد، وفي حالة الرفض " فاضرب جميع ذكورها بحد السيف" . (التثنية، ٢٠ : ١٣).

ويمضى الإصحاح العشرون من هذا السفر في الحديث الإلهي عن كيفية محاربة الأعداء والاستيلاء على المدن وأسلوب التعامل مع أهل البلاد . إنها قوانين الحرب التي أشتمل عليها سفر التثنية من الإصحاح العشرين وحتى الرابع والعشرين، والتي يرتكز إليها الحاخامات اليهود المتطرفين في استصدار فتاواهم، كما سنرى فيما بعد، والتي تغلف دائمًا بمثل هذه النصوص حتى تأخذ نوعًا من القدسية والشرعية الدينية التي لا تقبل الشك أو الاعتراض.

وفي حقيقة الأمر، تثير عملية ربط هذا الوعد بالقتل والطرد والإبادة نوعًا من الشك أو الافتراء على الذات الإلهية، فمن غير المعقول أن يوحي الرب لنبي من أنبيائه بالقتل وسفك الدماء والتخريب بهذه العنصرية والدموية . حتى وإن كان الهدف من وراء ذلك "تقديس الأرض" لتصبح "أرض الرب" أو "الأرض المختارة" للشعب المختار أو "الأرض المقدسة" التي تفوق في قدسيتها أية أرض أخرى لارتباطها بالشعب المختار تارة، ولأن الرب يسكنها تارة أخرى، كما جاء في المزمور (٩ : ١١) "رنموا للرب الساكن في صهيون" .

كما أن التوراة تحدثت أيضًا عن أرض فلسطين كأرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، حيث تحدثت عنهم بصفتهم غرباء ووافدين على فلسطين (التكوين ١٧ : ٨) وهو تناقض وقع فيه مدون العهد القديم، لأن التوراة تعترف بأن الرب نفسه نقض هذا العهد حين عاقب اليهود، "ففي سيناء عقد يهوه عهدًا مع إسرائيل . وهذا العهد هو من فعل يهوه فهو اختار إسرائيل ودخل معها في علاقة وطيدة من خلال العهد وتحت حمايته الخاصة، وقطع العهد من جانبهم له عواقبه التاريخية في رأى الأنبياء والمؤرخين . فبنو إسرائيل لم يعيشوا حسب شروط العهد ولم ينفذوا الوصايا، بل لم يقبلوا يهوه إلها واحدًا بل عبدوا آلهة أخرى، ولهذا فقد قرر يهوه عقابهم عن طريق تسليط الشعوب الأخرى عليهم"[1].

ولأن قطع العهد يعنى عقابًا من يهوه، حسب المفهوم الديني لهذا العهد، فإن المحافظة

---

(١) د. محمد خليفة حسن: التفكير التاريخي والحضاري عند الشعوب العربية (السامية) القديمة، كلية الآداب ج القاهرة، ٢٠٠٠، (ص٢٠٤).

على هذه الأرض تعني التحرك نحو تحقيق الوعد والمحافظة عليه . لذا، يروج الحاخامات اليهود المتطرفين لفكرة الوعد ويستصدرون فتاواهم من هذه الفكرة ويرهبون بها من يحاول الحيد عنها، على اعتبار أنها وثيقة ربانية لا تقبل الجدل أو الشك، على الرغم من التناقضات الكبيرة التي وقع فيها مدون العهد القديم أثناء تأكيده على هذا العهد في مبالغة كبيرة وواضحة تشير إلى الشك أكثر منها إلى اليقين.

وهو أمر يؤكد عليه سيد القمني في كتابه (إسرائيل ـ التوراة ـ التاريخ ـ التضليل) بقوله: " إن التناقضات التي ينطوي عليها العهد القديم، يمكن أن تؤلف وحدها كتابًا قائمًا بذاته، لا يقل حجمًا عن الكتاب المقدس ذاته، لو أردنا أن نجمعها في مدون واحد. وهذا بحد ذاته كفيل بنزع الثقة عن التوراة وأخبارها منذ البدء، وحتى الأحداث التي ترويها، كوقائع حدثت في القرن التاسع قبل الميلاد على الأقل، ففي التوراة مبالغات لا يمكن قبولها إطلاقًا وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ الصادق "[1].

(٢) فكرة الوعد الإلهي كمصدر لفتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين:

اتخذ الحاخامات اليهود المتطرفين من الوعد الإلهي حجة من أجل دفع الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التي وعدهم بها الرب حسب ادعائهم، وأحاطوا فتاواهم بنوع من القدسية والتهديد في آن واحد، بحيث لا تقبل المراجعة أو النقد؛ فهي أمر واجب التنفيذ فحسب، واتخذت فتاواهم منحنى خطرًا تجاه التعامل مع الآخر (الفلسطيني) صاحب هذه الأرض بكل قسوة وعنف؛ وأصبحت عمليات القتل والهدم والتخريب، وكأنها طقس من الطقوس البدائية التي عادت لتقدم قربانًا للرب طمعًا في إرضائه، وربما يبين لنا حادث مقتل رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إسحاق رابين مدى خطورة الدور الذي يلعبه الحاخامات اليهود المتطرفين حيث كشفت التحقيقات التي أجريت مع " ييجال عامير " قاتل رابين أنه قتل رئيس الوزراء بناء على فتوى من أحد الحاخامات المتطرفين أبيح فيها إهدار دم رابين، لأنه كان ينوي التخلي عن الأرض الموعودة بموجب اتفاق مع الفلسطينيين.

إن قدسية الأرض لدى الحاخامات اليهود المتطرفين تعد عقيدة لا يمكن أن تتزعزع، فعلى سبيل المثال، " أعلن الحاخام العسكري الإسرائيلي موشيه جورن أن الحروب الثلاثة

---

(١) سيد القمني: إسرائيل. التوراة . التاريخ. التضليل، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، قبرص، ١٩٩٤، (ص٣٦).

الـتي جـرت بين إسرائيل والعرب خلال السنوات ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، هي في منزلة (الحـرب المقدسـة) ، فأولهـا لتحريـر أرض إسرائيل ، والثانية لاستمرار دولة إسرائيل ، أما الثالثة فقد كانت لتحقيق نبوءات أنبياء إسرائيل "[١] .

وبنظـرة عابـرة علـى فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين الخاصة بالأرض ، يتكشف لنا مدى خطورة هذه الفتاوى ، لاسيما أنهم يستندون في فتاواهم إلى ما ورد على لسان الرب ، الـذي مـن المفترض أن تكون كلماته موضع التنفيذ الدائم ، فهذه الأرض هي أرض مقدسة وعدهم الرب بها ولا يمكن التفريط فيها تحت أي مسمى أو اتفاق .

ويذهب " إسحاق نسيم " حاخام إسرائيل الأكبر السابق ، إلى أن " أرض إسرائيل هي الميراث المقدس لدى كل يهودي ، ولا تملك أية سلطة دنيوية أو دينية على نقض هذا الدعاء أو التقليل من شأنه "[٢] .

ويمتد هذا التعصب الديني إلى أن بعض الحاخامات اليهود المتطرفين لا يعترفون بوجود أراض عـربية ، ويـستندون في ذلـك إلى مـا ورد في الـتوراة علـى أنهـا تـراث الآباء إسحاق ويعقـوب ، حـيث يقـول الحاخـام يهودا كوك الابن : " إن هذه البلاد لنا ، ولا توجد هنا أية مـناطق عـربية أو أرض عـربية ، بـل أرض إسـرائيل . تـراث الآباء الخالد ، وهي ـ في جميع حـدودها الـواردة في الـتوراة ـ تابعـة للحكم الإسرائيلي "[٣] . وهو نفس الاتجاه الذي تتبناه حـركة " جـوش ايمونـيم " (كتلة الإيمان) التي تدعو إلى ضم كل الأراضي العربية والمحافظة على تراث الآباء الخالد الذي وعد به الرب أبناء إسحاق ويعقوب .

ويعـتمد الحلـم الاسـتيطاني لـدى الحاخامـات الـيهود المتطـرفين ، على توسيع نطاق الاحتلال أي توسيع نطاق مملكة إسرائيل حتى الحدود الموعودة في العهد ، الذي قطعة الرب مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ظنًا منهم بأن توسيع الاستيطان يعنى المحافظة على العهد ، والـتقاعس عـنه يعنـى مخالفـة العهد . وقد كتبت لجنة حاخامات الضفة الغربية وقطاع غزة تقـول : " لا يجـوز أن يقـوم المـؤمن الـيهودي بـأي دور في خـيانة الـوعد الإلهي المكتوب في توراتـنا ، الـذي وعـد فيه اليهود بأرض إسرائيل . . . وقد كتب الحاخام دافيد شفيتس أحد

---

(١) د . رشاد عبد الله الشامي : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ، مرجع سابق ، (ص١٧٣) .
(٢) أحمد بهاء الدين شعبان : حاخامـات وجنرالات ، مرجع سابق ، (ص ١٥) .
(٣) نفس المرجع ، (ص٣٣) .

كتاب حركة (زعامة يهودية)، إنه لا مجال للتفاوض بشأن الحفاظ على العهد الذي تلقاه أبونا إبراهيم من الرب، فهذا (إرث شعب إسرائيل)"[١].

ويقول "موتى كربل" في كتابه الثورة العقائدية: "ينظر الوعي العقائدي إلى حدود أرض إسرائيل على أنها حدود الوعد الإلهي الواسعة"[٢]. كما يقول" هليل فايس" في كتابه (الطريق القويم): "إن هدف النضال المسلح هو إقامة دولة يهودية على كل أرض يتم تحريرها من نهر الفرات إلى نهر مصر"[٣].

وفي سؤال مباشر للحاخام الإسرائيلي "زلمان ملاميد" عن موقف الشريعة اليهودية من التوسع في الأراضي الفلسطينية أجاب قائلاً: "إننا إذا تواجدنا في كل مكان فإننا سنحول، بصورة كبيرة، من قدرتهم على الضرر بنا. فطبقًا للشريعة اليهودية، يحظر علينا أن نفرط في السيطرة على كل أرض إسرائيل، لأننا مأمورون بوراثة هذه الأرض كلها وعدم إعطائها للغرباء"[٤].

وتعقيبًا على قول اليساريين الإسرائيليين، بأن الاحتلال مدمر وعواقبه وخيمة، يقول الحاخام شارلو: "اليسار على حق في أن الاحتلال المستمر لسكان معادين يعقد الموقف، ولكن اليسار يدعو للتنازل عن أرض إسرائيل؛ وهو أمر مرفوض، فلا يستطيع أحد أن يقول إنه إذا كان للحب جوانب سلبية، فيجب أن نتنازل عنه. إننا يجب أن نستمر في الاستيطان في أرض إسرائيل، ومع ذلك يجب ألا نتجاهل المخاطر وأن نواجهها"[٥].

وفي حقيقة الأمر تنبع خطورة هذه الفتاوى في التأثير على بعض الجنود والضباط الإسرائيليين الذين يعتبرونها نوعًا من الأوامر الشرعية الأخلاقية واجبة الطاعة والتنفيذ في الحياة اليومية بالمناطق المحتلة، ومن ثم فإن هذه الشرعية تعني أن المواجهة بين إسرائيل والفلسطينيين ليست صراعًا سياسيًا يمكن حله عن طريق التسوية السياسية، بل هي حرب إلهيه أبدية، حرب الرب ضد شعب العماليق.

وتنبع خطورة هذه الفتاوى أيضًا من أن أقوال هؤلاء الحاخامات تغلق الطريق أمام

(١) יוסף חרמוני – www.nrg.co.il

(٢) שם.

(٣) שם.

(٤) עיין: השער לעולם התורה. www.yeshiva.org.il

(٥) ٢٣-١١-٢٠٠٤ www.av.org

الحوار والتفاوض، وبالتدقيق في هذه الفتاوى يتضح أنه لم ترد أية إشارة في أقوالهم بأن هناك طريقًا آخر لإدارة الصراع، ولو بالحوار، على سبيل المثال. ومع ذلك فإن التجاهل التام للجوانب العامة للصراع يجعل من فتاوى رجال الدين اليهودي بيانًا متعصبًا بلا مضمون أو عدل.

ويحذر بعض المفكرين الإسرائيليين من خطورة هذه الفتاوى المتعصبة، فتحت عنوان (مخاطر في تصريحات رجال الدين) كتبت هيئة تحرير صحيفة "هاآرتس" تقول: "لقد شهد الموقف التوراتي تجاه شعب العماليق تحولاً حادًا طوال آلاف السنين من التفاسير والشروح التي تم خلالها بلورة أسس الديانة والثقافة اليهودية. وللأسف الشديد أن الحاخامية الرسمية والزعامة الدينية لحركة الاستيطان سيطرت على الحوار الإسرائيلي. وتحاول هذه العناصر منذ سنوات إعادة دولة إسرائيل العصرية - التي تواجه تحديات سياسية وعسكرية معقدة - إلى التفسير الموروث ذي البعد الواحد للرواية التوراتية. فهم يجندون المصادر الدينية وحاخامات إسرائيل بأجيالهم المختلفة لخدمة نظرية قومية ضيقة الأفق، غير متسامحة ومدمرة"[1].

وفي مقابل هذه التحذيرات من خطورة فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين، يعضد مفكرون آخرون من موقف رجال الدين تجاه مفهوم الأرض من المنظور الديني للصراع، فقد علق البروفيسور الإسرائيلي "يهودا تسوريف" على هذا المفهوم قائلاً: "إن حماية وحدة أراضي البلاد هي الاختبار الفعلي لقدرة الشعب اليهودي على تحقيق الهدف من وجوده كما ورد في العهد القديم. وإذا نجح الشعب اليهودي في ظل ضغوط الواقع في تحقيق سيادته على الأرض الموعودة، فمن المؤكد سيكون قادرًا على تبني كل المبادئ الأخلاقية الواردة في العهد القديم على المستوى القومي، والجماعي، والفردي. وفي مقابل هذا، فإن فشل الشعب اليهودي في تحقيق وحدة أراضي البلاد سيثبت أن الاستعداد القومي لتنفيذ تعاليم التوراة مشروط بموافقة شعوب العالم"[2].

وقد كتب الحاخام "يوناثان بلاس" مدير برنامج تعليم الحاخامات المخصص لخريجي المدارس الدينية القومية في إسرائيل يقول: "إن التخلي عن جزء من الأرض اليهودية أمر يؤسف له... لأن ذلك يتعارض مع الضرورات التوحيدية اليهودية المرتبطة دون تنازل

(١) עיתון הארץ، 9-9-2004

(٢) www.a7.org / 18-3-2004

بإعـادة الـسيادة الـيهودية علـى أرض الميعاد. وهذه الرواية الأخلاقية هي التي خانها رابين وبيرتس باستخفاف، من خلال رغبتهما في الوصول إلى التطبيع والاعتراف العالمي، وذلك في محاولـة فاشـلة ويائـسة للهـروب مـن الصراعات والالتزامات النابعة من القرار اليهودي الواحد"[1].

إن اسـتلهام الحاخامات اليهود للتراث الديني أو النصوص التوراتية في إصدار فتاواهم هو أمر طبيعي وبديهي للوهلة الأولى، ولكن السؤال هنا: ألم تكن هذه النصوص التوراتية محـل شـك وخـلاف بـين كثير من الباحثين حول المصداقية التاريخية في النص التوراتى؟ ألم تتحدث النصوص التوراتية المقدسة عن وجود شعب يسكن هذه الأرض منذ فجر التاريخ؟ ألم تـتحدث هذه النصوص أيضًا عن أوامر ألهيه بقتل وطرد سكان هذه الأرض الأصليين؟ غير أنه وبمطابقة الأحداث التاريخية التي أثبتتها نصوص تاريخية أركولوجية بما ورد في العهد القـديم، وجد أن أغلب النصوص المقرائية تدخل ضمن نطاق الخرافة والأسطورة. كما أن هـذه النصوص الدينية اليهودية تحدثت أيضًا عن أن هذه الأرض هي أرض غربة بالنسبة إلى آل إبـراهيم وإسـحاق ويعقـوب، حـيث تحدثت عنهم بصفتهم غرباء ووافدين على أرض فلـسطين، كمـا ورد في سـفر الـتكوين: "وقـال الـرب لابـرام: اذهـب مـن أرضك ومن عـشيرتك ومـن بـيت أبـيك إلى الأرض الـتي أريـك" (الـتكوين ١٢ : ١)، و"أعطـى لك ولنـسلك مـن بعـدك أرض غربتك" (التكوين ١٧ : ٨). علاوة على أن التوراة تعترف بأن الرب نقض هذا العهد حين عاقب اليهود وسلط عليهم الشعوب الأخرى.

ثالثًا: حدود أرض إسرائيل في مفهوم الحاخامات اليهود:

يـرى الحاخامـات الـيهود أن توسيع نطاق الاحتلال، أي توسيع مملكة إسرائيل، طبقًا للحـدود الموعودة في النصوص التوراتية، كما جاء في العهد الذي قطعه الرب مع إبراهيم، يعـد بمـثابة الحفـاظ على العهد، والحيد عن ذلك يعد خطيئة في حق الرب الذي كرم اليهود وأورثهـم هـذه الأرض. وهـم يستندون في ذلك إلى العهد الوارد ذكره في الإصحاح الثالث عـشر مـن سـفر الـتكوين: "ارفـع عينـيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا. لأن جميع الأرض التي لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد" (سفر التكوين إص ١٣ : ١٤-١).

---

(١) أيما نـويل هـيمان: الأصـولية الـيهودية، تـرجمة: سعيد الطويل، مراجعة: د. جمال الرفاعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، (ص ١٤١).

ويـدرك الحاخامات اليهود أن تحقيق مملكة إسرائيل، طبقًا للوعد الإلهي، ينطوي على صـراع دائم ومستمر، لأن حدود هذه المملكة تقع في نطاق حدود الآخرين من غير اليهود، ومـن ثم، فإن فتاواهم تشكل صراعًا مستمرًا مع "الجوييم" أصحاب هذه الأرض. وغالبًا مـا تـصطدم آراؤهم مع الدولة التي أسسها علمانيون، حيث يقول أيما نويل هيمان في كتابه (الأصـولية الـيهودية): "لقد كانت العلاقات بين دولة إسرائيل التي تخيلها ووضع الأسس النظـرية لهـا وأسـسها علمانـيون، وبـين الجماعـات الدينـية دائمًـا غير محددة وتصارعية، علاقـات غـير محـدودة لأن الـيهودي الـديني، هو بشكل ما، الحامل للوعد الإلهي، الذي يعطـى الدافع والشرعية للعودة إلى الأرض المقدسة، لأن شيئًا لم يكن ممكنًا أن يحدث لو لم يكن الرب قد قاد إبراهيم إلى كنعان"[١].

وتتـضح هـذه العلاقـة التصارعية، في حادث مقتل "رابين" الذي هم ليقتطع جزءًا مما يسمى "الحدود المقدسة" ليعطيها للفلسطينيين، فكان جزاؤه القتل بناء على فتوى من أحد الحاخامات اليهود المتطرفين.

وتتـضح معـالم حـدود "أرض إسـرائيل" في كـتاب (الطـريق القـويم) للبروفيـسور اليهودي "هليل فايس" وهو واحد من المنظرين والكتاب المهمين في حركة (زعامة يهودية). حيث كتب يقول: "يكمن الهدف من النضال المسلح، في إقامة دولة يهودية على كل أرض يتم احتلالها من نهر الفرات إلى نهر مصر"[٢].

ولكـن الـسؤال المطـروح هـو، مـا هـي إذًا حدود الأرض الموعودة؟ بالنسبة للحدود الغـربية يقـول "يوسـيف حرمونـي"، وهو أحد مؤسسى حركة "تسوميت": "إنها كما نعـرف تنحـصر بين نهرين: (لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفـرات) تكـوين: ١٥ـ١٨، وبالنـسبة لهـوية نهـر مـصر هـناك اخـتلاف يكتنفه الغموض المـتعمد، حـيث تحـدد حـركة (زعامة يهودية) الأهداف التالية في واحد من إعلانات النوايا الـصادرة عـنها: المملكـة، والنبوءة، والهيكل المقدس وأرض إسرائيل الكاملة من الفرات وحتى نهر مصر. ولم توضح الحركة هل القصد هو نهر النيل أم وادي العريش؟[٣].

---

(١) أيمـا نـويل هـيمان: الأصـولية الـيهودية، تـرجمة: سعيد الطويل، مراجعة: د. جمال الرفاعي، مرجع سابق، (ص١٣٢).

(2) עיין: יוסף חרמוני, עיתון "מעריב"، 6ـ10ـ2004.

(٣) שם.

ولكن في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر العدد، توجد خريطة مغايرة لما ورد في سفر التكوين حددت على أنها أرض كنعان بتخومها. وقد حل الحاخامات اليهود هذه المشكلة بأن شبهوا الأرض بجلد الإبل الذي ينكمش في حالة العطش والجوع ويتمدد إذا شبع وارتوى، وبالتالي فتنكمش الأرض المقدسة إذا هجرها ساكنوها من اليهود، وتتمدد وتتسع إذا جاءها اليهود من بقاع الأرض.

"وهذه الرؤية تعد الأساس الديني للتوسعية الصهيونية: إذا زاد عدد المهاجرين اليهود ليستوطنوا في فلسطين تمددت حدود الدولة الصهيونية. وقد طرح الصهاينة في بداية الأمر شعار "من النيل إلى الفرات"، ولكن على مستوى الممارسة الفعلية أصبح ما يقرر حدود الأرض هو القوة العسكرية الإسرائيلية. ولذلك انسحبت القوات الإسرائيلية من سيناء ولم تنسحب من الجولان، رغم أن سيناء أكثر قداسة من الجولان في المنظور اليهودي، فالصهاينة يوظفون الرؤية الدينية في خدمة الرؤية العسكرية. ومن المشكلات الطريفة التي واجهها لاهوت الأرض مشكلة ملكيتها. فالأرض المقدَّسة عبر تاريخها كان يقطن فيها، في معظم الأحيان، شعب عادي "غير مقدَّس" من وجهة النظر الدينية اليهودية، ففسر الحاخام راشي العبارة الافتتاحية في التوراة التي تقول: "في البدء خلق الإله السماوات والأرض"، بالطريقة التالية: إن الإله يخبر جماعة إسرائيل والعالم أنه هو الخالق، ولذلك فهو صاحب ما يخلق، يوزعه كيفما شاء. ولذا، إذا قال الناس لليهود أنتم لصوص لأنكم غزوتم (أرض إسرائيل) وأخذتموها من أهلها فبوسع اليهود أن يجيبوا بقولهم: إن الأرض مثل الدنيا ملك الإله، وهو قد وهبها لنا. وقد استخدم الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر المنطق نفسه في العصر الحديث في مجال تبرير الاستيلاء الصهيوني على الأرض"[1].

ويوضح "موتى كربل" في كتابه (الثورة العقائدية)، "التفكير في احتلال سيناء أيضًا"[2] على اعتبار أنها ضمن حدود الوعد الإلهي.

وفى موقع morya الإلكتروني كتب الحاخام "عوزيئيل إلياهو" أن الحدود الغربية هي وادي العريش أو نهر النيل[3]. "أما الحاخام حاييم شتاينر فقد كان أكثر تشددًا وهو يقول باسم حاخامات مدرسة بيت ايل الدينية: (بصفة عامة) كان الفرات والنيل النقطتان

---

(١) د. عبد الوهاب المسيرى: الإنسانية والعدوانية في العقيدة اليهودية، مجلة (قضايا الأمة)، ٤-٢-٢٠٠٥.

(٢) יוסף חרמוני، שם.

(٣) עיין: www.morya.co.il

الرئيسيتان. وكذلك البحر المتوسط والبحر الأحمر. كما يقول الحاخام يتسحاق جينز بورج المعروف بتطرفه: (نهر مصر هو نهر النيل وفقًا لرأى معظم المفسرين بما في ذلك الحاخام الراحل شلومو بن يتسحاق) "[1].

وتبدو الحدود الشرقية للوهلة الأولى أكثر وضوحًا في مفهوم بعض الحاخامات اليهود المتطرفين، على الرغم من أن هناك تفسيرات مختلفة حولها. "إنه نهر الفرات . . . وفى الوقت الذي تقبل فيه الأغلبية اعتماد مملكة إسرائيل المستقبلية على الجزء الأعلى منه، أي الجزء السوري من نهر الفرات، توجد أيضًا روايات تقول إنها أوسع من ذلك.

فيقول الحاخام الدكتور موشيه هاكوهين الأستاذ بجامعة بار ايلان: "يرى بعض المفسرين القدامى أن هذا النهر هو الحدود بامتداده الأكبر والأطول الموجود شرقي أرض كنعان حتى مصبه في الخليج العربي"[2].

"ويميل الحاخام شتاينر من مدرسة بيت ايل الدينية إلى قبول هذه التفسيرات القديمة. ويعلن استنادًا للحاخام موشيه بن ميمون، أن إبراهيم ولد في كوتا القريبة من الخليج العربي، ويقول شتاينر، إن كوتا لم تكن (أرض إسرائيل) لأنها تقع شرقي الفرات. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن كل ما يقع غربي نهر الفرات عند طرفه الجنوبي هو (أرض إسرائيل)"[3].

كما يقول الحاخام "زلمان ميلاميد"، مدير مدرسة بيت ايل الدينية: "لا خلاف على أن الدول العربية مثل المملكة العربية السعودية، والكويت واليمن تقع خارج حدود إسرائيل، وحيثما يوجد خلاف فيجب التشدد"[4]. وهناك من الحاخامات من يدرج العراق الواقعة غربي الفرات ضمن خريطة الأرض الموعودة، التي يقبلها معظم أنصار الحركة الاستيطانية.

أما الحاخام "يهودا هاليفى عاميحامى" فيرى "أن هناك مناطق من الأرض الموعودة موجودة في الجزء الجنوبي من تركيا وفقًا لآراء عديدة"[5]، وهو بذلك يوسع من الحدود

---

(1) יוסף חרמוני, שם.
(2) שם.
(3) שם.
(4) עיין: www.yeshiva.org.il
(5) יוסף חרמוני, שם.

الشرقية لتتجاوز شمال العراق أيضًا.

وهكذا، تحمل مفاهيم هؤلاء الحاخامات المتطرفين، التي تدعو لمزيد من التوسع والاستيطان، خطورة بالغة، وتسكب مزيدًا من الوقود على نار الصراع، التي لم تخمد بعد. فهم يختلفون فيما بينهم نحو حدود "أرض إسرائيل" الموعودة، مثلما تخبط في ذلك مدون العهد القديم، ولكن هذا التخبط من شأنه أن يزيد الموقف صعوبة، خاصة وأن هذه المفاهيم الحاخامية الشيطانية تلعب بمقدرات الشعوب وتستهين بالحدود وسيادة الدول الأخرى، وكأنهم يعضدون من "فكرة الاختيار" التي أثرت، بلا شك، على حياة اليهود وعلاقتهم بالشعوب الأخرى، فهذه الشعوب محرمة عليهم، لأنها شعوب نجسة ومحرم عليهم قطع عهودًا معها أو الإشفاق عليها أو مصاهرتها كما جاء في سفر التثنية (٧ : ٢)، علاوة على أن الشعور بالأفضلية لدى اليهود على بقية البشر، جعلهم يعبثون بالخطر، ودفعهم للجلوس على فوهة بركان من المفاهيم العنصرية، من شأنه أن ينفجر في أي لحظة. وثمة نظرة عميقة تجاه هذه المفاهيم العنصرية التي ترسم حدود "أرض إسرائيل" الكاملة دون أدنى اعتبار لملايين العرب الذين يعيشون داخل هذه الحدود، تؤكد لنا سمة "الشعور بالاستعلاء" على الأمم الأخرى.

أضف إلى ذلك "أن اليهود لا يترددون في تسمية أنفسهم (شعب الله المختار)، حيث يعتقدون أن هذا الاختيار هو برنامج ألهى، حيث يعاقب الله الأمم الأخرى عن طريقهم، وهم الذين يبقون وحدهم في آخر الزمان متسلطين على رقاب العالم. كذلك فهم يسمون أنفسهم עם עולם (الشعب الأزلي) وעם נצח (الشعب الأبدي)، حيث يعتقدون وحدهم أنهم مثل الرب لا أول لهم ولا آخر، ولا بداية ولا نهاية، وעם קדוש الشعب المقدس"[1].

ويستندون في ذلك إلى الفقرة الأولى من سفر التكوين (في البدء خلق الرب السموات والأرض)، فهذه السموات والأرض هي ملك له، وبما أن الإله قد حل في اليهود فإن اليهود لهم الحق في أية بقعة من الأرض على اعتبار أن الرب قد اختار اليهود من بين الأمم وقطع معهم عهدًا، وهم بصدد الحفاظ على هذا العهد، فيرتسمون الحدود كيفما يشاءون دون اعتبار للأمم الأخرى وكأنها غير موجودة.

وعن مصير ملايين العرب الذين يعيشون داخل هذه الحدود المقدسة، يقول الحاخام

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٢٩).

"شموئيل إلياهو" حاخام مدينة صفد: "إن كل عربي لا يعترف بملكية شعب إسرائيل لأرضه ليس له مكان هنا. ومن يعترف بملكيتنا لهذه الأرض ويقبل بسيادتنا على أرضنا يستطيع الإقامة في هذه البلاد بأي شكل كغريب"[1].

ويعود الحاخام "شموئيل إلياهو" ويغير من موقفه، حيث يرى أن الترانسفير هو الحل الأمثل لهؤلاء العرب: "يبدو أن الحل الأمثل هو الترحيل الإرادي إلى دولة عربية أخرى مثل الأردن"[2]. ويقول "موشيه بايجلين" رئيس حركة (زعامة يهودية) "إنه لا مكان للعرب في أرض إسرائيل الغربية، فعلى المدى البعيد سيؤدى بقاء العرب إلى محو الهوية اليهودية، فالترحيل الجماعي هو أمر عادل ويبدو أن التاريخ سوف يوفر لنا ظروفًا لتحقيقه"[3].

أما البروفيسور "هليل فايس"، الذي ذكر أن الصهيونية لم تقم إلا من أجل أن يصبح اليهودي يهوديًا خالصًا بعد أن يذبح أعدائه، فيقول: "الآن سوف تأتى إسرائيل وتبيد كل مدنهم بما في ذلك تلك التي في الضفة الشرقية"[4]. وهو بذلك يستعيد النصوص التوراتية التي تحدثت عن إبادة المدن وقتل النساء والأطفال (سفر العدد، إص٣٣: ٥٢، ٣١: ١٧).

ويؤيد الحاخام "زلمان ميلاميد" فكرة الترحيل الجماعي، ولكن إلى مكان آخر، حيث يقول: "هذه الفكرة، التي في إطارها ينبغي القيام بترحيل وطرد العرب إلى ما وراء نهر الأردن، هي خاطئة من أساسها، ينبغي إرسالهم إلى مكان آخر إلى دول مثل السعودية والكويت واليمن"[5]. ونلاحظ أن العراق لم تشمل هذه الدول في رأى الحاخام ميلاميد، فربما يؤيد فكرة أن الأرض الموعودة تشمل كل الضفة الغربية لنهر الفرات.

ويعلق الكاتب "يوسيف حرمونى" على فكرة الترحيل الجماعي، وطبقًا للحدود الموعودة التي تحدث عنها الحاخامات اليهود المتطرفين بقوله: "يمكن حساب عدد من سيتم ترحيلهم وفقًا للخيارات الإقليمية الرئيسية التي ذكرت من قبل الحاخامات اليهود على النحو التالي: أرض إسرائيل الغربية، سوريا ولبنان والأردن حوالي ٣٠ مليون نسمة. وإذا أضفنا مناطق من جنوب تركيا سنتجاوز الثلاثين مليونًا. وإذا أضفنا إلى القائمة ١٥-٢٠

---

(١) עיין: www.yeshiva.org.il

(٢) יוסף חרמוני, שם.

(٣) שם.

(٤) שם.

(٥) שם.

مليون مصري يعيشون شرقي النيل في شمال مصر (بما في ذلك القاهرة) فإن الترحيل سيشمل عدداً يتراوح ما بين ٤٥و٥٠ مليون نسخة . . . هذا هو نبض حركة الاستيطان : مملكة إسرائيل الضخمة والترحيل على نطاق واسع . وإذا لم نفهم ذلك وندركه فكأننا نزر الرماد في العيون "[١] .

رابعًا: الروح العدوانية في فتاوى الحاخامات اليهود:

تتسم الشخصية اليهودية، بصفة عامة، بنوع من الجدلية المتناقضة ما بين الشعور بالدونية تجاه الأمم غير اليهودية تارة، والشعور بالاستعلاء تارة أخرى. وهو أمر يحاول اليهودي أن يستعوضه باستعراض أقسى درجات العنف والقسوة تجاه (الآخر) غير اليهودي.

وفي حقيقة الأمر، كان للديانة اليهودية دور مهم في صياغة هذه الشخصية اليهودية على هذا النحو، فبعض النصوص التوراتية تحدثت عن اليهود كجماعات دونية ومستعبدة مثلما جاء في سفر الخروج الذي تحدث عن حياة العبودية لليهود في مصر، "فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف" (خروج، ١٥ :٣)، "ومرروا حياتهم بعبودية قاسية" (خروج، ٣ :٩)، وتبدأ الوصايا العشر بتذكير اليهود بتخليصهم من "بيت العبودية" في مصر "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية" (الخروج ٢٠ :١). إن هذه النصوص التوراتية التي تغلغلت في النفس البشرية اليهودية وساهمت في تكوينها الشخصي والنفسي والأخلاقي تجاه التعامل مع غير اليهود على مر العصور أثرت بلا شك في طبيعة هذا السلوك اليهودي، الذي اتسم عند الشعور بالاستعلاء بممارسة العنف تجاه الآخرين، بل وربما التلذذ بتعذيبهم، وهي إشكالية معقدة، يطلق عليها علماء النفس، "التوحد في المعتدى"، أي أن العبد ينقلب سيداً ويأخذ في ممارسة دور السيد تجاه الآخرين الذين صاروا بالنسبة له عبيداً، وتتخذ سلوكياته وقتها مبادئ أكثر عنفًا وأكثر قسوة.

"لقد خلقت لديهم هذه النصوص الدينية والتاريخية إحساسًا بالمذلة الدائمة، عوضوه بعد ذلك بسلوك عدواني ووحشي تشهد على ممارسته مدوناتهم كما سجلت في قصة غزو كنعان من منظورهم الديني القومي"[٢] .

(١) יוסף חרמוני، שם .

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص٢٩).

وثمة عوامل تاريخية أخرى، أثرت أيضًا في التكوين الشخصي لليهود، تتضح في المراحل العديدة التي مرت بها الجماعات اليهودية منذ فجر التاريخ، ومرورًا بمرحلة الانعزالية "الجيتوية" والانعزالية "الصهيونية" ووصولاً إلى الانعزالية "الإسرائيلية" وهى مراحل ساهمت في تأصيل الروح العدوانية لدى اليهودي، كرد فعل للأحداث التاريخية والنفسية التي مرت بها جموع اليهود عبر هذه المراحل المختلفة.

ويمكن القول، إن الإحساس بالدونية والشعور بالاستعلاء في آن واحد لدى الشخصية اليهودية، هو أمر يحدث نوعًا من الارتباك والانفصام الشخصي غالبًا ما يتولد عنه الروح العدوانية وعبادة القسوة والعنف، مثلما يؤكد على ذلك علماء علم النفس والاجتماع.

وتبقى النصوص التوراتية دومًا، هي الدافع الرئيسي والمحرك الفعلي لتشكيل السلوك البشرى اليهودي، فكما استلهمت الشخصية اليهودية مشاعر "الدونية" و"الاستعلاء" و"الاختيار" من العهد القديم، استلهمت أيضًا "الروح العدوانية" كسلوك مقدس يسمح لبنى إسرائيل باستخدام كل السبل لتحقيق النبوءات والوعود، ويمهد الطريق أمام القتل والدمار والاحتلال، حيث يمتلئ العهد القديم بكثير من النصوص التي تنبعث منها رائحة العنف والدمار، والتي يستلهمها الحاخامات اليهود في فتاواهم ويعضدونها بهذه النصوص العدوانية التي تقذف الرعب في قلوب "الجوييم" وتذكرهم "برب إسرائيل" الذي يحارب مع بنى إسرائيل ويمهد الطريق أمامهم لتحقيق مآربهم في الغزو والاحتلال: "الرب إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك" (سفر التثنية ٧ : ١٥)، "فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر" (سفر الخروج ١٣ : ٢٩)، "الرب إلهك هو العابر أمامك نارًا آكلة هو يبيدهم ويزلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعًا كما كلمك الرب" (سفر التثنية ٩ : ٣).

ويتخذ الحاخامات اليهود من هذه النصوص التوراتية مصدرًا لفتاواهم الدينية، حتى لا تقبل الشك أو المناقشة، وأحيانًا يستخدمون هذه النصوص كتوصيف خطأ للحالة المراد الإفتاء فيها. فتعليقًا على اتهام ضابط إسرائيلي برتبة نقيب أطلق النار على جثة طفلة فلسطينية عند محور فيلادلفلى، يقول الحاخام يوفال شارلو: "في هذا الصدد، وردت في الشريعة اليهودية قاعدة أساسية تقول: (من جاء ليقتلك بكر بقتله) فطالما أن هناك خطرًا من جانب شخص على حياة الإنسان، فإن الشريعة تقرر قتل هذا الشخص"[1].

---

(1) www.a7.org / 23-11-2004

وينهي الحاخام شارلو حديثه بقوله: "إنه من المهم في نهاية الأمر أن نحرص على النصر بشكل يتناسب مع الحدث: لقد أطلق قائد السرية النار على جثة، بينما يفجر أعداؤنا أناسًا أحياء"[1]. ولعلنا نلاحظ هنا أن هذا الحاخام يتستر وراء أقوال غامضة لا تتناسب مع هذا الحدث المشين، لقد أطلق النار على "جثة طفلة"، والتمثيل بالجثث أمر لا تقره أي ديانة سماوية، ولكنها العنصرية والسادية التي تفوح من فتاوى هؤلاء الحاخامات المتطرفين، فما الخطر الذي يمكن أن تمثله طفلة في عمر الزهور ضلت طريقها، فما كان يجب المساس بها. وبالرغم من أن مهمة رجال الدين هي قول الحقيقة وإدانة المنحرفين، فإننا نجدهم يعضدون من موقف هذا الضابط ببعض النصوص المقدسة التي لا تتفق مع طبيعة الحدث.

وتتضح الروح العدوانية أيضًا، في الفتوى التي أكد عليها الحاخام "شلومو أفنير" ونشرت في ٧/ ١٢/ ٢٠٠٤، بشأن حادثة مقتل أحد النشطاء الفلسطينيين المصابين على أيدي جنود الوحدة البحرية الإسرائيلية، فقد أفتى هذا الحاخام، بأن جنود الوحدة كان يجب عليهم قتل هذا الناشط حتى بعد أن تم القبض عليه، ويطبق الحاخام هنا "حكم الجائر" الذي يهدر دمه، ويبرر الحاخام ذلك بأن هذا الناشط مازال يرغب في مواصلة القتل، ومن المحتمل عندما يشفى من جرحه ويخرج من سجنه أن يواصل اعتدائه[2].

ويبدو هنا أن الحاخامات يلتقطون فقط النصوص الدينية المبتورة التي تدعو إلى العنف والقتل، ولا يلتفتون إلى النصوص المباشرة الأخرى، فهي تحرم أيضًا القتل مثل: "سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه. لأن الرب على صورته عمل الإنسان" (التكوين ٩ : ٦)، كما أن هناك أمرًا صريحًا لشعب إسرائيل يقول: "لا تقتل".

وتعلق "شولاميت آلوني" عضو الكنيست السابق، على مثل هذه الفتاوى، التي تهدر الدماء باسم الدين بقولها: "يبدو أن التعسف جعل رجال الدين حاخامات المدارس الدينية ذات الصبغة العسكرية يتجاوزون حدود العقل والدين. فجيش الاحتلال، والجشع واستعراض القوة، والسهولة التي يمكن بها طرد الفلسطينيين من أرضهم وتحويل مدنهم إلى سجون، وردم آبارهم وإغلاق كهوف الدعاة في جبل الخليل، بما يعني في الواقع تدمير أساس وجودهم، كل ذلك زاد من العجرفة والتكبر إلى أن أسفرا عن صدور رأي - هو بمثابة فتوى شرعية - يسمح أثناء أي عملية انتقامية ضد الفلسطينيين بقتل النساء والأطفال

---

(1) www.a7.org / 23-11-2004.

(2) יוסף עידן، עיתון "מעריב"، 7-12-2004.

وكبار السن والمواطنين العاديين، رغم أنهم آدميون خلقوا على صورة الرب ولهم الحق في الحياة طبقًا لأي قانون"[١].

وقد أشارت ألوني أيضًا، إلى أن العقيدة الدينية تتسم بكثير من الجوانب الإنسانية. وقارنت بين قوانين نوح التي ورد ذكرها في سفر التكوين (٩ : ٤ـ٧) وبين مثل هذه الفتاوى المتطرفة التي تطالب بإراقة دماء الفلسطينيين، وشددت على أن قوانين نوح هي قوانين عالمية تطبق على كل البشر، حيث حظر الإله على نوح وأبنائه سفك الدماء، وأن هذه الشرائع ملزمة لليهود وغير اليهود.

وتمجيدًا لروح العدوانية والدعوة للقتل باسم الرب، قام بعض الحاخامات الذين يعتبر بعضهم "معتدلين" بالتوقيع على فتوى تبيح للجيش الإسرائيلي أن يوجه ضرباته إلى المدنيين الأبرياء أيضًا[٢]. وقد أعطت هذه الفتوى الجديدة للجيش الإسرائيلي حرية قصف المناطق المكتظة بالسكان دون الاكتراث بوجود أطفال أو شيوخ. ورغم أن الجيش الإسرائيلي يتصرف على هذا النحو، دون حاجة إلى تصريح من رجال الدين، إلا أنه بذلك قد حصل أيضًا على موافقة صريحة من المتحدثين باسم الرب.

ومثل هذه الفتاوى تأخذ شكلاً أكثر خطورة بالنسبة لجنود المدارس الدينية تلاميذ هؤلاء الحاخامات، وهو أمر يحذر منه أحد الكتاب الإسرائيليين بقوله: "إن كافة أقوال وتبريرات أولئك الحاخامات هي التملق بعينيه، فهم يحرضون على قتل المدنيين. وإذا لم نوقفهم ولم نندد بأقوالهم بكل الطرق، فسوف نتدهور بسرعة كبيرة لنصير في مستوى سدوم وعمورة"[٣]. وهي الأقوام التي أهلكها الرب قديمًا.

وردًا على التحذيرات التي يطلقها بعض اليساريين الإسرائيليين في وجه هؤلاء الحاخامات المتطرفين نشر بعض الحاخامات اليهود فتوى علنية في يوم الثلاثاء ٧/ ٩/ ٢٠٠٤ وأرسلوها إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي ووزير الدفاع ورئيس الأركان، جاء فيها: "في الحرب لا يجب التمييز بين المدنيين والعسكريين، فعندما يكون هناك خطر على جنودنا ومواطنينا لا ينبغي تطبيق الأسلوب المتبع في الأخلاق المسيحية التي تعطى حياة أعدائنا الأولوية عن حياتنا"[٤]. وجاء في الفتوى أيضًا: "نحن الموقعون أدناه [*] ندعو الحكومة

---

(١) שולמית אלוני, עיתון הארץ, 19-19-2004, (עמ'4).

(٢) עיתון ידיעות אחרונות, 19-9-2004.

(٣) שם.

(٤) עיתון מעריב, 7-9-2004.

(*) من بين الموقعين على هذه الفتوى: الحاخام دوف ليئور رئيس لجنة رجال الدين في الضفة الغربية=

الإسرائيلية والجيش إلى العمل طبقًا لمبدأ (من جاء ليقتلك فبادر إلى قتله) . . . وهذا ما أتبعه شعب إسرائيل منذ عهد موسى الذي حارب المديانيين، وهذا ما فعله يفتاح هجلعادي وشاؤول ودافيد وجميع القادة العسكريين على مر الأجيال، وهذا ما فعلته إسرائيل في حرب ١٩٦٧ "[١].

وقد عقب "ميخائيل ملكيئور" زعيم حزب ميماد الديني على هذه الفتوى بقوله: "إننا نشعر بالأسف الشديد لمحاولة تجنيد التوراة، واستغلالها بصورة رخيصة ومخالفة للحقيقة لاحتياجات سياسية لأقلية متطرفة. إن التوراة والأخلاق اليهودية كانا يعارضان دائمًا وبشدة المساس بالأبرياء. كما أن الصراع لا يبرر العقاب الجماعي"[٢]. وعلقت (حركة السلام الآن) اليسارية على هذه الفتوى، وأصدرت بيانًا جاء فيه: "إن هؤلاء الحاخامات يريدون أن تصبح الدولة كلها سدوم وعمورة باعتقادهم أن مفهوم طهارة السلاح عفا عليه الزمن، وأن المساس بالأبرياء أمر مشروع ومبرر"[٣].

وقد حذر البعض أيضًا من تدنيس "الإنسانية" باسم الدين على أيدي هؤلاء الحاخامات المتطرفين، رغم ما يستلهمونه من نصوص توراتية لتدعيم مواقفهم وأقوالهم، فمثل هذه الفتاوى تمثل العنصرية في دولة تدعى الديمقراطية، فتقول شولاميت ألونى تعليقًا على هذه الفتاوى: "لن تؤدي مثل هذه الفتاوى، التي تقر بأن الدم اليهودي أكثر حمرة من دم غير اليهود، إلى احترام الشعب اليهودي. وللأسف، ففي الوقت الذي يتمتع فيه شعب إسرائيل بالسيادة على أرضه، ويسيطر على أقوى دولة في الشرق الأوسط، أصبحت (الإنسانية) مهددة إلى هذا الحد في نظر الكثيرين . . . على الرغم من أن هناك بعض رجال الدين الذين أصدروا فتاوى مختلفة عن تلك التي تقضي صراحة بقتل المدنيين، أو عن تلك التي تمتدح يجال عامير وشباب التلال[*]، وكل الذين يدمرون ويقتلون ويتسكعون في المناطق المحتلة ويطلقون النار في كل اتجاه"[٤].

= وقطاع غزة، وحاخام كريات أربع، والحاخام إلياكيم لقانون حاخام مستعمرة إيلون موريه، والحاخام البعيزر ملاميد حاخام مستعمرة هاربراخا، والحاخام أمنون شوجرمان رئيس الدراسة الدينية في جسبين بالجولان والحاخام دافيد دودكوفيتش حاخام مستعمرة يتسهار، وحاخامات آخرين.

(١) שם.

(٢) שם.

(٣) שם.

(*) נערי הגבעות (شباب التلال): هي تسمية لجماعة من الشباب الإسرائيليين، تسكن التلال الجديدة في الضفة الغربية ويبلغ عددهم أكثر من ٢٠٠ شخص تقريبًا ويعيشون في نمط حياتي ديني ـ قومي يختلف عن النمط الشائع في المستعمرات، ولكي يكونوا مختلفين عن الآخرين تبنوا نمطًا حياتيًا يقوم على الحياة البدائية.

(٤) שולמית אלוני, עיתון הארץ, שם.

وتمتد خطورة هذا التعصب الديني العنصري في فتاوى هؤلاء الحاخامات إلى أنهم لا يعترفون بمشروعية التعبير عن رأى في مسألة سياسية أو عسكرية أو أخلاقية، ويتطلعون فقط إلى التأثير على السياسات الحكومية فحسب، وبما يخدم مصالحهم الشخصية تحت غطاء الشرعية الدينية، فهم يعطون لأنفسهم سلطة الإفتاء بما فيه مصلحتهم هم وأتباعهم ويتلونون طبقًا للظرف السياسي الذي تمر به الدولة. لقد صوت حزب "شاس" الديني ضد اقتراح قدم في الكنيست في الثامن وعشرين من مارس ٢٠٠٥ يدعو إلى عمل استفتاء عام قبل الانسحاب من غزة، وهو أمر يتعارض مع لنبي الحزب، وتناقض نستطيع أن ندركه حين نعلم بأنه جرى اتفاق ما، بين أعضاء الحزب ورئيس الحكومة بشأن الميزانية.

وهكذا، تبدو الروح العدوانية سمة سيكولوجية تميزت بها الشخصية اليهودية على امتداد المراحل التاريخية المختلفة لدولة إسرائيل، وهى سمة تكاد تكون يهودية خالصة، "حيث كان بن جوريون يقول (إني اعتبر يشوع بطل التوراة، إنه لم يكن مجرد قائد عسكري بل كان المرشد) وفى دير ياسين وغيرها من الأماكن كرر الإسرائيليون ما فعله يشوع بن نون عند دخوله أرض كنعان وفق ما ورد في التوراة... وقد علق موشيه مينوهين على هذا بقوله: (إن الاستشهاد بالتوراة والتوصل بالإرهاب لنشر الذعر، هما أسلوبان قديمان لتحرير أرض موعود بها والتخلص من سكانها الأصليين... وأشباه اليوم يتصرفون بنفس أسلوب يشوع في العصور القديمة، ثم يعرضون السلام بعد أن يكونوا قد أنجزوا المهمة القذرة"[(١)].

"وقد دعمت كتب التراث اليهودي التي جاءت بعد (العهد القديم) كالتلمود هذه القيم وتمسكت بها كذلك الفرق اليهودية المختلفة، وكانت الوسيلة أيضًا من أجل تحقيق المسيحانية لمن يؤمنون من اليهود (بالخلاص المسيحاني). وقد جعلت (الصهيونية الدينية) الحرب أساسًا من الأسس التي تقوم عليها هذه الصهيونية مستندة في ذلك إلى كل ما سبق ذكره من جذور تراثية في (العهد القديم) وتدعو للحرب وتشريعها"[(٢)].

وكأننا أمام نصوص مقدسة وملزمة للإسرائيليين بضرورة إبادة الفلسطينيين، لأنهم من سلالة العماليق، وهى القبيلة التي تأمر التوراة اليهود بإبادتهم فهم رمز الشر. وكأننا أيضًا أمام صياغة جديدة ل "توراة جديدة" تحتوى فقط على مثل هذه النصوص المدمرة.

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٧٢).
(٢) نفس المرجع، (ص١٧٣).

وبالطبع كان لهذه النصوص التوراتية التي اتخذها الحاخامات المتطرفين مصدرًا لفتاوى القتل والطرد أثر كبير في تغذية الوجدان الإسرائيلي بمبررات العنف والقسوة والوحشية، وتدريسها في المدارس الإسرائيلية دون أن تحظى بمعالجة نقدية تذكر، وتأثيرها بدون شك على سلوكيات الجنود الإسرائيليين والضباط أيضًا تجاه التعامل مع (الآخر) الفلسطيني. فقد أثارت شهادات الجنود التي قام بجمعها أعضاء حركة "محطمو الصمت"(*) شكوكًا في ممارسات خطيرة ترتكب بحق الفلسطينيين خلال العمليات العسكرية في المناطق المحتلة. وثمة نظرة سريعة على بعض من هذه الشهادات التي نشرها هؤلاء الجنود على صفحات الجرائد وفي موقعهم الإلكتروني، تبين لنا مدى تأثير هذه الفتاوى على هؤلاء الجنود في ارتكاب أبشع الجرائم ضد الفلسطينيين... "حيث تتعلق إحدى الشهادات بطبيب عسكري قام بإعطاء درس في التشريح للممرضين على جثة فلسطيني... فيقول الجندي الذي عمل كرجل إسعاف، إن جثة الفلسطيني كانت ممزقة من الرصاص، وبرزت منها بعض الأعضاء الداخلية... وقد أخرج الطبيب مشرطًا وبدأ في تقطيع أجزاء من الجثة وشرح لنا على أجزاء مختلفة منها، الغشاء المحيط بالرئتين، وطبقات الجلد، والكبد وأشياء أخرى"(١). ويصف رقيب أول في الجيش الإسرائيلي مشاهد من العنف ارتكبها هو وزملاؤه في منطقة دير البلح، فيقول: "أثناء كمين استطلاع روتيني، أطلق المدفعجي بأمر من القائد النار في اتجاه خزانات مياه عدد كبير من المنازل في دير البلح وكان إطلاق النيران بهدف الروع أو للتدريب على التنشين، أو بهدف تسخين المعدات أو لمجرد الرغبة فى ذلك ويا لها من كميات أخذت تنهمر على أسطح هذه المنازل"(٢).

وفي نهاية سبتمبر ٢٠٠٤ نشرت جماعة (محطمو الصمت) شهادات جديدة لمجموعة من الجنود الإسرائيليين، تركزت جميعها هذه المرة على الحالات التي ارتكب فيها الجنود الضباط مخالفات متعمدة لتعليمات الجيش الإسرائيلي بالنسبة لإطلاق النار تجاه الفلسطينيين...

(*)שוברים שתיקה (محطمو الصمت): أسست هذه الحركة في يونيو ٢٠٠٤ على يد "شموئيل نفو" وهو رقيب أول بسرية استطلاع لواء الناحال، وهى حركة تكونت من الجنود الإسرائيليين الذين أنهوا الخدمة في الجيش الإسرائيلي وقرروا رواية ما شاهدوه من فظائع ترتكب بحق الفلسطينيين أثناء أدائهم الخدمة في المناطق الفلسطينية المحتلة، وهم ليسوا من رافضي الخدمة في الجيش الإسرائيلي وتسعى على حد وصفها إلى وضع مرآة أمام المجتمع ليعرف الثمن الذي يدفعه الجندي الإسرائيلي مقابل الخدمة في المناطق المحتلة ولاسيما على المستوى الأخلاقي.

(١) www.walla.co.il/٢٨-١-٢٠٠٥

(٢) www.shovrimshtika.org/٢٠٠٤

"فتحدث جندي مدرعات في رفح عن إطلاق ١٥٠٠ عيار من مدفع رشاش بشكل عشوائي تجاه الفلسطينيين، وجندي آخر يطلق ذخيرة حية تجاه راشقي الحجارة، وجنود بالمدرعات يطلقون نيران رشاشاتهم إلى مسافة بعيدة تجاه البيوت في جنين بدون تحديد هدف معين، وضابط برتبة عقيد يفتح النار تجاه مظاهرة بصورة عنيفة في الوقت الذي كانت التعليمات تقضي باستخدام وسائل التفريق فقط"[١].

وفي إطار ما نشر من شهادات لجماعة (محطمو الصمت)؛ يحكى أحد الجنود عن إصابة فلسطيني برصاصة في رأسه، فسقط ممدًا على بعد ٥٠ مترًا... "لقد ذهبنا كلنا مع قائد السرية إلى الجثة وقلبناها وكان كل من يصل إليه يطلق النار على رأس الجثة"[٢].

ولم يكن هذا فقط، بل وصل الأمر إلى حد التمثيل بالجثث والتقاط الصور التذكارية مع أشلاء الجثث، "فقد حكى أحد جنود كتائب "الناحال" الدينية عن جثة فلسطيني كان مقطوع الرأس، وقد وضعت الرأس في عامود حديدي، وكأنها خيال المآتة ووضعوا سيجارة في فم الجثة... لقد كان هذا أكثر المشاهد إضحاكًا في السرية، والتقط الجميع صورًا مع هذه الرأس المقطوعة، وفي وقت لاحق تم عرض الصور للبيع بسعر رمزي. ويمضى الجندي في شهادته ويقول، لقد أصبحت صور الجنود مع جثث الناشطين الفلسطينيين في أوضاع مختلفة ظاهرة متفشية في الجيش الإسرائيلي، تحدث في كل سلاح، وفي كل سرية، وفي كل مكان يحدث فيه اتصال بين الجنود الإسرائيليين والناشطين الفلسطينيين"[٣].

وهكذا، تبدو مظاهر العنف والروح العدوانية في سلوكيات الشخصية اليهودية الإسرائيلية، وكأنها "جينات" من مكونات التكوين السيكولوجي والديني والتاريخي والأيديولوجي لهذه الشخصية، أي أن إيعاز هذه الروح العدوانية لم يكن فقط إلى فتاوى الحاخامات اليهود فحسب، بل أنها سمة من سمات الطابع القومي للشخصية الإسرائيلية، وهي سمة تتفاوت من شخص إلى آخر، بدليل ظهور جماعة (محطمو الصمت)، ولكنها سمة عامة تغلغلت في وجدان النفسية اليهودية نتيجة لترسبات تاريخية وأحداث مر بها اليهود عبر التاريخ، ولتعاليم صهيونية كانت الحركة الصهيونية في حاجة إليها، وقبل كل هذا نصوص توراتية، أعطت للروح العدوانية صبغة دينية شرعية استلهمها الحاخامات

---

(١) www.walla.co.il/٢١-٩-٢٠٠٤

(٢) עיתון מעריב، 8-2-2005.

(٣) עיתון ידיעות אחרונות، 7-11-2004.

اليهود المتطرفين في فتاواهم، حتى صارت نمطًا جديدًا يضاف إلى أنماط السلوك العدواني في الشخصية اليهودية الإسرائيلية ويدعمه، ولكنه في نفس الوقت خطير لأنه يرتكز إلى الشرعية ويرتكب باسم الرب، ويبرر أشكال العدوان المختلفة.

خامسًا: موقف الحاخامات اليهود من الاتفاقيات المبرمة مع الفلسطينيين (خطة فك الارتباط نموذجًا):

أثارت "خطة فك الارتباط"(*) أحادية الجانب ردود فعل واسعة داخل الساحة

(*) תוכנית ההתנתקות: تنص خطة "فك الارتباط" على الانسحاب من قطاع غزة التي بها ٢٠ مستوطنة (٨٠٠٠ مستوطن) واربع مستوطنات في شمالي الضفة الغربية وبها أربع مستوطنات (١٥٠٠ مستوطن). وفيها تلتزم إسرائيل بعملية السلام وتطمح للوصول إلى تسوية متفق عليها، على أساس مبدأ دولتين لشعبين: دولة إسرائيل كدولة الشعب اليهودي ودولة فلسطينية للشعب الفلسطيني، وذلك كجزء من تحقيق رؤى الرئيس الأمريكي "بوش". كما تؤمن إسرائيل بأن عليها العمل لتحسين الواقع الحالي. وقد استنتجت إسرائيل أنه لا يوجد هناك شريك فلسطيني يمكن التقدم معه بعملية سلام متبادلة. وعلى ضوء ذلك، بلورت خطة "فك الارتباط" الأحادية الجانب، وتقوم بعض بنود الخطة على:

(١) قطاع غزة:

١- ستقوم إسرائيل بإخلاء قطاع غزة، بما في ذلك المستوطنات الإسرائيلية الموجودة فيه اليوم، وستعيد انتشارها من جديد خارج القطاع، عدا عن انتشار عسكري في منطقة الحدود بين قطاع غزة ومصر (محور فيلادلفي) حسبما سيتم تفصيله لاحقًا.

٢- مع استكمال الخطوة، لن يبقى في المناطق التي سيتم إخلاؤها على اليابسة في قطاع غزة أي حضور إسرائيلي ثابت لقوات الأمن ولمواطنين إسرائيليين.

٣- نتيجة لذلك، لن يكون هناك أي أساس للادعاء بأن قطاع غزة يعتبر منطقة محتلة.

(٢) الضفة الغربية:

١- ستخلى إسرائيل منطقة شمالي الضفة الغربية (غنيم، كديم، حومش، وسانور) وكل المقرات العسكرية الثابتة في هذه المنطقة، وستعيد انتشارها من جديد خارج المنطقة التي سيتم إخلاؤها.

٢- مع استكمال هذه الخطوة لن يبقى في شمال الضفة الغربية أي تواجد ثابت لقوات الأمن ولمواطنين إسرائيليين.

٣- ستتيح هذه الخطوة التواصل الجغرافي الفلسطيني في شمالي الضفة الغربية.

٤- ستعمل إسرائيل على تحسين البنية التحتية للمواصلات في الضفة الغربية بهدف ضمان استمرارية في خطوط المواصلات للفلسطينيين في الضفة الغربية.

٥- هذه الخطوة ستسهل على النشاطات الاقتصادية والتجارية للفلسطينيين في الضفة الغربية.

(٣) الجدار الفاصل:

ستواصل إسرائيل بناء الجدار الأمني، بناء على قرارات الحكومة ذات الصلة. كما سيأخذ مسار الجدار بالحسبان الاعتبارات الإنسانية.

الإسرائيلية وأحدثت دوى هائل داخل الأوساط الدينية المتشددة التي تقدس الأرض وتحرم إخلاؤها، خاصة وأنها تقضى بالانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة وأربع مستوطنات في شمال الضفة الغربية. وانهالت بعدها فتاوى الحاخامات اليهود التي تحرم الإخلاء وتهدد "شارون" والوزراء الذين صوتوا لصالح هذه الخطة بالقتل وتذكرهم بمصير "رابين"، على اعتبار "أن كل موقع استيطاني في أرض إسرائيل هو فريضة من فرائض إعمار إسرائيل ويمنع إخلاؤه منعًا باتًا". وطالب الحاخامات اليهود المتطرفين "كل جندي إسرائيلي بالتوجه إلى قائده بطلب إعفائه من كل أمر يتعلق بإخلاء المواقع الاستيطانية بسبب معتقداته الدينية والضميرية".

وقد عقدت لجنة (حاخامات المستوطنات) اجتماعًا طارئًا قررت في ختامه "رفض إخلاء المستوطنات، وحرضت الجيش الإسرائيلي على التمرد ضد قرارات الإخلاء... ودعت لجنة حاخامات المستوطنات المزيد من العائلات الوصول إلى المواقع الاستيطانية والتشبث في كل موقع يحتاج ذلك وأعلن الحاخامات أيضًا أن أية حكومة تمس بأي جزء من الاستيطان لا تستحق أي تعاون معها، وعلى كل الأحزاب الصهيونية ألا تساند حكومة كهذه"[1] لأن هذه الحكومة في مفهوم هؤلاء الحاخامات المتطرفين تنتهك أوامر الرب التي تدعو إلى إعمار أرض إسرائيل وعدم التخلي عنها والتشبث بها.

ويعلق المحلل الإسرائيلي "عوزي بنزيمان" على حملة تحريض الحاخامات اليهود المتطرفين للجنود الإسرائيليين بعدم المشاركة في إخلاء المستوطنات بقولة: "ما يحدث هو مظهر من المظاهر الصارخة التي تجتاح المجتمع الإسرائيلي في خضم غياب للحدود الواضحة، حيث تعبر مظاهر الرفض هذه بكل وضوح عن الخلل الذي أصاب الواقع الإسرائيلي منذ ٣٧ عامًا... فالدولة منقسمة بين فريقين، أحدهما يؤمن بكل جوانحة بأن الاحتلال هو بؤرة السم الذي يهدد وجودنا، والآخر يعتقد بقناعة تامة بأن الانسحاب من المناطق المحتلة هو الذي سيلحق الدمار للدولة"[2].

وفي سؤال عن جدوى إعادة الأراضي المحتلة، ومدى ما ستحققه من حقن للدماء، يجيب الحاخام "ميخائيل باروم" بقوله: "في الوضع الراهن يبدو أن إعادة أو حتى التنازل عن مناطق من الأراضي المقدسة لن يقلل من معدل إراقة الدماء، بل سيزيدها... ونظرًا

---

(١) עיתון ידיעות אחרונות، 15_10_2002.

(٢) עיתון הארץ، 26_12_2004.

لأن واجبنا هو الاحتفاظ بالأراضي المقدسة كما ورد في تفسير الحاخام رابى موشيه بن يتسحاق (الوصية الرابعة)، فإن ما يحدث أشبه بحرب تتواصل حتى لو تساقطت الضحايا"[١].

ويعضد هؤلاء الحاخامات فتاواهم حول خطة (فك الارتباط) بأقوال حاخامات راحلين حول ضرورة التمسك بالأرض المقدسة، ففي بيان جرى توزيعه في الضفة الغربية وقطاع غزة، تم اقتباس أقوال للحاخام الراحل "تسفي يهودا كوك، وهو الأب الروحي لحركة "جوش ايمونيم"، جاء فيه: "إن عبارة (أورثتم هذه الأرض واستعمرتموها) فيها إلزام وأمر بأن تكون هذه الأرض تحت سيطرتنا وألا نتركها في أيدي غيرنا من الأمم. . . فهي فريضة توراتية واضحة وقاطعة وملزمة لكافة اليهود بالتضحية من أجل هذه الأرض بكامل حدودها، حتى وإن كان هناك إكراه بسبب تأثيرات سياسية فإننا ملتزمون بالتضحية بأرواحنا من أجل هذه الأرض التي منحها الرب لنا"[٢].

وقد حذر الحاخام الأكبر السابق "أفراهام شابيرا"، وهو يترأس اليوم اتحاد الحاخامات من أجل أرض إسرائيل، من خطورة التنازل عن الأرض، لأنه عمل يتنافى مع الشريعة، وكتب يقول: "وفقًا للتوراة، فإن تسليم مساحات من أرضنا المقدسة للأغيار يعد خطيئة وجريمة. . . وعلى ذلك فإن أي تفكير أو فكرة أو قرار أو أي فعل لإخلاء المستوطنين وتسليم المنطقة لغير اليهود، فهو عمل يتناقض مع الشريعة ويجب منعه بكل السبل"[٣].

ولم يكتف الحاخامات اليهود بنشر فتاواهم فحسب، بل حاولوا إثارة الفتن في صفوف الجيش الإسرائيلي، وأصدروا الفتاوى الخاصة بالجنود، وشبهوا الأمر بحرب دينية وحرموا على الجنود الإسرائيليين المشاركة في الإخلاء ورفعوا شعار (الموت أفضل من الإخلاء). وفي صحيفة דרכה של התורה (طريق التوراة)، وهى صحيفة توزع في كل المعابد في شتى أنحاء إسرائيل، وجه الحاخام "يتسحاق برند" في الفتوى التي نشرتها الصحيفة، الدعوة إلى الجنود للتضحية بحياتهم من أجل عدم إخلاء النقاط الاستيطانية، لأن ذلك بمثابة "الارتداد عن الدين اليهودي"، حيث يقول: "إن سقوط النقاط الاستيطانية، هو جزء من مسيرة تؤدى في النهاية إلى سقوط القدس. . . إن الحرب هنا هي حرب دينية، والاستهانة بكون

---

(١) www.kipa.co.il/1-6-2004

(٢) www.av.org/١٧-١٠-٢٠٠٤

(٣) www.fresh.co.il/٢٧-٦-٢٠٠٤

شعب إسرائيل شعبًا مختارًا هي استهانة بالتوراة وحرب ضدها . . . ولذا، فيحرم على أي جندي أن يشارك في الإخلاء، حتى ولو دخل السجن نتيجة رفضه لتنفيذ الأوامر، إذ أن من الواجب عليه أن يضحى بحياته في سبيل الأرض المقدسة التي وهبها الرب له ولذويه "[١].

وفي الرابع عشر من مارس ٢٠٠٥ أصدر حاخامات يهود متطرفين فتوى دينية تبيح قتل الجنود الإسرائيليين من (غير اليهود) الذين سيشاركون في تنفيذ خطة فك الارتباط، وقالت صحيفة "معاريف" الإسرائيلية: "إن حاخامات يهود أصدروا فتوى جديدة يسمح من خلالها بإطلاق النار على جنود (دروز) وغير يهود ممن سيشاركون في عملية إخلاء المستوطنات"[٢].

ولم يتوقف الأمر عند حد تحريض الجنود الإسرائيليين، بل وجهت التحذيرات إلى المستوطنين الذين سيتم إخلاؤهم وفق خطة "فك الارتباط"، ففي الرابع عشر من يونيو ٢٠٠٤، أصدر بعض الحاخامات اليهود فتوى "تحرم الحصول على تعويض عن إخلاء المستوطنات، وهدد حاخامات (بيكوح نفش)[*] بمقاطعة من سيتصرف بما يخالف رأى التوراة ويحصل على تعويضات"[٣]. وأصدر رجال الدين اليهود في الضفة الغربية وقطاع غزة بيانًا وصفوا فيه إخلاء المستوطنات بأنه "جريمة ضد الإنسانية"[٤].

وهكذا، تبدو فتاوى هؤلاء الحاخامات المتطرفين وكأنها لم تتوقف عند حد التحريم والمنع، بل تتخطى حدود المعقول، وتدعوا إلى القتل والعنف وعدم تنفيذ الأوامر العسكرية، وتهديد المستوطنين بل وتكفيرهم. ووصل الأمر إلى وصول تهديدات بالقتل إلى "شارون" والوزراء الإسرائيليين عبر البريد، يذكرونهم فيها بمصير رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق "إسحاق رابين".

وفي الثالث عشر من فبراير ٢٠٠٥، بحثت الحكومة الإسرائيلية مخاطر هذه التهديدات

---

(١) עיתון מעריב، 11_1_2004

(٢)עיתון מעריב، 15_3_2004

(*) פיקוח נפש: جمعية أسسها بعض الحاخامات، وكان يتزعمها الآن الحاخام دوروكمان، ورئيسها الحاخام يوسيف جرليتسكى. وتدعوا الجمعية ظاهريًا إلى إحلال السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ولكنها تؤيد الاستيطان وترفض إخلاء المستوطنات، وقد توجهت إلى الرئيس الأمريكي "بوش" بطلب لإجهاض خطة "فك الارتباط".

(٣) עיתון הארץ، 26_9_2004

(٤) שם.

ومحاولات إحباط خطة شارون لفك الارتباط وأعرب عدد كبير من أعضاء الحكومة عن دهشتهم من انفلات مارد العنف والتهديد الكلامي ضد كل من لا يعارض "شارون". وأبدت الحكومة الإسرائيلية قلقها من احتمال وقوع عملية إرهابية أخرى ضد أحد المسئولين، نتيجة لزيادة الشعارات التي تكتب في المدن الكبرى هي تبارك قتل "شارون" وتعيد للذاكرة فتاوى الحاخامات حول (عقوبة) من يفرط في أجزاء من (أرض إسرائيل)، هي أودت بحياة "إسحاق رابين".

ومع ذلك، فلم تستطع الحكومة الإسرائيلية التحرك إزاء هذه التهديدات، حيث استمرت فتاوى الحاخامات اليهود ضد خطة "شارون" على أساس أنها تشكل خطرًا على مستقبل إسرائيل وأنها مخالفة لشريعة الرب، ولم يكن شغلهم الشاغل إلا محاولة إحباط خطة فك الارتباط، حتى اقتراح إجراء "استفتاء شعبي" حول الانسحاب من غزة قبل بالرفض، وعارضته حركة "شاس" حين طرح في الكنيست في الثامن والعشرين من مارس ٢٠٠٥، ففي "شاس" والكتل البرلمانية الحريدية يخشون من حيث المبدأ من إجراء استفتاء على أي شيء. وهو موقف تقليدي من الكتل البرلمانية الحريدية. فهم يخشون من أن يصبح الاستفتاء على قضية سياسية قاعدة لإجراء استفتاءات حول قضايا أخرى، مثل قضية تجنيد طلبة المدارس الدينية أو فتح المحال التجارية يوم السبت. وهى أمور يعتقدون في أن تبعاتها يمكن أن تضر بمصالح الجمهور الحريدى في المستقبل.

غير أن حركة "شاس" تقف ضد إخلاء المستوطنات وترفضه بكل قوة، فها هو "عوفديا يوسيف" الزعيم الروحي للحركة يصف شارون "بالكفر ويتمنى له الموت"[١]. وصرح الحاخام "يوسيف ديان" من مستوطنة "بسجوت" بأن موت "شارون" هو الأمل الأخير لإجهاض خطة "فك الارتباط"، كما أنه على استعداد لصب اللعنات عليه"[٢].

وهكذا، ومع تعاظم تهديدات المتطرفين والحاخامات اليهود، هي بلغت حد الإعلان عن نيتهم في مقاومة خطة الفصل بالسلاح، وتشجيع الرافضين للسكن في المستوطنات التي سيتم إخلاؤها، والتهديد بقتل "شارون" ليلقى مصير "رابين"، يبدو أننا أمام خلفية عقائدية عنصرية مغلقة تتبناها مجموعة من الحاخامات اليهود المتطرفين، إنها عقيدة يصعب زعزعتها أو حتى مناقشتها، فالبقاء في هذه الأرض هو واجب ديني مقدس، وهو أمر يؤكد

---

(١) עיתון הארץ، 10_3_2005

(٢) עיתון מעריב، 2_4_2005

عليه الكاتب والمحلل السياسي الإسرائيلي "رونى شاكيد" بقوله: "إن صعوبة إخلاء المستوطنين من غزة تكمن في خلفيتهم العقائدية، فهم يتعاملون مع (جوش قاطيف) على أنها أرض مقدسة منحهم الرب إياها، هي وغيرها من أراضى الضفة والقطاع، وكذلك إسرائيل تعتبر بالنسبة لهم أرض مقدسة، حرام عليهم إخلاؤها"[١].

ويؤكد "شاكيد" على أن المسألة جد خطيرة، لأن تأثير الحاخامات المتطرفين على المستوطنين كبير، ويضيف قائلاً: "يقوم مجلس حاخامات الضفة وغزة بحملة تحريض وتوعية داخل المستوطنات معلنًا اليوم أنه سيواجه عملية الإخلاء بالقوة، ولو أدى ذلك لإيداع أعضائه في السجن، مستندًا إلى فتاوى أصدرها حاخامات المستوطنين تقر بأن كل مستوطن عليه أن يموت قبل أن يغادر أرضه"[٢].

ووصل الأمر إلى محاولاتهم اقتحام المسجد الأقصى في العاشر من أبريل ٢٠٠٥ كمحاولة لإفشال خطة "فك الارتباط" ولإثارة الانتفاضة من جديد.

ويحمل الكاتب الإسرائيلي "ميخال كفرا" الحكومة الإسرائيلية السبب في المكانة التي احتلها الحاخامات اليهود وجماعتهم الدينية، حتى صاروا يؤثرون في المجتمع بكل قوة، ويعقدون المواقف ويصعدونها، فيقول: "هذا التمرد ليس الأول من نوعه، والحكومة تتحمل السبب، فمجرد السماح للمتدينين بعدم الخدمة في الجيش هو تدريب لهم على معصية قوانين الدولة وقراراتها، ولذا فهم يتمردون اليوم"[٣].

وتشير استطلاعات الرأي في إسرائيل إلى أن العدالة في إسرائيل متأرجحة بسبب الامتيازات التي يحظى بها المتدينون من منح خاصة لمدارسهم ومؤسساتهم، إضافة إلى إعفائهم من الخدمة في الجيش، في حين يكونون هم أول من يعصى القرارات السياسية للحكومة، وهو أمر من شأنه أن يحدث تمرد داخلي؛ ويشير بما لا يدع مجالاً للشك، إلى أن شوكة الحاخامات اليهود باتت تؤرق قرارات الحكومة الإسرائيلية، وتعقد الموقف، خاصة وأن مسألة الحوار أو المفاوضات أو الاتفاقيات مع الطرف الآخر من الصراع هو أمر مرفوض بالنسبة لهم، ويحرمه الرب حسبما جاء في التوراة (ولا تقيم معهم عهدًا). وهو فكر، أقل ما يوصف به، هو الجمود أو التيبس، لأن هؤلاء الحاخامات يبنون فتاواهم على مقتضيات لا تقبل المساومة أو التسوية.

---

(١) רוני שקד، עיתון ידיעות אחרונות، 15_3_2005

(٢) שם.

(٣) שם.

الخاتمة:

بناء على ما سبق من محاور لهذا البحث يمكننا أن نستخلص النتائج التالية :

١ـ تعد الأرض، موضوع (الصراع) بالنسبة للحاخامات المتطرفين في إسرائيل هي المطلق، وهي القيمة التي تجب كل القيم الأخرى، بما في ذلك حياة الإنسان اليهودي، أي أن الأرض بالنسبة للحاخامات المتطرفين أقدس من حياة الإنسان، وهم بذلك يخالفون بعض النصوص التوراتية التي تدعو لإعلاء قيمة الإنسان.

٢ـ تغلق هذه الفتاوى الطريق، بصفة عامة، أمام الحوار أو التفاوض، ومن ثم تبقى بيانًا متعصبًا بلا مضمون أو عدل، وتشكل عائقًا أمام حلول الصراع.

٣ـ يجند الحاخامات اليهود المتطرفين بعض النصوص الدينية التوراتية لخدمة نظرية يهودية قومية ضيقة الأفق، غير متسامحة، ومدمرة، وفي نفس الوقت هي نظرية تخضع للتفسير الموروث ذي البعد الواحد.

٤ـ تعد النصوص التوراتية أرضًا خصبة بالنسبة للحاخامات اليهود بصفة عامة، يجد فيها كل الحاخامات اليهود باختلاف توجهاتهم ما يخدم وجهة نظرهم السياسية تارة، ومصالحهم الحزبية أو الشخصية تارة أخرى.

٥ـ تشكل هذه الفتاوى وجدان النفسية الإسرائيلية التي تميل بطبيعتها إلى العدوان، وتمثل في النهاية إشكالية معقدة ومتشابكة تكمن وراءها خلفية عنصرية عقائدية، تتسبب في إهدار حقوق الإنسان وكرامته في الأرض المحتلة.

٦ـ تنبع خطورة هذه الفتاوى التي تحرض على القتل والعنف في التأثير على بعض الجنود والضباط الإسرائيليين الذين يعتبرونها نوعًا من الأوامر الشرعية واجبة الطاعة والتنفيذ في الحياة اليومية بالمناطق المحتلة، بما يعطى مفهوم (حرب إلهية أبدية).

٧ـ يستغل الحاخامات اليهود حالة "التدليل السياسي" للأحزاب الدينية من قبل الأحزاب العلمانية، خاصة الليكود والعمل، ويستصدرون، أحيانًا، فتاوى تعمل على تحقيق مصالحهم وتأمين ميزانيتهم اللازمة لتمويل المشاريع الدينية وكافة النشاطات الدينية الأخرى.

٨ـ يلاحظ أن أغلب الحاخامات اليهود ممن ينتمون إلى المؤسسة الحاخامية الرسمية في إسرائيل يصدرون فتاوى تخالف النهج السياسي للحكومة، وهذا يعنى أن هذه الفتاوى

قد تجيء في إطار لعبة السياسة وتوزيع الأدوار، أو أنها تستخدم كورقة ضغط ضد الحكومة لتحقيق مكاسب حزبية أو دينية.

٩- يستخدم بعض الحاخامات اليهود (الوعد الإلهي) بالأرض مقياسًا لدرجة إيمان الشعب اليهودي، فإيمانهم يقوم على الميثاق أو العهد الديني بين الرب وشعبه.

١٠- تعتمد الفتاوى اليهودية التي تدعو للعنف والقتل على نصوص توراتية بعينها، رغم أن العقيدة اليهودية تحتوى على جوانب إنسانية أيضًا، وكأننا أمام صياغة جديدة لـ "توراة جديدة" تحتوى فقط على مثل هذه النصوص المدمرة.

الفصل الثالث

توظيف النص الأدبي لحل الصراع على الأرض
دراسة في رواية (حمائم في ميدان ترافلجر)
للأديب الإسرائيلي (سامي ميخائيل)

توظيف النص الأدبي لحل الصراع على الأرض

دراسة في رواية (حمائم في ميدان ترافلجر)

للأديب الإسرائيلي (سامي ميخائيل)(*)

مقدمة:

اتخذ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي المستمر منذ عقود، أبعادًا جديدة في الرواية العبرية المعاصرة، ففي الوقت الذي عالج فيه بعض الأدباء الإسرائيليين مجموعة من القضايا الشائكة حول الصراع بين كلا الطرفين، تطل علينا رواية (حمائم في ميدان ترافلجر) التي صدرت في أبريل من عام ٢٠٠٥ للأديب الإسرائيلي "سامي ميخائيل"، لكي تكشف لنا عن تلك المناطق التي قد يتجاهلها بعض الأدباء الإسرائيليين في أعمالهم الأدبية، في تضع الأبناء فوق كل الأيديولوجيات والقوميات، وتحاول الإجابة عن أسئلة أخلاقية ملحة، وتنقب في الواقع الحقيقي للصراع الفلسطيني الإسرائيلي وتكشف عن الوجه الآخر منه،

(*) سامي ميخائيل: ولد سامي ميخائيل في بغداد عام ١٩٣٦ وقد حصل على تعليمه الابتدائي والثانوي فيها وانتمى إلى الحزب الشيوعي العراقي في سن مبكرة. ثم هرب إلى إيران عام ١٩٤٨ بسبب مطاردة السلطات العراقية له على نشاطه الشيوعي. ومن هناك هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤٩ واستقر في حيفا والتحق بالجامعة فيها فدرس علم النفس والأدب العربي. " ثم أصبح أحد أعضاء رئاسة تحرير الاتحاد الناطقة باسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ونشر العديد من القصص العربية القصيرة في مجلته الجديدة الشهرية تحت اسم سمير مارد، وكانت تدور حول حياة القادمين الجدد من العراق. وقد ترك ميخائيل هيئة تحرير الاتحاد عام ١٩٥٥ وبعدها هجر اللغة العربية. " حيث تحول ميخائيل إلى الكتابة باللغة العبرية. وعن هذا التحول من العربية إلى العبرية يقول ميخائيل: "بعد قدومي إلى إسرائيل جابهت وضعًا لا يطاق قرأت بالإنجليزية وتحدثت بالعبرية وفكرت وكتبت بالعربية. استمرت هذه الفترة ست سنوات. في تلك الأيام عملت في هيئة تحرير إحدى المجلات الأسبوعية العربية. لغتي العربية الأدبية تطورت في إسرائيل والحاجز الذي بيني وبين اليهود في إسرائيل ارتفع وعلا. وصارت اللغة حدودًا صلبة وراسخة وأدركت أنني ملزم بإنهاء هذه الحيرة والتخبط، كنت ملزمًا بالتخلص من اللغة العربية". أما أهم أعمال ميخائيل فلسفي: "متساوون ومتساوون أكثر" ١٩٧٤ عاصفة بين النخيل "رواية ١٩٧٥. أكواخ وأحلام" ١٩٧٨، "حفنة من ضباب" ١٩٧٩، "رعاية" ١٩٨٥، "بوق في وادي" ١٩٨٧، "فكتوريا" ١٩٩٣. وقد نال ميخائيل عدة جوائز أدبية مثل: جائزة بلدية حولون جائزة بلدية بتاح تكفا، جائزة الاتحاد الدولي لأدب الشباب.

وتتمركز حول روافد جديدة من المواجهة الفلسطينية الإسرائيلية، وتحذر من تداعياتها بالنسبة للأجيال القادمة.

وقد أثارت هذه الرواية ردود فعل قوية على الساحة الأدبية في إسرائيل، وأحدثت سجالاً واسعًا بين النقاد، فيما يتعلق بصلتها برواية الأديب الفلسطيني "غسان كنفاني" (عائد إلى حيفا) ١٩٧٠ والتي تتشابه أحداثها مع رواية ميخائيل، وهو الأمر الذي جعل ميخائيل يدافع عن نفسه قائلاً: "لقد انتهيت من كتابة هذه الرواية الجديدة، وهى رواية تواصل ما انتهت إليه رواية كنفاني، ذلك الأديب الفلسطيني الذي اغتيل في السبعينيات ببيروت على أيدينا. ففي رواية كنفاني تنتهي القصة بلقاء صعب بين البطل وأبيه العربي، حيث يؤكد البطل على هويته بأنه يهودى، وتلك هى أمه وذلك هو أبوه، فيرد الأب: سوف يكون لقاؤك بأخيك في المعركة القادمة. ولكنني أبدأ من هنا من تلك النقطة التي انتهى إليها كنفاني "[1].

وقد ذكر ميخائيل أنه كتب هذه الرواية من أجل الأمومة فقط فقال:

"تعبر روايتي هذه عن وجهة نظر الأم تجاه الصراع، فالصراع عند كنفاني صراع رجولي لا يعرف الجانب الأمومي، فهناك رجلان يدخلان في مواجهة، في حين أن الأمهات يتنصرفن بنوع من البلاهة، ولا توجد في روايته ولو بقية من الحب لدى الابن، في حين أن روايتي هذه تعبر عن الأمومة، والأم في الرواية هي التي تقوم بالاتصال بالابن وترعاه وينفطر قلبها لحظة لقائه بأبيه. لقد أراد أبوه أن يمحيه من حياته، بينما هي لم تتنازل عنه، لقد انحزت في الرواية إلى الأم أكثر من أي شخصية أخرى"[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا سوف نتناول هذه الرواية بالدراسة والتحليل، بعيداً عن أحداث رواية كنفاني، وبصرف النظر عما كانت تتشابه أحداثها مع أحداث تلك الرواية أم لا؟ فما يهمنا في المقام الأول، هو رؤية ميخائيل للصراع والمواجهة، لا سيمًا وهو أديب إسرائيلي تختلف رؤيته، بالطبع، عن رؤية كنفاني، خاصة وأن كل منهما ينتمي للطرف الآخر من المواجهة.

قصة الرواية (عرض مختصر):

تحكى رواية (حمائم في ميدان ترافلجر) عن بطل يعانى طوال الوقت، إنه "زئيف

---

(١) עומר כרמון : סמי מיכאל، 2005/ 5/ 28، www.nfc.co.il

(٢) דליה כרפל : סופר תחת השפעה، עיתון הארץ ، 2005/ 4/ 13 .

ابشتاين" ذلك الفتى الإسرائيلي الذي عاش كيهودي في أحضان المجتمع الإسرائيلي الأشكنازى سنوات طوال، وفجأة يتضح أنه عربي فلسطيني تركته أسرته العربية قسرًا وهو طفل صغير تحت وطأة أحداث حرب ١٩٤٨، لتأخذه أسرة يهودية وتتبناه حتى يصير رجلاً ناضجًا لديه زوجة إسرائيلية وطفل صغير. وبعد ما يقرب من عشرين عامًا، يلتقي هذا البطل بأسرته العربية الحقيقية وهو بذي العسكرية الإسرائيلية. ويحدث هذا اللقاء نقطة تحول عظيمة في حياة هذا البطل، الذي ظل طوال حياته في رحلة بحث طويلة عن هويته الحقيقية.

ويرتبط "زئيف" بأمه البيولوجية "نبيلة" وتصير بينهما علاقة وثيقة وقوية، ولكنه في نفس الوقت؛ لم يتخل عن أمه اليهودية "ريفاه"، التي ربته كيهودي وتركت له حرية الخيار في تحديد هويته، تمامًا مثلما فعلت أمه الحقيقية "نبيلة". وتقف زوجته الإسرائيلية "عانات" موقفًا متشددًا من هويته العربية، وهو نفس الموقف الذي تبنته أخته الفلسطينية "سناء" من هويته الإسرائيلية. أما أخوه الفلسطيني "كريم" فقد اتفق تمامًا مع موقف أمه بالنسبة لأخيه اليهودي.

وفي نهاية مأساوية، يلقى هذا البطل حتفه هو وأخوه الفلسطيني ـ وكل منهما يدافع عن الآخر ـ على أيدي مجموعة من الشباب الفلسطينيين الثائرين ضد إحدى الغارات الإسرائيلية التي استهدفت مدنهم، ظنًا منهم بأنه إسرائيلي.

ويمكننا أن نلاحظ هنا أن دلالات الأسماء التي اختارها ميخائيل للأبطال، في هذه الرواية، قد تشير إلى معاني عديدة نستطيع من خلالها أن نستشف مقصد الكاتب من اختيار هذه الأسماء بعينها، في ترمز إلى واقع الصراع الذي يعيشه الطرفان، فاختياره مسمى "زئيف" للبطل قد يعنى أن البطل تعامل مع الواقع الذي ساقه القدر إليه بعيني الذئب التي لا تنام إحداهن، وكأنه وقع في فخ الصراع الذي لا ينتهي ويتربص به، فهو خائف من مصيره، لاسيما وهو يعيش بهويتين تتصارع كل واحدة منهن مع الأخرى. كما كان اختياره مسمى "نبيلة" للأم العربية يعنى أن هذه الأم تخلت عن التطرف في الصراع واختارت النبل، نبل الإنسانية، الذي يحتم على الإنسان أن يرتقى بالبشر وينأى بهم عن المخاطر أي كانت، فاختارت نبيلة أن تحافظ على ابنها حتى ولو كان يهوديًا فذهبت إليه واحتضنته، لا سيما وهو ضحية من ضحايا الصراع الذي صنعه الآباء بأنفسهم، كما حاول ميخائيل أن يوضح.

أمـا اختيار مسمى "ريفاه" للأم اليهودية، وهو من الفعل العبري רב بمعنى (خاصم - اختـصم مـع)، يعنى أن هذه الأم اليهودية في حالة خصومة مع الأم العربية التي ستأخذ منه ابـنها بالتـبني، خاصـة وهى عاقر لم تلد من قبل، فقد ساق إليها القدر "بدر" أو "بدير" الـذي تحـول إلى "زئيف"، وربما يعنى هذا الاسم أنه البدر الذي ينشده الجميع حتى يسطع ويغير من أوجه الصراع الذي طال أمده.

وفـى حقـيقة الأمـر، لم يكـن هدف ميخائيل من هذه الرواية هو رصد لواقع الصراع وأثـاره فحسب، فلم يعنيه القضايا الشائكة الممتدة عبر عقود عديدة منذ بدء الصراع، بقدر مـا هـي محاولـة للتحذير من تداعيات هذا الصراع على المستويين النفسي والاجتماعي لكلا الطـرفين، حـيث يقـول أحـد الـنقاد الإسـرائيليين: "تحمـل هذه الرواية الكثير من الرؤى المتعددة، فالقصة الإسرائيلية، وكذلك الفلسطينية هما قصة واحدة يعيش فيها شعبان بهوية واحـدة؛ هـي الألم واليـتم فحـسب... إن زئيف البطل هو نموذج، سواء أكان شخصية عـربية أم يهـودية، يـتطلب مـنا اسـتيعابه ليبقـى السؤال: إلى أي مدى تتشابه دماء البشر؟ لاسـيما وقـد جـاءت شخـصية الـبطل لتمثل خيطًا رفيعًا بين شعبين؛ ولكنه خيط صامت ومـؤلم يعـرض في النهاية التطلع الخطر لتوحيد أو دمج السمات لكلا الشعبين، وهو تطلع يشكل في الواقع طمسًا للهويتين معًا"[1].

ويقول الناقد الإسرائيلي يورام ملتسر في معرض تناوله لهذه الرواية: "يمكننا قراءة هذه الـرواية مـن زاويـتين: الأولى، علـى أنهـا قصة إنسانية معقدة، ومؤلمة، وغامضة؛ ومليئة بالـشكوك، وفى إطار أنها قصة ميلودرامية مثيرة. والثانية، على أنها بحث تناظري في واقع الـصراع بين الشعبين... لقد نجح ميخائيل في السير على حبل رفيع، بين ما هو معقول في عين القارئ وبين الواقع المزعج، دون أن يقطع الحبل أو يقع من عليه"[2].

ويمكنـنا هنا؛ من خلال ما سبق، أن نعرض لأبرز القضايا التي تناولها ميخائيل في هذه الرواية من خلال المحاور الآتية:

أولاً: الانعكاس الحقيقي لواقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي:

حـاول ميخائـيل في هـذه الـرواية أن يرصد الواقع الحقيقي للصراع وتداعياته على كلا

---

(١) יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، וואלה- תרבות ובידור، 2005/5/23،
www.walla.co.il

(٢) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל، עיתון הארץ، 2005/5/18.

الطرفين، كما لو أنه يبعث برسالة مهددة لطرفي الصراع؛ ويسمو بالأمهات الثكالى اللاتي يضعن أبنائهن فوق كل الأيديولوجيات، وينظرن للصراع من مفهوم الإنسانية فحسب. لقد أعطى ميخائيل معنى جديدًا للثكل والألم والضحايا والحروب المتواصلة دون جدوى. ويمكننا، أحيانًا، ملاحظة أن هذه الرواية بلا ظالم أو مظلوم، في مرآة للإسرائيليين، كما يقول النقاد في إسرائيل، يرون فيها كيف تكون الأحاسيس الفلسطينية متساوية تمامًا مع الأحاسيس الإسرائيلية عندما يحل الغضب والانتقام المتبادل محل الحوار والمصالحة، لاسيما وقد امتلأت صفحات الرواية بدماء الإنسانية من كلا الطرفين في رصد حقيقي لتداعيات الصراع من ثكل وعنف وضحايا وإغلاق للمناطق واعتقالات وعمليات فدائية ورد فعل غاضب من كلا الطرفين.

وقد بدت تداعيات هذا الصراع، كما صورها ميخائيل في المظاهر التالية:

(١) الثكل:

استهل ميخائيل صفحات روايته بالتعبير عن صدمة المجتمع الفلسطيني من فقد الأبناء والأزواج، فيطالعنا القاص بحصد لأرواح الرجال الفلسطينيين من قبل الأجهزة الأمنية في إسرائيل:

"اغتال عملاء إسرائيليون، منذ سنوات، زوج نبيلة، أبا سناء وكريم. كما أنهت رصاصات يهودية طائشة حياة زوج سناء وهو جالس في إحدى المقاهي"[(١)].

وفي تعبير آخر عن حالة الثكل التي يعاني منها المجتمع الإسرائيلي كتداعيات لذلك الصراع المستمر، يفقد سعدون كل أبنائه في دوامة الصراع المستمر ويشبهه القاص بأيوب:

"فقد سعدون كل أبنائه فوزي وسالم ويوسف... إنه أب يفكرنا بأيوب"[(٢)].

وهكذا، يرصد ميخائيل تداعيات الصراع لدى الجانب الفلسطيني، فيكاد لا توجد أسرة فلسطينية إلا وقد فقدت واحدًا أو أكثر من رجالها، فالموت يتربص بالبشرية في كل مكان وفي كل زاوية:

"هنا، يلقى الرجال حتفهم يوميًا، فالموت لدينا يتربص بالحياة في كل زاوية"[(٣)].

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، הוצאת ספרים עם עובד، תל אביב، 2005، (עמ' 11).

(٢) שם، (עמ' 52: 54).

(٣) שם، (עמ' 151).

لقد أرهق الثكل الجميع، وجعلهم يتربصون بالأمل في الغد، ولكنهم يتشككون في واقع الغد، في ظل صراع مزمن لم تخمد شعلته بعد:

"فالبشر يتجولون من بلد لآخر، وفي أيديهم شعلة الثكل المطفاة، يراودهم الأمل في الغد، وهم يسمعون الأحداث المروعة التي تحدث في الواقع، في ساحة المواجهة، وقد بدا الآباء الثكالى في هذا الخضم، ، وهم يجلسون على مسرح الأحداث كالأشباح"[1].

ولم يفرق الموت بين كبير وصغير ففي غارة إسرائيلية استهدفت ناشطين فلسطينيين تلقى أم حتفها هي وأطفالها الخمسة:

"لقد قتل معهما أثنى عشر شخصًا من عابري الطريق، من بينهم أيضًا أم وأطفالها الخمسة"[2].

كما تفقد أسرة البطل كل رجالها:

"لم يتبق رجال في هذه الأسرة، لقد ماتوا جميعًا، ربما هذا هو قدر الإنسانية"[3].

وهكذا عكس ميخائيل ما تعانيه الأسر الفلسطينية من ثكل وفقد للرجال والأبناء، بسبب هذه الغارات الإسرائيلية التي تستهدف الفلسطينيين الأبرياء، فلم تفرق بين كبير وصغير. فأم تفقد أطفالها الخمسة؛ وأسرة تفقد كل رجالها. لقد خلف الصراع والعنف المزيد من الألم والحسرة، وتعبأت النفوس بالثأر والكراهية ليدور الطرفان في حلقة مفرغة من العنف والثكل.

ولعلنا نلاحظ هنا أن ميخائيل يرصد واقعًا حقيقيًا يحدث يوميًا على الساحة الفلسطينية؛ وهي ممارسات وحشية يتلذذ بها الجندي الإسرائيلي في حالة غريبة حار فيها علماء النفس في تفسيرها؛ ولكننا يمكننا إرجاعه إلى طبيعة النشأة التي حرص الآباء الإسرائيليون في غرسها في الطفل الإسرائيلي، سواء في البيت أو المدرسة، مما خلق شخصية إسرائيلية تتسم، بصفة عامة، بروح العنف التي تربت عليها منذ صغرها، ولم تفرق بين كبير وصغير، ولكنها تمارس العنف لمجرد العنف.

وهو أمر يفسره الدكتور قدري حفني بقوله: " تسود روح العنف في نفسية هذه الشخصية كتعبير عن طاقة مكبوتة، وعن ظروف وقعت أسيرة فيها. وروح العنف يمكن

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، הוצאת ספרים עם עובד، שם، (עמ'186-185).

(2) שם، (עמ'254).

(3) שם، (עמ'٢٦١).

الإحساس بها كقوة تحريرية كتنفيس عن طاقة مكبوتة، لتخفف من نير العبودية التي لم يعد ضغطها محتملاً، كانعتاق، كتحرير "[1].

" وهو هنا يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه، ومن ذاته الطفيلية الهامشية. إن العنف يصبح هنا مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أفرادها إلى سن الرجولة، فحينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديراً بالحياة"[2]. وهو وضع ساهمت فيه عوامل كثيرة، من أحداث تاريخية ورغبات قومية أسبغت على الشخصية الإسرائيلية منذ صغرها حتى تتناسب مع طبيعة الصراع ومتطلبات كل مرحلة.

أما الشخصية الفلسطينية فإن مارست العنف فهي تمارسه كرد فعل فحسب، فهي تدافع عن نفسها وعن أرضها التي اغتصبت، وضد الممارسات الوحشية الإسرائيلية على أرضها. واستطاعت من خلال ممارستها للعنف المضاد والمشروع أن تؤثر في الجانب الإسرائيلي؛ رغم تفوقه في القوة والسيطرة.

فعلى الجانب الآخر من الصراع، وفى تناظر مستمر، يعبر ميخائيل عن تداعيات هذا الصراع من ثكل لدى المجتمع الإسرائيلي أيضًا، كما لو أنه يضع المجتمعين على قدم المساواة في مسألة الثكل والعنف، وهو أمر فيه غبن للجانب الفلسطيني، إذا وضعنا في الاعتبار فارق القوة التي هي لصالح الجانب الإسرائيلي، والحق المسلوب الذي يبحث عنه الجانب الفلسطيني. وإذا كان ميخائيل يحاول في روايته هذه أن يبحث أو ينقب في تداعيات الصراع فحسب، دون البحث في إشكاليته، فإن هذا التناظر يشكل في الحقيقة تسطيحًا للصراع ومساواة في الحقوق بين الطرفين.

فيطالعنا القاص بنبأ مقتل افرايم ابشتاين، الأب، في حرب سيناء، كتعبير عن حالة مماثلة من الثكل، يعانى منها المجتمع الإسرائيلي أيضًا:

" عندما بلغ زئيف الثامنة من العمر، سقط افرايم ابشتاين في حرب سيناء. ريفاه وزئيف أمعنا النظر في النعش المغطى بعلم إسرائيل، في الوقت الذي كان جنود من وحدته

---

(١) د. قدري حفني: دراسة في الشخصية الإسرائيلية - الأشكنازيم، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس ١٩٧٥.، (ص ٢٥٩).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص ١٨٤).

في حرب سيناء يصوبون بنادقهم إلى السماء لتنطلق منها طلقات الرصاص التي أرعبت زئيف"[1].

وربما نلاحظ هنا أن سقوط الأب جاء في حرب غير عادلة، حيث اجتاحت إسرائيل سيناء في حرب ١٩٥٦، في حرب تمثل عدوانًا واحتلالاً لأرض عربية. ولكن ميخائيل يعرض هنا الشكل فحسب دون التدقيق في أسباب الحرب، وتطلعات الجانب الإسرائيلي التي دائمًا ما تأتي على حساب الأرض العربية.

وفي مشهد آخر، يطالعنا القاص بمقتل أحد الإسرائيليين على أيدي عامل كان يعمل في محله:

"صب أدهم جام غضبه على أبو حصوه، فانهال على ظهره بالسكين، فسقط غارقًا في دمائه بين دجاجه"[2].

ويفقد أحد جيران زئيف ابنه الوحيد على أيدي مجموعة مسلحة من الناشطين الفلسطينيين:

"لقد فقد المسكين ابنه الوحيد"[3].

وفي إشارة إلى العمليات الفدائية التي يقوم بها الناشطون الفلسطينيون داخل إسرائيل، يلقى ثمانية إسرائيليين مصرعهم في عمليتين متعاقبتين:

"عاشت إسرائيل يومًا عصيبًا. لقد انفجرت عبوة ناسفة في سوق الكرمل، ووصل عدد القتلى إلى ستة إسرائيليين. وبعد مرور عدة ساعات حدث انفجار آخر في المحطة الرئيسية بعفولا أودى بحياة اثنين آخرين"[4].

ويشير ميخائيل في روايته هذه، إلى أن الموت لم يرعب هؤلاء الفلسطينيين الذين يفجرون أنفسهم كما لو أنهم في شوق دائم إليه:

"لقد وقف أقوى جيش في الشرق الأوسط لا حول له ولا قوة أمام أعداء يتطلعون في شغف إلى القتل والموت. فلم تصنع بعد رصاصات أو قنابل من شأنها أن ترعب منتحر"[5].

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'31).
(٢) שם، (עמ'127).
(٣) שם، (עמ'159).
(٤) שם، (עמ'179).
(٥) שם، (עמ'179).

وبعيدًا عن كلمة "منتحر" هنا التي تعبر عن ظلم تاريخي لشعب يناضل من أجل وطنه، فإن ظلم آخر يجتنبه ميخائيل في حق الفلسطينيين الذين وصفهم بالأعداء، وتطلعهم إلى القتل في شغف، "بيد أن الجمود السياسي، مع ذلك، يحول هذا الظلم من حادثة فردية حادة وذات أبعاد تراجيدية إلى وضع مزمن يولد يوميًا أشكالاً جديدة من الظلم، وهي الأشكال التي قرر ميخائيل أن يلقى عليها نظرة مباشرة وفاحصة"(١).

ولعلنا نلاحظ هنا مديح غير مقصود من جانب ميخائيل لتلك العمليات التي يقوم بها هؤلاء الناشطون الذين لم ترعبهم قوة، فهم يموتون من أجل غاية نبيلة وهي الوطن السليب. ولعلنا نلاحظ أيضًا تحيز ميخائيل للجانب الإسرائيلي لاسيما وأنه يلقب الفلسطينيين بالأعداء وبالمتحرين، رغم أنه يبدو وكأنه يعرض الشكل في مساواة بين الجانبين، وهو تناقض يظهر مدى انحيازه لطرف دون الآخر. وإذا كان هذا أمرًا طبيعيًا على اعتبار أنه أديب إسرائيلي، فإن الإنسانية وحق الإنسانية التي كتب من أجلها هذه الرواية. كما يقول، ربما يقصد بها الجانب الإسرائيلي فحسب، رغم اعترافه بأن كلا الجانبين وقعا في فخ الانتقام والقتل:

"لقد وقع الفلسطينيون والإسرائيليون في دوامة القتل والانتقام"(٢).

وهو تحيز يمكن التأكيد عليه من خلال وصفه للعرب بأنهم يتغزون على ثقافة العنف التي تجرى في دمهم، وكأنهم يكرهون الحياة فحسب، وكأنهم غير مسلوبي الحقوق والأرض أو غير محتلين:

"إنهم لم يكرهوا الحياة فحسب. إنهم يكرهون أي شئ تنبعث منه رائحة الحضارة، إنني أعرفهم جيدًا مثلما أعرف كف يدي. إذ إنني جئت من الشرق الأوسط. إنهم لن يستريحوا حتى يقضون على كل اليهود. فشهوة العنف تجرى في دمهم"(٣).

هذه الكلمات التي جاءت على لسان إحدى الشخصيات في الرواية تبدو وكأنها كلمات تنبعث مباشرة من ميخائيل نفسه، لاسيما وهو من أصل عراقي، أي من هذا المكان من الشرق الأوسط، وعلى دراية واسعة بخصائص وسمات الشعوب العربية التي وصفها بأوصاف مغلوطة بعيدة تمامًا عن الحقيقة، لاسيما وأنه يعرف طبيعة البيئة التي جاء منها.

---

(١) יפעת וייס: שיבה בהמשכים، יונים בטרפלגר، עיתון הארץ(עמ'2). ، 2005/ 5/ 18.

(٢) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'179).

(٣) שם، (עמ'181).

ففي لقاء أجرى معه في صحيفة הארץ الإسرائيلية يقول ميخائيل: "عندما أنظر إلى نفسي، أجدني هذا الطفل الذي تركته أسرته العربية، فقد نشأت في أرض عربية، وكانت لغة أمي هي العربية، وبعد طيران استمر عدة ساعات وجدت نفسي في إسرائيل وبهوية أخرى، حتى الإسرائيليين ينظرون إلى على إنني جئت من (هناك) ـ أحمل معي إرث ولغة وعادات العدو"[1].

وتعبيراً عن حالة الشكل التي يعانى منها المجتمع الإسرائيلي من جراء العمليات التي يقوم بها الفلسطينيون، تمتلئ صفحات الرواية، بمثل هذه العمليات:

"وقع بعد ذلك انفجار في إحدى الشوارع التجارية الصاخبة، وترامت الجثث على أبواب المحلات، كما تناثرت الأعضاء في كل اتجاه"[2].

ولعلنا نلاحظ هنا التصوير الدقيق لتداعيات العمليات التي يقوم بها الفلسطينيون، كما لو أنه يحاول أن يرسم صورة تدمي القلوب في وصفه للجثث والقتلى الإسرائيليين، وهو ما لم يفعله في معرض تناوله للعمليات العسكرية الإسرائيلية، التي تتسم بالوحشية والقسوة ضد الفلسطينيين. فهو كما استعرضنا، يكتفي فقط بذكر عدد القتلى والجرحى، في حين أنه يرسم المشهد كاملاً وبمبالغة مفرطة على الجانب الإسرائيلي.

كان موت الأخوين اليهودي والفلسطيني في نهاية الرواية تعبيراً عن حالة الشكل التي تجتاح المجتمعين على حد سواء، وتعبيراً عن تداعيات الصراع على المستوى النفسي. فالبطل الذي يحمل الهويتين معًا يلقى حتفه وهو في طريقه إلى أمه الفلسطينية المريضة، التي استنجدت به، فهرع إليها وهو يستقل سيارته الفارهة التي تحمل لوحات معدنية إسرائيلية، وتعترضه مجموعة من الشباب الفلسطينيين وتعتدي عليه، ظنًا منهم أنه إسرائيلي، فيخرج أخوه الفلسطيني "كريم" ليدافع عنه، فيلقى الاثنان حتفهما على أيدي هؤلاء الشباب الفلسطينيين:

"يا ست نبيلة، يا أم كريم... لم أر في حياتي مثل هذه التضحية. لقد دافع كريم عن ذلك اليهودي، عن أخيه، و لقيا الاثنان حتفهما"[3].

وهكذا، نجد أن البطل، الذي يعد نبراس الشكل الفلسطيني الإسرائيلي، يسوقه

(١) דליה כרפל: סופר תחת השפעה، שם، (עמ'4).

(٢) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'253).

(٣) שם، (עמ'259).

ميخائيل إلى الموت في نهاية الرواية، بعد أن نجح في أن يحب أسرتيه العربية واليهودية، كما لو أنه يبعث برسالة مهددة لكل الأمهات بأن يحافظن على أبنائهن من دوامة الصراع.

"لقد أرسل ميخائيل، في نهاية الرواية، الأخوين اليهودي والفلسطيني إلى الموت. ورحل الاثنان وكل منهما يدافع عن الآخر.. إنها نهاية مذهلة.. كما لو أنه يريد أن يقول لنا: إن علاقة الدم أقوى من الدين والقومية، وأنه من الممكن أن نسمو، بسهولة، بأنفسنا فوق كراهية السنين التي يفقد فيها الرجال؛ ويزداد فيها النساء الثكالى، هؤلاء النساء اللاتي عليهن أن يصنعن السلام باسم الأمومة وباسم العقل والحكمة"[1].

وتعلق الناقدة الإسرائيلية ياعيل بنيني على هذه النهاية بقولها: "لقد وصلت التراجيديا إلى ذروتها عندما حاول زئيف أن يصل إلى أسرته في رام الله، وهو يستقل سيارته ذات الهوية الإسرائيلية. ووصلت التراجيديا إلى ذروتها عندما حاول الأخ الفلسطيني أن يدافع عن أخيه زئيف في مواجهة غضب جموع الشباب الفلسطينيين خشية أن يمثلون به"[2].

ويؤكد الناقد الإسرائيلي "يورام ملتسر" على أن هذه النهاية جاءت كرسالة مهددة لكلا الطرفين، وكتحذير من الوضع الذي آل إليه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي:

"تتركنا هذه الرواية مع استنتاجات واضحة ومتشائمة فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي. فكلا الطرفين يتعانقان عناقًا مميتًا، مثل الذين يعيشون فوق بركان، مهما فعلوا أو امتلكوا، لن يستطيع أحد منهم تغيير حقيقة أن نهايتهم محسومة مع انفجار هذا البركان... فالكارثة تخلف وراءها كارثة على التوالي حتى يصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى مساواة كاملة، ولكن عند موتهم فقط"[3].

أما انطوان شلحت فيرى أن هذه النهاية المأساوية تعبير واضح عن وضع معوج مازال يعيشه الطرفان، حيث يقول: "جاءت هذه النهاية لكي تعبر عن ذلك الواقع المعوج الذي مازلنا نعيشه حتى هذه اللحظة"[4].

(٢) مشاعر الكراهية والعنف:

تركت تداعيات هذا الصراع المستمر منذ عقود أثارها النفسية على كلا الجانبين، فكان

---

(١) כשהיונים מתייפחות، מערכת עיתון תלאביב، ספרות، 2005/ 5/ 28 . www.tam.co.il/13_5_2005/tarbutsifrut.

(٢) יעל פניני : יונים בטרפלגר، 2006/ 5/ 23، www.gfn.co.il .

(٣) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל، שם.

(٤) אנטואן שלחת: מפגש ישן ـ סיפור חדש، עיתון האר״ן، 2005/ 5/ 24.

للأحداث التاريخية المتعاقبة وقعها المرير، بحيث حمل كل طرف مشاعر الكراهية والغضب تجاه الطرف الآخر، عبر عنها ميخائيل من خلال ما يحدث في المناطق الفلسطينية المحتلة من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلية على الجانب الفلسطيني، وما يحدث في إسرائيل من عمليات يقوم بها النشطاء الفلسطينيون.

لقد حمل اللقاء الأول الذي جمع بين زئيف البطل، ووالديه البيولوجيين مرارة الأيام ومشاعر الغضب والكراهية التي تجلت في أعين والديه، وهما ينظران إليه وهو يرتدى بزته العسكرية الإسرائيلية، تلك العسكرية التي اغتصبت الأرض والولد:

"دخل زئيف إلى حجرة الاستقبال الصغيرة وتجمد في مكانه... كان يرتدى زي الجيش الإسرائيلي... فتوجهت إليه ريفاه قائلة بالإنجليزية: ها هما والداك الحقيقان. للأسف، نسيت اسمهما"[1].

كان مشهد اللقاء ينذر بصدام بين الأب والابن، حيث "كانت الإنجليزية وزي الجيش الإسرائيلي بمثابة حائلاً حقيقيًا بينهما"[2].

كما أن مشاعر المرارة والكراهية كانت طاغية لدى والدين يران ابنهما على هذه الصورة، لاسيما وهو لقاء لمَ يكن به عناق أو قبلات بين والدين فلسطينيين يعيشان تحت نيران الاحتلال الإسرائيلي وبين ابنهما (الجندي العسكري).

وكانت نتيجة الحوار الذي دار بالإنجليزية بين زئيف وأبيه الفلسطيني، كافية لانفجار شحنة الغضب والكراهية في وجه الابن الذي أكد لأبيه على إخلاصه لهويته اليهودية:

"سألته نبيلة ألا يشعر بأنها أمه... فأجاب: لا، لم أشعر بذلك، ريفاه التي تجلس هنا، هي أمي"[3].

فما كان من الأب الذي أسود وجه من السخط والغضب إلا الوعيد لهؤلاء الذين اغتصبوا أرضه وولده، موجهًا حديثه إلى ابنه:

"سيكون لقاؤك القادم مع أخيك في ساحة القتال"[4].

"لقد أخذوا منا طفلاً فلسطينيًا، وأعادوه جنديًا صهيونيًا كريهًا. هذا كل ما حدث"[5].

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'47).

(٢) שם.

(٣) שם، (עמ'49).

(٤) שם، (עמ'50).

(٥) שם، (עמ'54).

وفي تعليق لها على هذا اللقاء الذي تأججت فيه مشاعر الكراهية والعنف تقول الناقدة الإسرائيلية شيرا عنبر : "كانت الجمل التي تبادلها الأب مع الابن باللغة الإنجليزية ذات طابع عنيف وعدواني . والسبب في ذلك ، أن الأب كان على يقين بأن زئيف مازال مخلصًا لهويته اليهودية . لذا ، فقد أقسم بأن يحارب اليهود حتى يقضى عليهم ، وأعلن في تحد أن أخويه ، سناء وكريم ، سوف يلتقيان بزئيف في ساحة المعركة ، وهناك سينتصران عليه "[١] .

وكان مشهد واحد من حرب ١٩٤٨ كافيًا لحفر مشاعر الكراهية في نفوس الأباء والأمهات وهم يرون أطفالاً يموتون جوعًا وقتلاً :

"كانت هذه الحرب واحدة من تلك الحروب التي وصلت حتى بيروت في الجبهة الداخلية . وقد رأيت بنفسي ، في تلك الأيام ، كثيرًا من الأطفال وقد تركوا في فراشهم ، وفي الحقول ، ورأيتهم وهم يلقون من المركبات . وكثيرًا منهم بكوا حتى الموت وهم بجوار جثث أمهاتهم "[٢] .

وتجلت مشاعر العنف على لسان "سناء" أخت زئيف الفلسطينية ؛ التي فقدت زوجها وأباها ؛ وتيتم أطفالها بفعل الممارسات الوحشية للجيش الإسرائيلي من غارات وتصفية وإغلاق للمناطق وتمشيط للمنازل :

"الله يحرقكم يا يهود ، الله يخرب بيتكم "[٣] .

وعلى الجانب الآخر من الصراع ، كانت مشاعر الكراهية والعنف بمثابة غذاء يطعم به الأطفال الإسرائيليون منذ نشأتهم ، وغناء يتغنون به في الحدائق وفى رياض الأطفال :

"(تو . . تو . . تو . . كل العرب يموتوا) هكذا كنت أغنى مع الصبية في روضة الأطفال "[٤] .

ولم يكن الأدب العبري الإسرائيلي بمنأى عن غرس ثقافة الكراهية في نفوس الأطفال تجاه العرب :

"لقد تشكل وعيه من خلال ثقافة كاملة منظمة ، انبثقت من أدب الأطفال ودراسات نخبة من المؤرخين والأكاديميين "[٥] .

---

(١) שירה ענבר : על יונים וזאבים ، 2005/ 12/ 17 ، www.bariqada.co.il .

(٢) סמי מיכאל : יונים בטרפלגר ، שם ، (עמ' 41) .

(٣) שם ، (עמ' 93) .

(٤) שם ، (עמ' 42) .

(٥) שם .

وكانـت المظاهـرات وإطـلاق الرصاصـات في الهـواء مـن مظاهر التعبير عن الكراهية والغضب لدى الطرفين :

" كـان زئـيف يـشاهد الـتلفاز ، فـرأى كـيف كانت ردود الفعل غاضبة . فقد أطلقت الأعيرة النارية في الهواء ، وأحرقت الأعلام "[1] .

ومـا بـين سجال العمليات الفدائية والغارات الإسرائيلية تبدو مشاعر الكراهية في فرح كل طرف عند سقوط قتلى في صفوف الآخر :

" كثيرون من اليهود لقوا حتفهم . . . برافو ، صرخ سهيل "[2] .

ويحاول ميخائيل أن ينقب في أسباب هذه المشاعر تجاه الإسرائيليين :

" أعـط للاجـئ الفلـسطيني مـصدر رزق ، وملاذًا ، وقتها ربما ينسى قليلاً من كراهيته وتطلعه للانتقام "[3] .

وفي تناظـر مـستمر علـى مـدار الـرواية تتـسبب العملـيات الفدائـية الـتي يقـوم بهـا الفلـسطينيون في تـأجج مـشاعر الغـضب والكـراهية لدى الجانب الإسرائيلي ، شأنها شأن الغـارات الإسـرائيلية ، وكأن ميخائيل بصدد عقد مناظرة بين مشاعر الجانبين التي يـأججها ذلك الصراع المستمر :

" لم يدرك زئيف أن للفاجعة ساعات محدودة ، بعدها تجدها في حاجة إلى الانتقام الذي هو آت لا محالة "[4] .

وهكـذا ، يمكننا القول إن مشاعر الغضب والكراهية كانت سجالاً بين الطرفين ، فعلى الـرغم مـن رصـد ميخائـيل لهـذه المـشاعر علـى مدار روايته هذه ، فإنه لم يضع في اعتباره اخـتلاف الواقـع الفلـسطيني عـن نظيره الإسرائيلي ، ذلك الواقع الذي يعيش القهر والذل والـبحث عـن الحقوق المسلوبة ، واقع الأرض المغتصبة ، والأب المفقود ، والأم الثكلى . إن وضع المشاعر الفلسطينية على قدم المساواة مع المشاعر الإسرائيلية فيه غبن وتغييب للحقوق الفلسطينية ، إذا وضعنا في الاعتبار الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون ، وفارق القوة الرهيب لصالح الجانب الإسرائيلي ، ومماطلة إسرائيل بالنسبة لوضع اللاجئين الفلسطينيين .

---

(١) סמי מיכאל : יונים בטרפלגר ، שם ، (עמ'98) .

(٢) שם ، (עמ'111) .

(٣) שם ، (עמ'157) .

(٤) שם ، (עמ'253) .

وهـو أمر تؤكد عليه شيرا عنبر بقولها : "إن الواقع الذي تعيش فيه نبيلة مختلف تمامًا، فهـي تعيش في بيتها الواقع تحت نيران الاحتلال، مع ابنتها التي ترملت، وابنها الذي تركته زوجـته، ومـع حفيدها المسكين . . . إن الاحتلال لم يعط لهم الفرصة للعيش حياة عادية، فقـد أصبح الغلق والتمشيط والاعتقالات أمرًا عاديًا في المناطق . فمثل هذا الوضع من شأنه أن يـزرع الكـراهية في قلـوب أبـناء الأسـرة، وخاصـة سناء أخت زئيف التي قتلت قوات الاحتلال الإسرائيلي زوجها وأصابتها بالمرارة "[1].

وهـو اختلاف لم يعيه ميخائيل، أو ربما كان يعيه وتجاهله فكتب روايته هذه كدعوة إلى نـسيان الماضـي الألـيم طالبًا الجانبين التحلي بشجاعة النسيان، حيث يقول : "إنني آمل أن تـساعد هذه الرواية في مداواة جروح طرفي الصراع، حيث إنني لم أتطرق في هذه الرواية إلى المعـضلات الكـبيرة والمؤلمة لكـلا الـشعبين . . . لقـد تبنـيت في هـذه الرواية شعار الأديب والـشاعر الـيهودي التركـي موريس فرحي وهو (شجاعة النسيان) . إنني أقول ذلك في كل المؤتمـرات الـتي يشارك فيها ممثلون من الجانبين : (هيا ننسى الماضي من أجل مستقبل أفضل لأبنائنا وأحفادنا) "[2].

(٣) صورة "الآخر" في الرواية :

يمكننا، بداية، أن نقول بأن هناك الكثير من الرؤى والتعريفات للآخر من قبل العلماء والباحـثين، "فـإذا حاولنا أن نعرف ما هو (الآخر) فيجب أن ندرك أولاً أن هناك ثمة تلازم بين مفهوم (صورة الذات) ومفهوم (صورة الآخر) واستخدام أي منهما يستدعى ـ تلقائيًا ـ حضور الآخر . ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يـتم وفقًا لها تشكل كل منها . فصورتنا عن ذاتنا لا تكون بمعزل عن صورة (الآخر) لدينا، كما أن كل صورة للآخر تعكس ـ بمعنى ما ـ (صورة الذات) وهذا التلازم بين الصورتين قد أبـرزته أعمـال العلمـاء النفـسيين والاجتماعـيين الـذين اهـتموا بالقـضايا المتصلة بالذات وبالآخر "[3].

ومـن هـنا يمكنـنا القـول : "إن (الآخـر) قـد يكـون أحـد الأفراد وقد يكون جماعة من

---

(١) שירה ענבר : על יונים וזאבים، שם، (עמ'2) .

(٢) דליה כרפל : סופר תחת השפעה، שם، (עמ'4) .

(٣) د . فتحي أبو العينين : صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي، مجلة القاهرة، العدد (١٣١)، أكتوبر ١٩٩٣ (ص ٩٢) .

الجماعـات أو أمة من الأمم. (فالآخر) قد يكون قريبًا وقد يكون بعيدًا. وقد يكون صديقًا وقد يكون عدوًا. وقد يكون عدوًا نفكر في أنسب الوسائل للتعامل معه "[١].

غـير أن هـناك حقـيقة رئيـسية لا يمكـن أن نغفلـها ونحـن بـصدد الحديث أو التعريف (بالآخـر) وهـى أن (الآخر) يكون – دومًا- ثنائية نفى أو نزاع مع (الذات) تختلف باختلاف دوافع وتطور هذه الثنائية، وتختلف أيضًا باختلاف المصالح والأحداث والأهداف.

" فالآخـر مـن خـلال وحـدات القبـيلة والأمة - ومرورًا باللغة- هو من وجهة نموذجية مثالـية طـرف نفـى أو نـزاع، ولكن هذه الثنائية مرت في الفكر وفى الواقع التاريخي بمراحل مختلفة وتخللها وسائط كثيرة تنوعت معها المسافات بين (الذات) و(الآخر) "[٢].

وهكـذا، يبقى (الأخر) - دومًا- صورة تعكسها (الذات) كيفما تشاء، وهى صورة قد تكـون بعـيدة عن الواقع وقد تكون قريبة، فالمحك الرئيسي في التقاطها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بعلاقـة (الـذات) - الـتي تعكس هذه الصورة- مع (الآخر)، وبحالة هذه العلاقة من حب أو كـراهية أو نـزاع؛ أو رغبة في النفـي مـن قبل عدو يعرقل نمو (الذات) فما من (الذات) إلا تغييب هذا العدو أو ذلك (الآخر).

وفي إطـار جدلـية العلاقـة بـين (الـذات) و(الآخـر) عكـس ميخائـيل صـورة الآخـر (الفلسطيني) في هذه الرواية وهو يرتبط بحالة من النزاع مع الذات (الإسرائيلية)، وهى حالة تاريخـية ممـتدة عـبر عقـود عديـدة، اتخذت فيها صورة الآخر (الفلسطيني) أشكالاً ونماذجًا عديـدة، ارتـبطت بـرغبة (الـذات) الإسـرائيلية في نفـى أو إثبات هذا الآخر طبقًا لمجريات الصراع وتطوره.

ويمكنـنا أن نحـدد الـصورة الحقيقـية الـتي رغـب ميخائـيل في عكـسها عـن الآخـر (الفلسطيني) في اللحظة التي عرف فيها بطل الرواية "زئيف" أنه عربي، تلك اللحظة التي يمكـن من خلالها التعرف عن المكنونات الحقيقية المخزونة في وعى (الذات) الإسرائيلية عن الآخر (الفلسطيني):

" إذن، لم أكـن أبـدًا ابـشتاين، قالهـا لنفـسه، ولم أكن ابنًا لإحدى الأسر الناجية من الحدث النازي، ولم أكن أوروبي الأصل. إنني عربوش، مجرد عُربوش "[٣].

---

(١) د. شاكر عبد الحميـد: الـذات والآر في عملية الإبداع، مجلـة سطـور، ديسمبر ١٩٩٦، (ص٦٣).
(٢) الطاهـر لبـيب: الآخـر العربـي بـين الفـرد والجمـع، نـدوة (صـورة الآخر)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، الحمامات / تونس ١٩٩٣، (ص١٣٨).
(٣) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 42).

هكـذا، نقلـته هـذه اللحظـة ـ لحظـة معـرفة الحقيقة ـ من الذات (الإسرائيلية)، ومن المجـتمع الاشـكنازى المـتمدن والمتحـضر، كمـا يقـول القـاص إلى الآخر بصورته المعروفة والمخزونة في وعيه كإسرائيلي، تلك الصورة التي شكلت وعى جيل كامل من الإسرائيليين تجـاه الفلسطينيين، فكلمة "عربوش" لفظة تعبر عن الصورة الوضيعة والمتدنية التي رسمها الفكر الصهيوني عن العرب، وهى الصورة التي جاءت كنتاج لموروث ثقافي وتاريخي صيغ في إطار محاولة تغييب الآخر (الفلسطيني) ونفيه، وهو أمر يؤكد عليه الناقد الإسرائيلي ب. الموج بقوله:

"فجـأة، وجـد زئـيف نفسه غير منتمى للجيل الثاني من أحداث النازي. . . بل هو منتمـى للجـيل الثانـي مـن النكـبة الفلسطينية. ويحكى القاص هنا، كيف كان زئيف يغنى أغانـي معاديـة للعـرب، وكـيف كـان يصورهـم كمخلوقات وضيعة، وخائنين، وقذرين وبدائـيين، تمامًـا كمـا صورتهم كتب الأطفال الإسرائيلية التي قرأها في صغره، ودراسات المـؤرخين الـتي درسـها في كبره. ففي اللحظة التي أدرك فيها أنه عربي انتابه شعور بالتقزز من نفسه"[١].

تـرى؛ مـا هـي الـصورة الـتي استدعاها "زئـيف" عـن الفلـسطينيين، لحظة معرفته للحقيقة؟ وعكسها القاص في تلك الرواية، إنها هكذا:

"العربـي مخلوق وضيع وحاك مؤمرات. والأكثر من هذا، وطبقًا للفلكلور الشعبي؛ فـإن العربـي الحـسن هـو العربي الميت فقط، وفيما عدا ذلك، فالعرب خائنون ومحتالون. وهـم علـى استعداد لبـيع أمهاتهم من أجل حفنة ذهب، إنهم عرابيش قذرون وبدائيون، إنهـم نـسل عـديم الأخـلاق يعـيش علـى الـسلب والنهب، فالعرب يضاجعون البهائم، ويغتصبون الشقراوات، ويقتلون بناتهم"[٢].

تلـك هـي الـصورة الـتي اسـتدعاها زئيف حين عرف أنه عربي، وتساءل كيف أكون كـذلك، وقـد تـشكل وعيه ووجدانه من خلال تلك الصورة التي تعلمها في المدرسة وتغنى بها في روضة الأطفال:

"عـربوش، تـو تـو تـو، كـل العـرب يموتـوا، هكـذا كان يغنى مع الصبية في روضة

---

(١) ב. אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל، 2006/ 1/ 5، hptt://stage.co.il/stories.

(٢) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'42).

الأطفال. إنها ثقافة منظمة وشاملة، استقاها من أدب الأطفال ومن دراسات نخبة من المؤرخين الأكاديميين وشكلت وعيه "[١].

"فليمح اسمهم وذكراهم من الوجود، فهم يتكاثرون مثل الحشرات ويسممون الهواء"[٢].

ويطالعنا القاص برأيه في النساء العرب، فهم عاهرات يبعن شرفهن بأبخس الأموال:

"إنهن مستعدات للمضاجعة من أجل فلس أو اثنين"[٣].

ويجيء ميخائيل بصفة أخرى حديثه على الأدب الإسرائيلي المعاصر، ويضمها إلى قاموس الصفات الذي صاغه الأدباء الإسرائيليون عن الآخر (الفلسطيني)، وهى صفة (إرهابي)، وقد جاء بها لتحل محل (مخرب) التي اعتاد الأدباء العبريون إطلاقها على العرب في الماضي، في إشارة إلى العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الفلسطينيون دفاعًا عن أرضهم وحقوقهم ووطنهم، في خلط واضح لمفهوم الإرهاب ومفهوم المقاومة:

"ماذا لو عرفوا، أنه عربي ابن عربي، إنه مشروع إرهابي، وحش قاتل كسائر أبناء شعبه"[٤].

وعلنا نلاحظ أن هذه الصورة التي نعت بها ميخائيل الآخر (الفلسطيني) في روايته هذه، تتناقض تمامًا مع الهدف الذي كتب من أجله هذه الرواية، وتتناقض أيضًا مع الواقع العربي الذي عاش فيه ميخائيل، لاسيما وأنه من أصل عراقي، فهذه الرواية صدرت في أبريل من عام ٢٠٠٥، ولا يعتقد أحد أن العرب على هذه الصورة التي جاءت لكي تساير فقط الصورة النمطية الشائعة لدى الأدباء الإسرائيليين عن العرب في إطار مسألة تحقير الآخر ونفيه بل وتغييبه حتى يسهل التعامل معه والانتصار عليه.

وعلنا نلاحظ أيضًا أن نماذج الشخصيات الفلسطينية التي جاء بها ميخائيل تؤكد على هذا التناقض الذي وقع فيه، فالأسرة العربية محور الصراع مع الطرف الآخر، تنتمي إلى الطبقة البرجوازية، فالابن "كريم" يعمل مهندسًا، والابنة "سناء" تعمل طبيبة، والأم "نبيلة" ناشطة في مجال السلام والحوار بين الشعوب، وتتجول بين الدول لنشر مفهوم

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'42).

(٢) שם، (עמ'181).

(٣) שם، (עמ'125).

(٤) שם، (עמ'70).

الحوار والمصالحة، وذلك بعد أن تعلمت الإنجليزية وصارت داعية للسلام من أجل ابنها، كما أن هذه الأسرة تعيش في منزل جميل ورائع بنى على أحدث طراز في المعمار، حيث تطلب الأم من الخادمتين أن يقمن بأعمال النظافة من باب المنزل حتى الحديقة:

"من باب الدخول وحتى مظلة العنب في حديقة المنزل"[1].

كما التقى زئيف البطل بكثير من رجال الأعمال العرب:

"كثيرًا ما التقى طوال حياته برجال أعمال عرب"[2].

وإمعانا في هذا التناقض الذي وقع فيه ميخائيل، نجد أن العرب في هذه الروية؛ هم أيضًا مثقفون يقرأون الأدب العربي:

"منذ عام، اشترى له عبد الوهاب هدية عبارة عن جزئين كبيرين من إحدى كتب الأديب المصري الكبير، يوسف إدريس، الذي أصبح بالنسبة له أهم الأدباء العرب في القرن العشرين"[3].

كما أن أطفال العرب يجيدون استخدام الحاسوب، كما ذكر القاص في الرواية:

"كان سهيل ونهاد يكثرون من اللعب، كعادتهم، بألعاب الحاسوب"[4].

وهكذا، يتضح التناقض الذي وقع فيه ميخائيل في وصفه للآخر (الفلسطيني) الذي حرص على أن يلقبه؛ على مدار الرواية؛ بـ (العربي) وليس بـ (الفلسطيني)، رغبة منه في تغييب الفلسطينيين ونفيهم، شأنه شأن بقية الأدباء الإسرائيليين، فليس من المعقول أن تنطبق هذه الأوصاف البدائية على مثل هذه النماذج التي أتى بها في وصفه (للآخر)، ولكنه هنا يخضع إلى متطلبات "الأنا الجمعي" وليس "الأنا الفردي"، أي أنه وإن كان على قناعة بأن هذه الأوصاف السلبية تتعارض مع الواقع الذي عاشه ومازال يعيشه، إلا أنه لا يستطيع أن يكون في منأى عن الصفات الشائعة للآخر (العربي) في الأدب الإسرائيلي الذي وضع الصفات العربية الإيجابية بجوار السلبية.

وهى حقيقة يؤكد عليها كثير من العلماء، حيث "هناك نظريات في النقد الأدبي ترى أن العمل الأدبي ما هو إلا وثيقة اجتماعية ثقافية، تعبر، سواء بصورة مباشرة أو غير

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'95).

(٢) שם، (עמ'140).

(٣) שם، (עמ'141).

(٤) שם، (עמ'145).

مباشرة، عن (الأنا الجمعي) وليس بالضرورة عن (الأنا الفردي). وبمعنى آخر، فإن الأديب الفرد هو جزء من كل أيدلوجي، لذا فإنه يعبر عن الأنا (الجمعي) الذي هو جزء منه وينتمي إليه "[1].

وهو أمر يبدو واضحًا في جدلية المتناقضات التي وقع فيها ميخائيل في وصفه للآخر. الذي يعي تمامًا من هو؟ وأي قضية يدافع عنها؟ لاسيما وأنه من أصل عراقي وعاش مع العرب في العراق وفلسطين فترة طويلة وعلى دراية واسعة بسلوكياتهم وأوصافهم، ومن هنا فلا نستطيع أن نتقبل منه مثل هذه الأوصاف السلبية التي يدرك تمامًا أنها منافية للحقيقة، وقد نقبل هذا (مع التحفظ الشديد) من أديب إسرائيلي من أصل اشكنازى لم يعش معهم بل نقل أوصافهم عن منظومة أدبية منظمة ومرتبة لخدمة قضية بعينها، وبهدف واضح يستهدف الآخر، ولكنه أبى أن يكون في منأى عن هذه المنظومة الأدبية وتلك الإرادة الجمعية، حتى وإن تعارض ذلك مع فكرته الأساسية التي كتب من أجلها هذه الرواية.

" وانطلاقًا من ذلك فإنه يمكن اعتبار النص الأدبي، أي نص، ليس نتاجًا مستقلاً من أديب فرد يعمل بإلهام ذاتي، كما ينظر إليه عادة من منظور الفكر الرومانسي، بل هو في الأساس تعبير عن إرادة جمعية. ووفقًا لهذا التوصيف، فإن أي فرد يملك مستوى من الوعي المعرفي يفوق الوعي الفردي، يبرز في إنتاج رموز فردية مصغرة، تهدف أساسًا إلى نقل آمال وتطلعات ومشاكل الأنا الجمعي، عبر رموز محددة. وبالتالي فإنه يمكن القول إن استقلالية الأديب ما هي إلا استقلالية جزئية فقط "[2].

وفي تصورنا لهذه الجدلية المتناقضة في هذا العمل الأدبي "حمائم في ميدان ترافلجر"، وفي إطار مفهوم أن العمل الأدبي هو أداة لنقل رسائل أيديولوجية، فإن ميخائيل نقل واقعين، هما واقع الحياة الفلسطينية الحقيقية، والذي جاء في نماذج الشخصيات المتحضرة، كما جاءت في الرواية، وواقع الثقافة الأيديولوجية الموجودة في فكر وخيال الإسرائيليين فقط تجاه حقيقية الشخصية العربية والفلسطينية، وهى ثقافة هادفة لا تعتمد على الواقع في شيء وإنما تستهدف فقط تهميش وتغييب الطرف الرئيسي في الصراع حتى لا يكون ندًا قويًا من شأنه أن يزعزع الركائز أو الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، لاسيما وأنه يشكل في النهاية حائلاً أمام هذه الأهداف ويعوق تحقيقها.

---

(١) د. أحمد حماد: أيهود بن عيزر، صورة العربي في الأدب العبري - في وطن الأشواق المتناقضة، ترجمة: د. أحمد حماد، دار الحمراء للنشر، بيروت، ٢٠٠١، (ص١٨)- (مقدمة المترجم).

(٢) نفس المرجع.

ثانيا- فكرة المصير المشترك لطرفي الصراع:

حرص ميخائيل منذ بداية أحداث روايته على تعميق فكرة المصير المشترك بين طرفي الصراع من خلال عقد تناظر مستمر بين الجانبين، في محاولة تأصيل فكرة أن كلا الطرفين لهما حق العيش على هذه الأرض التي ساقهما القدر إليها، فجاءت روايته "كنوع من الفانتازيا التي تدور حول عالم جميل يعيش فيه الذئب مع الحمل، دون أن يكون واضحًا من هو الذئب ومن الحمل... كما حاول ميخائيل أن يعطى للقارئ انطباعًا بأنه متوازن ومخلص، وحرص على عرض الحقائق واضحة حول الإنسانية، على اعتبار أن القضية بلا ظالم أو مظلوم. فقد جاء اليهود، ممثلون في ريفاه الناجية من أحداث النازي، إلى هذه الأرض دون أن يكون أمامهم خيار آخر، بينما طرد العرب من بيوتهم بمنتهى الوحشية"[1].

وحملت شخصية زئيف البطل هذه الفكرة، وجاءت لكي تمثل خيطًا رفيعًا بين شعبين، ولكنه صوت صامت ومؤلم يعرض في النهاية محاولة لتوحيد سمات الشعبين؛ وتطلع من قبل ميخائيل، لعيش الشعبين تحت مظلة الفدرالية الواحدة، بادعائه أن هذا الصراع لم يكن صراعًا بين ظالم ومظلوم، ولكنه صراع الطرفين ضد القدر الذي أوجدهما معًا في قارب واحد.

"فهذه الرواية تتركنا مع استنتاجات واضحة ومؤلمة فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، فكلا الشعبين يتعانقان عناقًا مميتًا، مثل الذين يعيشون فوق بركان، مهما فعلوا أو امتلكوا أو عرفوا الأسباب والدوافع لن يكن في مقدورهم تغيير الحقيقة التي تقول إن نهايتهم محسومة مع انفجار هذا البركان"[2].

وربما يفسر لنا هذا، أن ميخائيل يعرض في هذه الرواية واقع الصراع فحسب دون أن ينقب في إشكالياته أو أسبابه ودوافعه، فقد كان هدفه الرئيسي هو تحذير وتعرية للواقع، وهو أمر فيه تسطيح للواقع والصراع ويثير، في نفس الوقت، تساؤلات عديدة حول الهدف الرئيسي الذي سعى إليه ميخائيل وكتب من أجله هذه الرواية.

وجاء لنا ببطل حمل على عاتقه قضية شعبين متصارعين، "فعندما علم زئيف بحقيقة أنه

---

(١) כשהיונים מתייפחות، שם.

(٢) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל، שם.

ابن لوالدين فلسطينيين، وقتها فقط حمل على كتفيه حملاً مزدوجًا وغير محتمل تقريبًا "[١].

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نعرض هنا لأبرز مظاهر فكرة المصير المشترك، كما جاءت في هذه الرواية، في النقاط التالية:

(١) القدر التاريخي:

حرص ميخائيل خلال روايته هذه، أن يضع طرفي الصراع كضحية للقدر التاريخي الذي ساقهما إلى هذا المصير، حيث يرى أن هذا الصراع لم يكن صراعًا بين حق وباطل؛ ولكنه صراع بين حق وحق، فكلا الطرفين لهما حق العيش على هذه الأرض. وقد حاول ميخائيل أن يعرض لهذا من خلال شخصية البطل الذي حمل في نفسه كل أنواع الضحايا لكلا الطرفين، من خلال تناظر مستمر بين طرفي الصراع يمكننا أن نعرض له في النقاط التالية:

(أ) النكبة / أحداث النازي:

قابل ميخائيل النكبة الفلسطينية وأحداث حرب ١٩٤٨، التي تعرض فيها الفلسطينيون لموجة من الطرد والتهجير من أراضيهم، بما حدث لليهود في أحداث النازي، أي أنه قابل النكبة الفلسطينية بالنكبة اليهودية (مع التحفظ الشديد لاستخدام هذا المصطلح)، حيث يتضح من أحداث الرواية أن أسرة "زئيف" من الناجين من أحداث النازي، بينما أسرته العربية من الأسر التي نجت من النكبة الفلسطينية:

"كان زئيف ابنًا للجيل الثاني الذي يمثل أحداث النازي بالنسبة لليهود، والنكبة بالنسبة للفلسطينيين "[٢].

وتحكي الأم العربية اللحظات المروعة التي فقدت فيها ابنها الصغير "زئيف/ بدير" وهو في فراشه إبان أحداث حرب ١٩٤٨، فتقول:

"حدث ذلك في حيفا عام ١٩٤٨. كان طفلي نائمًا في فراشه، وفجأة، وفي لحظة واحدة، انقلب العالم في الخارج، حيث امتزجت أصوات القنابل بصرخات البشر، وخرجت لاستوضح الأمر، فجرفتني جموع البشر المنهمرة مثل الطوفان، ولم استطع العودة فأخذت أمزق في لحم هذا البشر الذي كان يدفعني، ولكني لم استطع العودة إلى طفلي "[٣].

---

(١) יעל פניני: יונים בטרפלגר، שם.

(٢) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'28).

(٣) שם، (עמ'21).

وعلى الجانب الآخر، يحكى صديق الأسرة اليهودية "شمايل" لحظات الهروب المروعة للأم اليهودية إبان أحداث النازي:

"رأيتها بنفسي تخرج من هناك، في حالة يرثى لها، كانت عبارة عن هيكل عظمى ممزق، تسير وهى حافية على أرض متجمدة، وتحت سماء تمطر ثلجًا، من خلفها عتمة ومن أمامها ظلمة حالكة. لقد كانت مثل عصفور مفقود يجود بأنفاسه الأخيرة في صحراء شاسعة"[1].

وهكذا، دفع ميخائيل بشخصيات روايته في اتجاه القدر التاريخي، الذي تعرض له كلا الطرفين، فالأم الفلسطينية دفعت الثمن لظلم تاريخي محدد كنتيجة لحرب عام ١٩٤٨، وتحول ذلك الظلم من حادثة فردية حادة وذات أبعاد تراجيدية إلى وضع مزمن يولد يوميًا أشكالاً جديدة من الظلم. ويقابل ميخائيل هذا الظلم التاريخي بظلم آخر تعرضت له الأم اليهودية، وهو أحداث النازي التي تركت أثرًا كبيراً في نفسية "ريفاه" الأم اليهودية العاقر التي تبنت الطفل العربي "بدير"، وأطلقت عليه اسم "زئيف"، وهى تمثل جيلاً بأكمله عاصر تلك الأحداث ونجا منها، أي أن الطرفين ضحية ظلم تاريخي وقع عليهما، وترتب عليه أبعادًا تراجيدية عانى منها الطرفان.

وربما يجدر بنا القول بأن ميخائيل أخطأ هنا عندما ساوى بين الحدثين، فأحداث النازي لم تغتصب أرضًا لليهود، ولم تهجرهم من بيوتهم في حين أن النكبة الفلسطينية تختلف تمامًا عن هذا الحدث الذي وقع لليهود، ففيها تم تهجير آلاف الفلسطينيين من أرضهم، وأبيدت قرى بأكملها واغتصبت أرضًا من شعب عاش عليها آلاف السنين.

كما أن صياغة الأمر على هذا النحو يعد غبنًا وتسطيحًا للصراع ينطوي عليه تساو في مصير تاريخي لا شأن للفلسطينيين به، ومن ثم ضياع للحقوق الفلسطينية المغتصبة.

(ب) مقتل الأبوين:

وفى محاولة للتأكيد على القدر التاريخي الذي لاحق الطرفين على مدار الزمن، حاول ميخائيل أن يبرز ضحايا الصراع في الحروب والعنف، وكأنهم يشاركون في صياغة خطة الصراع الذي لا ينتهي، والذي يلقى بظلاله على الأبناء الذين فقدوا آباءهم، فقد راح الأبوان اليهودي والفلسطيني ضحية العنف، وبقى "زئيف/ بدير" البطل وحيدًا يحصد ثمار

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 61_60).

العنف والحروب، حيث قتل الأب اليهودي في حرب سيناء، بينما كان زئيف في الثامنة من عمره:

"قتل أفرايم أبشتاين . . . في حرب سيناء، وكان زئيف وقتها قد أكمل الثامنة من عمره"(1).

أما أبوه الفلسطيني "رشيد" فقد قتله الموساد وهو جالس في إحدى المقاهي:

"منذ سنوات قام عملاء إسرائيليون بتصفية رشيد زوج نبيلة وأبا سناء وكريم، وهو جالس في المقهى"(2).

وهكذا، كان مقتل الأبوين محاولة لوضع الحقوق الفلسطينية على قدم المساواة مع الحقوق الإسرائيلية، إن كان هناك حقوق. وهى محاولة لم يجتنبها الكثير من الصواب حتى وإن كانت بهدف التحذير من استمرارية الصراع على هذا النحو، لا سيما وقد كان الأب اليهودي ضحية لحرب استعمارية قام بها الجيش الإسرائيلي من أجل احتلال أرض الغير، أما أبوه الفلسطيني فقد قتله الموساد، وهو يدافع عن أرضه المغتصبة، وعن وطنه السليب، ومن ثم فإن مساواة من هذا النوع تأتي أيضًا في إطار تسطيح الصراع، وتغييب الحقوق الفلسطينية الواضحة.

(ج) الأسرتان الفلسطينية واليهودية:

وفي إطار القدر التاريخي الذي حاول الكاتب تعميقه في هذه الرواية، يجر ميخائيل طرفي الصراع إلى حوارات غير ممكنة بل ومستحيلة، وهى محاولة جعلته يصيغ هذا الحوار بين أسرتين إحداهما يهودية والأخرى فلسطينية. وحتى يستقيم هذا الحوار، ظهرت الأسرة الفلسطينية في ندية واضحة بالنسبة للأسرة اليهودية، وهى ندية تتناقض تمامًا مع الصورة النمطية السلبية التي أسبغها ميخائيل على العرب الفلسطينيين، كما بينا سابقا.

فالأسرة اليهودية تنتمي إلى المجتمع الإسرائيلي الإشكنازى وتعيش في ضاحية "دانيا"، أما الأسرة الفلسطينية فهي تنتمي إلى صفوة المجتمع الفلسطيني المثقف والغنى، ولا ينتمي أفرادها إلى الأسر الفقيرة التي تعانى من فقر الحياة في المناطق المحتلة. وعلى الرغم من أنهم يعانون من مضايقات الاحتلال، فإنهم ينتمون إلى أسرة برجوازية، فالابن

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם،

(2) שם، (עמ' 11).

مهندس، والابنة طبيبة، والأم ناشطة تجول العالم وتعقد المؤتمرات من أجل المصالحة والحوار بين الشعوب، وكان الأب الفلسطيني مثقفًا ويتحدث الإنجليزية.

من هنا، فقد حاول ميخائيل التأكيد على أن طرفي الصراع كانا ضحية للقدر التاريخي وللأحداث العاصفة التي ساقتهما إلى هذا المصير، دون أن يمتلك شجاعة الاعتراف بالحق المسلوب من أحد الطرفين، وكأنه يدفع شعار (النسيان)، نسيان التهجير والقتل والدمار الذي لحق بالفلسطينيين، باسم الفيدرالية الواحدة، التي يمهد لها من خلال هذه الفكرة. فكرة المصير المشترك والقدر التاريخي، دون أن ينقب في دوافع الصراع وأسبابه، حتى إننا نجده يدير حوارًا آخر في الرواية بين العدوان الإسرائيلي على المناطق المحتلة وبين الأعمال الفدائية الفلسطينية في إطار منظومة الفعل ورد الفعل، دون أن يعترف أو حتى يمتلك من المصداقية الأدبية، شجاعة الاعتراف بحق مغتصب وبوطن سليب.

ولعلنا نؤكد أيضًا على أن هذا السجال الذي يدور بين العدوان الإسرائيلي والعمليات الفدائية الفلسطينية، كما بينا سابقًا، لم يكن منصفًا أو عادلاً، حتى يمكننا القول بأن الشكل هو نبراس الحياة اليهودية الإسرائيلية كما حاول أن يبين، لأن هناك فارقًا كبيرًا بين "العدوان" و"الدفاع عن الوطن"، ولكنه سجال جاء به ميخائيل رافعًا شعار (الإنسانية) بهدف التنقيب في تداعيات الصراع على الإنسانية فحسب، ولكنه يقصد إنسانية طرف دون الآخر.

(٢) الأم (الأرض الآمنة للعنصر البشرى):

اتخذ الأدباء الإسرائيليون، أو البعض منهم في كثير من الأعمال الأدبية، من المرأة رمزًا للصراع على الأرض، فقد تصارع "عيسو" و"يعقوب" على الأرض الممثلة في "ليئة" في رواية "عيساو" لمئير شاليف. وكانت "المرأة الزانية" رمزًا لأرض فلسطين التي تناوب عليها واطئوها من الأتراك والإنجليز والرومان وغيرهم في فترات مختلفة من التاريخ بحيث لا يمكن القطع بالحق التاريخي لليهود في فلسطين كما جاء في رواية (رواية روسية) لمئير شاليف أيضًا. والمرأة كانت كذلك أيضًا في رواية (مولخو) لابراهام بيت يهوشواع.

أما المرأة في هذه الرواية، فقد كانت رمزًا للأمن والأمان، في رمز للأرض الآمنة التي تحتضن البشر وتسمو بهم، "فقد خصص ميخائيل روايته هذه لكل الأمهات، الأرض الآمنة للعنصر البشرى. . . فهي قصيدة مدح للأمهات الصامدات، وللأمهات اللاتي

يضعن أبناءهن فوق كل الأيديولوجيات . إنها قصيدة مدح لريفاه الناجية من أحداث النازي، تلك الأم التي تبنت بدير، الذي ترك في فراشه وهو طفل صغير . إنها أيضًا قصيدة مدح لنبيلة، تلك الأم الفلسطينية، التي قاتلت من أجل أن تعيد إليها ابنها البكر الذي تبنته الأسرة اليهودية "[1].

ومن هنا، فتبقى "الأمومة هي الأمل، والمشاعر، والإخلاص . . . فقد صاغت الأم البيولوجية نبيلة علاقة حميمة مع ابنها (اليهودي)، ورأت أن كلا الطرفين وقع منهم قتلى سواء داخل المجتمع الفلسطيني أو داخل المجتمع الإسرائيلي، ومن هنا صارت العلاقة بينها وبين زئيف وطيدة وقوية "[2].

لقد دفع ميخائيل، في هذه الرواية، بالأمومة التي تتخطى الأيديولوجيات والقوميات من أجل الأبناء، رافعًا نداء الإنسانية، فلم يكن هناك حدود للحب باسم الأمومة، سواء بالنسبة للأم اليهودية أو الأم الفلسطينية، فلم تحاول إحداهما أن تنأى بزئيف عن الأخرى، حيث طغت الأمومة على كل شئ. ولكي ينجح ميخائيل في ذلك، جاء لنا بامرأة يهودية عاقر نجت بأعجوبة من أحداث النازي والتقطت "بدير" وحولته إلى "زئيف"، وبذلت قصارى جهدها في تربيته حتى صار رجلاً إسرائيليًا ناجحًا . وفي إطار فكرة المصير المشترك، جاء لنا أيضًا بأم فلسطينية فقدت ولدها وعاشت ما يقرب من عشرين عامًا على أمل اللقاء به حتى نجحت في ذلك . وهو أمر يؤكد عليه الموج معلقًا على دور الأمومة في هذه الرواية بقوله :

"إننا نلتقي في هذه الرواية بأمين متعنتين في حبهما لابن واحد، فرق التاريخ بينهن، ولم تكن لدى إحداهن رغبة في الفوز به دون الأخرى، بل أغدقت كل واحدة منهن بحب وفير على هذا الابن، وهو الحب الذي تحطمت من أجله الحدود لديهن، كما وصفه ميخائيل بنفسه "[3].

ويطالعنا القاص في الرواية بالعلاقة الوطيدة التي ربطت بين "زئيف" وأمه اليهودية التي كرست حياتها من أجله :

"بذلت ريفاه قصارى جهدها في تربية زئيف . . . حيث كانت ريفاه، التي تعيش الآن

---

(١) כשהיונים מתייפחות، שם .

(٢) יעל פניני : יונים בטרפלגר، שם .

(٣) ב . אלמוג : ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל، שם، (עמ'3) .

في مؤسسة اجتماعية، تخشى عليه من متاعب الحياة التي ألمت بها. لذا، فقد بذلت ما في وسعها من أجل تربيته "[1].

ومن جانبه كان زئيف مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا بعد أن فقد أباه اليهودي في حرب سيناء، فكان يقول:

"لم يستطع أحدنا أن ينفصل عن الآخر... فقد كانت بالنسبة لي، هي الأم والسكن والأسرة"[2].

وهكذا، كانت الأم اليهودية بالنسبة لزئيف هي العنصر الآمن، فقد أحبها وأخلص لها طوال حياته وكان أقرب الناس إليها في مرضها، ولم يتخل عنها، في وطنه الحقيقي كما قالت أمه الفلسطينية:

"لقد انجرف مع الطوفان، ورسى على شاطئ الأم اليهودية، التي كانت بالنسبة له هي الوطن الحقيقي، وليس فلسطين أو إسرائيل"[3].

ولعلنا نلاحظ هنا رغبة ميخائيل في تخطي حدود الوطن إلى ما هو أسمى، إلى الأمومة أو الأرض الحقيقية الآمنة، ولكن السؤال هنا، لماذا كانت الأم اليهودية هي الوطن الحقيقي وليست العربية؟ هل لأنها التي ربته؟ أم أنه انحياز من جانب الكاتب لبني جنسه؟ أم تأصيل للوجود الإسرائيلي وتأثيره في المنطقة؟ إنها تساؤلات لم يكف الإجابة عنها باسم الرغبة أو الدعوة لتخطي حدود المعقول والكف عن الصراع باسم الإنسانية، في إجابات لا يمكن قبولها بالنسبة لطرف سليب الحقوق والأرض رغم محاولات ميخائيل للمساواة بين الطرفين، ورغم إيجابية الصورة التي ظهرت عليها الأم الفلسطينية هي الأخرى حتى وإن ظلت الأم الفلسطينية تبكي ابنها طوال تسعة عشر عامًا:

"لقد بكيت طوال تسع عشرة سنة، آلاف من الليالي والأيام"[4].

لا سيما وعندما وجدته لم تستطع الحوار معه، ففي أول لقاء بينهما كان زئيف يتحدث الإنجليزية مع أبيه رشيد، بينما هي لم تعرف تلك اللغة، التي وقفت حائلاً بينهما، فكم كانت في شغف لمعرفة ماذا يقول ابنها التي افتقدته طوال هذه السنون، لذا فقد قررت أن

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'23).
(٢) שם، (עמ'27).
(٣) שם، (עמ'57).
(٤) שם، (עמ'55).

تتعلم الإنجليزية من أجل ابنها :

"لقد قررت أن أتعلم. إنني مثل إنسان استيقظ فوجد نفسه في قلب البحر وحيدًا، فكان عليه أن يصل إلى الشاطئ وهو يسبح. فإما أن يتعلم السباحة أو يغرق. إن شاطئي هو الدراسة "[١].

لقد تخطيت الصعاب وتعلمت الإنجليزية في الكبر، وتمكنت منها من أجل ابنها، في لا تعرف العبرية وهو لا يعرف العربية، ومع ذلك صارت بينهما علاقة وطيدة وقوية وتبادلا الخطابات فيما بينهما، أما ابنها فقد شعر بانجذاب شديد نحوها :

"شعرت برابط شديد نحوها "[٢].

ومن خلال تلك التضحيات التي تحملتها الأم الفلسطينية يمكن القول : "لقد بقى صوت الأم الفلسطينية في هذه الرواية هو الدوي الهائل الذي يسمع من بين الأصوات الأخرى. . . فقد استجابت لقلبها وتمكنت من الإنجليزية وتحولت إلى ناشطة سلام، وأعادت بمبادرتها تلك العلاقة مع ابنها البكر "[٣].

وبعدها، تتعدد لقاءات زئيف بأمه العربية التي تخبره بأن اسمه الحقيقي "بدير" :

"بدير، هذا هو اسمك. . . فهو يذكرني دائمًا بالبدر في السماء. ياليتك تعلم، كم بحثت عنك بين النجوم "[٤].

وإمعانا في معاني الأمومة النبيلة، حاول ميخائيل أن يبعث برسالة مفادها أن الأمومة أسمى من أي صراع أو أية أيديولوجية. فقد وجدت الأم ضالتها، وحاولت التقريب بين "بدير/ زئيف " وأخوتيه "سناء وكريم "، ولم ترغمهما على هذا، بل فكرت في العيش بمكان محايد بعيدًا عن الصراع والقوميات، وكانت على استعداد للتضحية بأيِّ شيء دون أن تتنازل عن أبنائها الثلاثة :

"الآن، ليس في استطاعتها التنازل عن زئيف، كما ليس في استطاعتها التنازل عن سناء وكريم. . . ولكنها مستعدة لترك بيتها مرة أخرى من أجلهم. . . إنها على استعداد للعيش في مكان محايد. ولكن أين؟ ومن يقبلها؟ فالعالم العربي مخلص لفلسطين وملئ

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'55).
(٢) שם، (עמ'73).
(٣) יפעת וייס: שיבה בהמשכים، שם.
(٤) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'87).

بالفلسطينيين. وأوروبا بعيدة وباردة. وبالتفكير مرة أخرى أدركت أن هذا حل أحمق "[1].

ولكن ميخائيل يحاول باسم الأمومة والإنسانية، أن يبتعد عن الواقع الحقيقي. فقد هيئ له أن الأم الفلسطينية تستطيع أن تترك وطنها وأرضها من أجل الأمومة، وهي التي تدفع بأبنائها إلى الموت من أجل الوطن السليب، حتى وإن كان هدف ميخائيل هو السمو بالإنسانية ودرء الصراع، فإن هذا يتناقض مع رغبة آلاف الأمهات الفلسطينيات في الشتات في العودة إلى أرضهن.

ومن جانبه "بذل زئيف كل ما في وسعه من أجل أن يحمل بكل حب وقوة ذلك الحمل الممزوج غير الممكن، منذ أن دخلت أمه نبيلة إلى حياته، حيث صارت علاقتهما حيوية وعظيمة في مقابل الواقع الفلسطيني الإسرائيلي الوحشي والمستمر، حيث الاحتلال من جانب والمقاومة من جانب آخر. لقد حاول ميخائيل أن يعكس واقع الأرض الدموية التي يعيش عليها شعبان "[2]، من خلال أمين لابن واحد نجح في حبهما وجمعهما معًا، ولم يكن لديه سؤال ماذا يفعل ولما كل هذا:

" لقد كان شغلها الشاغل طوال الوقت هو، هل يشعر بأنني أمه أم لا؟ فما كان في عينيي ريفاه كان أيضًا في صوت تلك المرأة، رجاء وتضرع من جانب وخوف من جانب آخر "[3].

وهكذا، كانت الأمومة طاغية فوق الصراع وسامية فوق الأيديولوجيات دفع بها ميخائيل كرسالة لكل الأمهات لكي يحافظن على أبنائهن. ولكن يبقى السؤال، في أي اتجاه دفع بهذه الرسالة، هل إلى الجانب الفلسطيني أم الإسرائيلي؟ وهو سؤال نستطيع الإجابة عنه إذا لاحظنا أن أحلام الأمومة في هذه الرواية، تتناقض مع أحلام الأبوة التي مات بسببها الأب الفلسطيني:

" رشيد رجل، شكلت وعيه الثقافة الذكورية، فقد نما في قصر من الأحلام العربية، إمبريالية فخمة، مقاتلوها غلاظ أشداء "[4].

أما أحلام الأمومة في أحلام تنبذ الماضي الذي بنى بالدم والنار وتفكر في الحاضر

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'134).

(٢) יעל פניני: יונים בטרפלגר، שם.

(٣) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'72).

(٤) שם، (עמ'56).

والمستقبل: "لقد أرادت أن ينصت إلى لغة أحلامها، أحلام أم وليست أحلام ماضي بنى ودمر بالدم "[١].

وهكذا نستطيع القول بأن هذه الرسالة قد تكون موجهة للأم الفلسطينية فحسب، وهو أمر يتناقض مع حقيقة الصراع وتداعياته كما جاء بها ميخائيل. وقد تكون موجهة للأمومة، بصفة عامة، التي يمكن من خلالها أن نرى كيف يكون الوطن وكيف نتماثل مع الأمومة، "التي هي من وجهة نظر ميخائيل الاحتمال الوحيد للتغلب على التقسيم الشائع لدى الرجال الذي يقسم العالم إلى شطرين هما الأشرار والضحايا. والبحث عن أمر آخر . . . وبناء على ذلك فهو يصنع مواجهة بين النساء اللاتي يبعثن الحياة وبين الرجال الذين يقتلون الحياة "[٢].

(٣) ازدواج الهوية:

لم يعتني ميخائيل، في هذه الرواية، بالقضايا الشائكة الممتدة عبر عقود عديدة منذ بدء الصراع بقدر ما حاول التحذير من هذا الصراع على المستويين النفسي والاجتماعي، لذا فقد جاء لنا ببطل أشبه بالجبل الذي يحمل فوق كاهله هموم وطنين، إن صح التعبير، بحكم انتمائه بالنشأة إلى المجتمع الإسرائيلي، وبالدم إلى المجتمع الفلسطيني. فقد كانت اللحظة التي عرف فيها "زئيف/ بدير" أنه فلسطيني بمثابة الصدمة التي شطرته إلى نصفين متضادين يحملان من الحروب والذكريات والتاريخ والأحداث والعنف والثكل ما يدفعهما إلى الدوران في حلقة مفرغة من الكراهية والانتقام.

"إن كل أنواع الأساطير المتعلقة بالتضحية ألقيت على كاهل هذا البطل، لاسيما وأنه الضحية الحقيقية في هذه الرواية وهو يبحث عن حقيقة هويته، فهو في الواقع نبراس الثكل الفلسطيني الإسرائيلي، سواء أكان يهوديًا أم عربيًا "[٣].

"لقد وقع زئيف بين ثقافتين، إحداهما فلسطينية والأخرى إسرائيلية، ورغم أنه يشعر بكينونته اليهودية والإسرائيلية، إلا أنه تكيف مع الأسرتين ومع الثقافتين . . . فأقام علاقة حميمة مع أمه الفلسطينية، وعاش بسلام مع أسرتيه. وهذا كله يمثل خلفية للصراع في تلك

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'56).

(٢) שם، (עמ'4).

(٣) יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، שם.

الـبقعة مـن الأرض: أعمـال المقاومة، وانفجار حافلات، وعالم من المحتلين في مقابل من احتلت أرضهم"[1].

وقـد حـاول ميخائيل من خلال هذا البطل أن يجر طرفي الصراع إلى حوار غير ممكن بل ومستحيل من خلال فانتازيا أو صياغة لشخصية مزدوجة الهوية لم تحسم بعد كينونتها، هل هـي فلسطينية أم إسرائيلية؟ إنه انعكاس حقيقي وطبيعي لحالتي الصراع والاحتقان في كلا المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلي.

"ويمكن القول، إن هذه الرواية حملت الكثير من الرؤى المتعددة، فالقصة الإسرائيلية، وكـذلك الفلـسطينية همـا قـصة واحـدة يعـيش فيها زئيف بهوية واحدة، هي الألم واليتم فحسب... إن زئيف البطل هو نموذج، سواء أكان شخصية عربية أم يهودية، يتطلب من الجميع استيعابه، ليبقى السؤال المطروح: إلى أي حد تتشابه دماء البشر؟ "[2].

لم يكـن فـزع الانـشطار إلى جـزئين أمـرًا هيـنًا، بـل كـان لعـبة تعذب فيها "زئيف" وتـساءل، مـن أجـل مـن هذه اللعبة؛ وكيف يصبح، فجأة، فلسطينيًا مسلمًا بعد أن كان إسرائيليًا يهوديًا:

"مـن أجـل مـن هـذه اللعـبة؟ إنـني يهـودي إسـرائيلي. إذ أنني لا أستطيع أن أكون فلـسطينيًا مـسلمًا. فـإذا ارتـبطت بأسـرة نبيلة لاعتبروني في إسرائيل خائنًا، وعلى الجانب الآخر سأكون محل شك"[3].

وهكذا، يبدو أن ميخائيل وضعنا أمام جدال فلسفي، حول هوية الإنسان وهل الهوية تكـون بالنشأة أم بالدم؟ وهل من الممكن أن يحمل الإنسان هويتين معًا؟ وهل تطغى إحداها علـى الأخرى؟ إنها تساؤلات حاولت أن تجيب عنها الناقدة الإسرائيلية شيرا عنبر، ولكنها فشلت في ذلك، حيث تقول:

"أثـارت قـصة زئـيف ونهايـتها المدهـشة، موضـوعات عديدة جديرة بالبحث، فقد أثـارت أسـئلة أخلاقية فيما يتعلق بهوية الإنسان، والصراع غير المحتمل بين دولة إسرائيل والفلـسطينيين، وأظهـرت كـيف تكـون العلاقـات مخـتلفة إلى هـذا الحـد بين أبناء الأسرة

(١) דבורה רם: יונים בטרפלגר- סמי מיכאל، www.akatar.com/□_sefer.htm

(٢) יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، שם.

(٣) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'25).

الواحدة. هذه القصة تبحث في المركب أو العنصر الذي يمكن أن نعتمد عليه في تشكيل هوية الإنسان، هل هو أصل الإنسان ونسله، أم البيئة التي نشأ فيها وتعلم؟"[١].

ويحاول ميخائيل الإجابة عن هذا السؤال، في هذه الرواية، على لسان القاص بقوله:

"يولد الجميع كوعاء فارغ، والبيئة والدراسة يشكلان الفرد. أما الأصل والنسل والجذور والجينات في أمور غير مهمة، فهو إسرائيلي، ويهودي"[٢].

وهنا يحاول ميخائيل فض التنازع الرهيب في نفسية البطل المزدوج الهوية بكل سهولة ويسر، فهو يلغى الدم والنسل، ويغتصب الفرد مثلما اغتصبت الأرض، ويحكم على البطل قبل أن يحكم على نفسه، ويختار له الطريق ويحدده، لاسيما وأنه يطلق عليه منذ الصفحات الأولى للرواية "زئيف"، ولم يذكر "بدير" سوى مرتين أو ثلاثة. وربما كانت إجابة ميخائيل غير كافية أو مقنعة "فهل معنى أن زئيف نشأ وتعلم كيهودي وشعر كذلك، أنه أصبح يهوديًا، حتى وإن ولد لأسرة فلسطينية؟ وماذا تمثل الأسرة الفلسطينية في حياة زئيف؟ وإلى أي حد تكون أهميتها؟"[٣].

وتأخذ هوية البطل شكلاً معقدًا فيما يتعلق بعلاقاته مع الآخرين، ففي تصارع نفسي رهيب يخبر "زئيف" محبوبته "عانات" قبل أن يتزوجها بأنه عربي:

"لقد خدعتك وقتًا طويلاً، ولم أخبرك بحقيقة أنني عربي"[٤].

فتندهش عانات، حيث يأخذها ميخائيل في جدلية معقدة وسجال متجدد حول هل النشأة بالبيئة أم الدم، ولكنها تؤكد له على أنه يهودي حتى الثمالة:

"ما هذا؟ سألته عانات. . . ريفاه وأفرايم هما والداك الحقيقيان، لأنهما اللذان ربياك. ألم تقل لوالديك الحقيقيين أنه من العبث أن يستيقظ إنسان بعد ثمان عشرة أو تسع عشرة سنة؛ ويجد أمه التي عرفها ليست هي أمه الحقيقية، وأن الدولة التي نشأ بها هي عدوه"[٥].

وتضيف "عانات" قائلة ومعبرة في دهشة عن هذا الموقف بقولها: "ماذا أصابك

---

(١) שירה ענבר: על יונים וזאבים، שם، (עמ'3).
(٢) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'44_43).
(٣) שירה ענבר: על יונים וזאבים، שם، (עמ'2).
(٤) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'71).
(٥) שם، (עמ'72).

سيدي. إنني أحبك، ولكن يجب أن تعرف أنني لن أصبح عربية من أجلك . . . ولن أصبح زوجة لعربي "[1].

فيجيبها زئيف: "هناك في العالم ما يقرب من مائتين مليون عربي وهم ليسوا في حاجة لعربية أخرى . . . ولا يوجد من يجبرك على أن تكوني كذلك دون رغبة منك. فنحن ليسوا معنيين بهندسة الهويات "[2].

ولكن "عانات" ترى أن الأمر لا يتعلق بهويته فحسب، ولكن الأهم هو ماذا يريد زئيف نفسه؟ وكان عليها أن تتزوجه حتى تواجه علاقاته التي تقوى مع أمه الفلسطينية. ولكن زئيف يؤكد لها أن والديه الحقيقيين هما هذان الفلسطينيان: "هذان هما والداي الحقيقيان "[3].

ومن جانبها لم تقتنع عانات بتلك الهوية، بل تؤكد له على أنه يهودي إسرائيلي وأن والديه الحقيقيين هما اللذان ربياه، وأن وطنه الحقيقي هو الوطن الذي نشأ فيه وتربى على تقاليده. وهو سجال يأخذنا إلى سؤال آخر حول إلى أي مدى تصل حدود الهوية سواء أكانت يهودية إسرائيلية أم عربية فلسطينية؟ لاسيما وأن زئيف لم يحدث وأن اختار هويته فقد بقي، طوال الرواية مخلصًا للهويتين معًا ونجح في حب أسرتيه معًا.

ويمكننا القول إنه "بقي غير واضح، يتحرك في عالم القصة، قصة الواقع، دون أن ينجح في التصالح مع النفس ويحدد ذات مرة هويته، لكنه بقي مع قناعاته المزدوجة، وبنفس راضية "[4].

لقد تجرد من القيود التاريخية المكبلة؛ "فطالما أن الأمر ممكن، فقد تحرر من قيوده التاريخية المزدوجة "[5]، فمنذ تلك اللحظة التي عرف فيها حقيقته "وقد تحولت حياته إلى قرقعة بلا توقف، وخيم خطر الانهيار من فوقه "[6]، رغم أنه كان يتصرف بنوع من الحيادية المدهشة مع هويتيه الاثنتين، وكأنه ترك الواقع كي يسوقه إلى مصير لا يعرفه، فإنه اقتنع به دون أن يدركه، فلقي حتفه في نهاية الرواية بفعل تلك القيود التاريخية التي تحرر منها، وربما كان هذا هو المخرج الوحيد الذي حل مسألة الهوية للبطل الذي عانى ويلات

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'80).

(٢) שם.

(٣) שם، (עמ'72).

(٤) ב. אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל، שם، (עמ'5).

(٥) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'28).

(٦) שם، (עמ'40).

الواقع المرير الذي عاشه، واقع الصراع لشعبين يفتك كل منهما بالآخر كما يقول:

"ها هم اليهود والعرب يفتك كل منهم الآخر . . . ضحك زنيف قائلاً: إنني الآن أنتمي لكلاهما"[1].

وهكذا، حاول ميخائيل أن يعكس الواقع الحقيقي للصراع في مسألة هوية البطل المزدوجة، وهى مسألة ربما حاول أن يعكس من خلالها رغبته في نبذ هذا الواقع الأليم، وقد يكون ذلك رغبة منه في تأصيل الوجود اليهودي على هذه الأرض، خاصة وأنه لم يقو على الدفع بالبطل باتجاه الهوية العربية، فعلى العكس فإنه يميل بالبطل إلى ناحية الهوية الإسرائيلية أكثر، لاسيما وأنه يطلق عليه طوال الرواية "زئيف" وليس "بدير" وهو اسمه الحقيقي، وهو أمر يؤكد عليه ميخائيل على لسان القاص من خلال أم البطل الفلسطينية، التي اقتنعت تمامًا بأنه سيختار إسرائيل:

"لم يكن لديها شك، في أنه لو أجبر في يوم من الأيام على الخيار بينهما وبين إسرائيل، لاختار إسرائيل"[2].

وهو أمر يتضح أيضًا في صياغة ميخائيل لحوارات الهوية، هوية البطل، فعلى الرغم من أن زئيف ارتبط بأمه الفلسطينية وأحبها وأحب أخوته، وكان يتقابل مرات عديدة مع أمه "نبيلة" سرًا وتكفل بمصاريف علاجها بأمريكا، فإنها كانت أم بالتبني:

"لقد تبناها كأم، تمامًا مثلما تبنته ريفاه كابن"[3].

ولكن "نبيلة"، الأم الحقيقية، لم يعنيها ذلك فقد اقتنعت بقدرها، حيث وجدت ولدها المفقود، وهو ما تمنته فحسب، وأشفقت عليه وأدركت بفطنتها أنه في وضع صعب ومرير، خاصة وأن لديه ولدا وزوجة إسرائيلية، ووطنا ليس بالسهولة أن يهجره. إنه قدر أشبه بالطائرة الورقية التي بلا خيط، كما تقول الأم الفلسطينية في هذه الرواية:

"لدى شعور بأنني أركض وراء طائرة ورقية، ويبدو لي أنني أمسك بالخيط في يدي. هذا هو قدرنا المغبون، يا ولدى، تمامًا مثل طائرة ورقية تهبط من أعلى بدون خيط لها، ثمة خيط أي خيط"[4].

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'7).

(٢) שם، (עמ'98).

(٣) שם، (עמ'86).

(٤) שם، (עמ'101_102).

وفي إطار الحيادية التي حرص عليها زئيف كان يعترف بأن "نبيلة" هي أمه، في حقيقة لا يمكن إنكارها، وكأنه يناقض رغبة القاص في أنها أم بالتبني: "نبيلة هي أمي. إنها الحقيقة التي لا أستطيع محوها"[1].

وفي نفس الوقت، يأخذنا القاص في اتجاه مشاعر مزدوجة ومترددة، فقد كانت مشاعره تجاهها مختلفة عن مشاعره تجاه "ريفاه" الأم اليهودية:

"لم يستطع أن يشعر تجاهها بمشاعر ابن تجاه أم، مثلما كان يشعر تجاه ريفاه"[2].

ولعلنا نلاحظ مرة أخرى، أن التردد والحيرة كانت في اتجاه الهوية العربية فقط، وهو أمر يعكس نية القاص الحقيقية، التي انعكست هذه الحيرة على لسانه، وكأنه يصف زئيف وأحاسيسه من ناحية، ويؤكد على المثل العليا التي تعلمها وحالت دون إنكار أمه العربية من ناحية أخرى.

وهو أمر يأخذنا تباعًا إلى رغبة ميخائيل في تسطيح الصراع، وتهويد ما هو ليس بيهودي، حتى وإن كان إنسانًا، وهو ما يعكس أيضًا إحساسًا دفينًا لدى ميخائيل بغلبة الحق الفلسطيني على الحق الإسرائيلي، الذي يقابله في الرواية بغلبة الهوية اليهودية على الهوية العربية لدى البطل. وهو ما يتناقض أيضًا مع اعتراف ميخائيل نفسه على لسان القاص بأن البطل عربي مسلم طبقًا للشريعتين اليهودية والإسلامية:

"ماذا لو عرفوا بأن الجالس بجوارهما هو عربي مسلم طبقًا للشريعتين اليهودية والإسلامية"[3].

وربما يأخذنا هذا الأمر مرة أخرى إلى نوع من الازدواجية لدى الكاتب نفسه، الذي عاش في أحضان المجتمع العربي سنوات طوال قبل أن ينتقل إلى فلسطين ويصبح إسرائيليًا، حيث يتضح هذا في التناقض الذي وقع فيه خلال وصفه للشخصيات العربية وفى معالجته لهوية البطل، فربما يشعر القارئ، في أحيان كثيرة، أن ميخائيل نفسه هو المتحدث، وهو الذي وقع في فخ الصراع.

وربما تأخذنا هوية البطل المزدوجة أيضاً إلى الواقع الذي يعيشه عرب إسرائيل بكل مشاكله وإشكالياته، وهو الواقع الذي يفرض سؤالاً قد يصعب الإجابة عنه، هل انتماء الإنسان يكون للواقع الذي يعيش فيه أم للمكان الذي ولد فيه؟

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'172).

(٢) שם، (עמ'175-174).

(٣) שם، (עמ'179).

إن فكرة المصير المشترك التي تحدث عنها ميخائيل وصاغ من أجلها هوية البطل على هذا النحو، لم تنبع عن قناعة كاملة بحق الفلسطينيين في الصراع، فهو يساومهم على الولد والأرض، ورغم أنه من بين قلة قليلة دعت إلى إقامة دولة فيدرالية بين الفلسطينيين والإسرائيليين دون أن يحدد لنا ملامح هذه الفيدرالية، فإن تفاعلاته مع الواقع الإسرائيلي، على مدار تلك الرواية، تدفع به في اتجاه قائمة "أدباء صهيونية الحد الأدنى"، إن صح التعبير، أي هؤلاء الذين يحسبون على ما يسمى باليسار الإسرائيلي ويضعون خطوطًا حمراء لتنازلاتهم، فهم مازالوا يعيشون تحت تأثير الثقافة الصهيونية، وإن بدوا مخالفين لسياستها، وهو أمر يبدو واضحًا في الحديث الذي أجرته معه الصحفية الإسرائيلية "داليا كاربيل"، ونشرته في صحيفة "هاآرتس" تحت عنوان (أديب تحت تأثير).

وربما كانت "كاربيل" صادقة إلى حد بعيد، فلم يفق ميخائيل بعد من غيبوبة الصهيونية ولم يسلم بوضوح ويعترف بحق الآخر رغم اعترافه بندبته، وأبقى الأمر ملتبسًا، فيما يتعلق بفكرة المصير المشترك، وفيما يتعلق بهوية البطل التي صارت معضلة لم يستطع ميخائيل حلها، فقضى عليه في نهاية الرواية، في إشارة إلى يأسه من حل هذا الصراع المزمن، وصعوبة تحقق تلك الفيدرالية التي يحلم بها، وإلى الوضع المأساوي الذي آل إليه طرفا الصراع، فجرفتهما عجلات العنف دون أن يقوى أحدهما على وضع العصا في تلك العجلات.

ثالثًا: ثقافة العنف ونبذ السلام:

حاول ميخائيل، في هذه الرواية، كما قلنا سابقًا، أن يجر طرفي الصراع إلى حوارات غير ممكنة، بل ومستحيلة على أرض الواقع أو ساحة المجابهة، وفشل في هذا فشلاً ذريعًا، حيث تمكنت ثقافة العنف من طرفي الصراع، نتيجة تراكمات تاريخية حبلى بثقافة الكراهية والعنف المتبادل، حملها جيل بعد جيل، لتبقى النفس البشرية أسيرة لأحداث تاريخية حفرت في الذاكرة أيامًا من الألم والثكل واليتم، وهى أمور يصعب مداواتها برواية يكتبها أديب أو حل نظري يوقع عليه طرفا الصراع فحسب.

إنها أمور تحتاج إلى محو تام لثقافة العنف التي تغلغلت في النفس البشرية، وكادت أن تحطمها ودفعتها إلى نبذ السلام، عبر عنها ميخائيل في مساواة غريبة بين طرفي الصراع أو بين صاحب الأرض ومغتصبها، أو بين الظالم والمظلوم. وبدا أنه يسمو بالنفس البشرية التي يجب من أجلها أن نسمو فوق كل الأيديولوجيات والقوميات، ورفع شعار (شجاعة

النسيان) دون أن يحاكم السبب، ودون أن يمتلك (شجاعة الاعتراف) بأن البيت والأثاث والولد الذين صاروا لمهاجرين يهوديين جلبتهما الوكالة اليهودية إلى حيفا عام ١٩٤٨ هما لهذين الزوجين الفلسطينيين اللذين طردا من بيتهما عنوة، ليحلا ضيفين في بيتهما بعد تسعة عشر عامًا.

إن النفس البشرية التي تمتلك مثل هذه الشجاعة ـ شجاعة نسيان وطن ـ ليست بالنفس السوية، في مقابل النفس السوية التي لا تمتلك شجاعة الاعتراف بحق الغير. وهو أمر يمكننا معالجته، عبر الرواية، من خلال المحاور التالية:

(١) ثقافة العنف:

امتلأت صفحات الرواية بالكثير من مشاهد العنف المتبادل بين قوات الاحتلال الإسرائيلية وحركة المقاومة الفلسطينية التي يمثلها النشطاء الفلسطينيون، الذين يقومون بعمليات استشهادية داخل إسرائيل، ردًا على الممارسات الوحشية الإسرائيلية. وقد أرجع ميخائيل كل هذا إلى ثقافة العنف التي تلقى بظلالها على طرفي الصراع حتى تسممت الأرض وفسد الهواء:

"لم تبلغ المسيرة نهايتها بعد، فمازلنا، في نفس الوقت، في مرحلة الصقل. إننا نستخدم الكرة الأرضية كما لو كانت ساحة للتدريبات... ولتجارب القنابل والقذائف... فسممنا بهذا الهواء والأرض. وفي نهاية المسيرة ستصبح الأرض مزبلة متعفنة، يتكاثر فيها الدود والصراصير وجهيض البشر"(١).

وقد آلت الأرض إلى هذا الوضع بعدما تفشت ثقافة العنف وفشل البشر في نبذها، حتى جفت الأرض وندر الماء (السلام):

"عندما لا يوجد نبت، لا يمكن أن نحصد زرعًا. ربما لأن الأرض متعفنة، وربما لأنه لا يوجد ماء كاف، وربما لا يوجد ماء في الأصل. ولا يمكننا أن ننبت زرعًا بدون ماء"(٢).

وهكذا تبدو الأرض في حاجة إلى (سلام)، وكأن البشر يسممونها بأفعالهم، في تنبذ العنف وتدعو للسلام، ولكن البشر ينبتون بذور العنف فيحصدون الموت. هكذا، قالها ميخائيل دون أن يحاكم السبب ـ كما ذكرنا سابقًا ـ فقد تعلم زئيف من المجتمع الإسرائيلي ثقافة العنف، وعلم من خلالها أن العرب يحيكون المؤامرات ضد اليهود:

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 163).

(٢) שם، (עמ' 217).

"لقد كان مؤمنًا، كما علمه المجتمع، بأن العرب يحيكون المؤامرات للقضاء عليهم، هو وريفاه وعانات "[١].

وكانت هذه الثقافة سببًا في بناء ماض من الدم والنار:

"كانت تريده أن ينصت للغة أحلامها، أحلام أم بعيدة عن ماضٍ بني بالدم أيضًا"[٢].

وعلى الجانب الإسرائيلي كانت ثقافة العنف أعمق وأعمق، لاسيما وأنهم صانعو العنف ومحبوه؛ فيقول ريشت الأب الروحي لزئيف: "يجب أن نمحقهم... ليس هناك حل آخر "[٣].

وقد قسمت هذه الثقافة العالم إلى أثنين، هما الأشرار وضحايا الأشرار: "ينقسم العالم، يا نبيلة، إلى قسمين. قسم يعيش فيه الأشرار، والآخر يعيش فيه ضحاياهم"[٤].

وكنتيجة لهذه الثقافة صار الصراع المتشبع بالكراهية ديانة جديدة لها كهنتها الذين يقدمون مزيدًا من الضحايا على مذبح العنف:

"لقد تحولت تلك الدولة الصغيرة إلى إمبراطورية من الأخبار المفجعة حول العنف... وصار الصراع المتشبع بالكراهية كنوع من ديانة جديدة "[٥].

ولعلنا نلاحظ أن ميخائيل يطلق الأحكام المطلقة حول العنف وثقافته التي اجتاحت المجتمع دون أن يحدد من هؤلاء الكهنة القائمين على تغذية المجتمعات بتلك الثقافة، وبدا وكأنه يساوى في غرابة شديدة بين طرفي الصراع. بل إنه وضع الجانب الفلسطيني في قفص الاتهام، ولمح إلى أن الانتفاضة الفلسطينية قد أفسدت كل شيء، وكأنها قامت كنبت شيطاني لا أساس له، ولم تقم كرد فعل للممارسات الإسرائيلية الاستفزازية:

"موجة أخرى من الصراع بين الشعبين هددت ذلك الهدوء الذي حط على الجميع... حيث كانت تلك هي الشهور الأولى من اندلاع الانتفاضة، تعاظم فيها العنف بين الجانبين "[٦].

---

(١)סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'48).

(٢) שם، (עמ'56).

(٣) שם، (עמ'182).

(٤) שם، (עמ'157).

(٥) שם، (עמ'83-82).

(٦) שם، (עמ'86).

وقد ألقت هذه الثقافة بظلالها أيضًا على نفسية الأطفال الفلسطينيين، فها هو "سهيل" حفيد الأم العربية "نبيلة"، يحلم بكوابيس فظيعة منذ أن قتل صبيان من جيرانه:

"بدأت بعض التغيرات المقلقة تبدو على سهيل، منذ أن قتل صبيان في الشارع الذي يقطن فيه. فقد أخذ يعانى من كوابيس ليلية، وحكت سناء في حيرة وألم أنه عاد يتبلل في فراشه"[١].

ويعبر سهيل عن جيل كامل من الأطفال الفلسطينيين الذين يعانون من ذلك الوضع النفسي المخيف، فحالته هي حالة سبعين في المائة من جيله:

"يقولون إن حوالي سبعين في المائة من الأطفال يعانون من شيء ما أشبه بالصدمة. إن سهيل يتصرف مثل معظم أبناء جيله"[٢].

كما ألقت تلك الثقافة بظلالها على نفسية المرأة الفلسطينية أكثر نساء العالم فقدًا للأعزاء والأزواج والآباء والأبناء:

"لقد قتل اليهود أباها وزوجها. وصورت لها الثقافة، التي تغذت عليها منذ صغرها، اليهود كوحوش مخيفة، تنطلق من عيونهم نيران سامة"[٣].

ويشبه ميخائيل تلك الثقافة باللغم المزروع، الذي فات أوان التخلص منه، فانفجاره قادم لا محالة:

"تكمن المشكلة في أننا لا نعرف متى سينفجر هذا اللغم، هل عندما نخطو عليه أم عندما نرفع قدمنا من فوقه؟ . . . إن الأمر لا يختلف، فسوف ينفجر بين لحظة وأخرى"[٤].

هكذا، شبه ميخائيل ذلك الوضع باللغم، دون أن يحدد من زرعه؟ ومن الذي عبث بجيل كامل من الأطفال الفلسطينيين، الذين تشربوا تلك الثقافة عنوة، وهم يرون الممارسات الوحشية الإسرائيلية التي تجرى على أرضهم وضد وطنهم. في أمور ليس من السهولة أن تمحوها ذاكرة الأيام؛ باسم الغد والسلام ومستقبل أجيال قادمة؛ كما يدعى ميخائيل. فتقول سناء في حوار لها مع زئيف وكأنها تحاور ميخائيل:

"لن يصير سهيل رجلاً طبيعيًا ولا سعيدًا. فلست أدرى، هل يعود إليه الاستقرار

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'89).
(٢) שם، (עמ'208).
(٣) שם، (עמ'113).
(٤) שם، (עמ'121).

النفسي، ولو لمرة واحدة. . . وبعد كل هذا تركض إلينا في حماس وتتوقع أن نفتح لك ذراعينا بكل سعادة "[1].

(٢) نبذ السلام :

حرص ميخائيل في بداية روايته على عرض تداعيات الصراع وأثاره على المجتمعين، وكأنها محاولة لرأب الصدع الذي أحدثه هذا الصراع المستمر منذ عقود. وبدت ثقافة العنف، أقوى من نداء السلام الذي دعا إليه في هذه الرواية، والتي جاءت كرسالة عبر فيها عن أحلام السلام ونبذ العنف.

ولكنه فشل في ذلك لعدة أسباب، كان أهمها تسطيحه للصراع وانحيازه الواضح للجانب الإسرائيلي، وتغييبه للجانب الفلسطيني، وعدم الاعتراف بحقوقه، حيث أظهر معاناة اليهود في الماضي في مقابل معاناة الفلسطينيين في الحاضر، ولم يجرؤ على القول بأن معاناة اليهود في الماضي لا تبرر عدوانهم وظلمهم للآخرين باغتصاب حقوقهم، والظلم الذي نال منهم لا يمكن أن يصلح بظلم آخر. وبالتالي لا يصير تحقيق المستقبل الأفضل للطرفين، رهنا بسلام يغيب الطرف الآخر أو يطالبه بمحو ذاكرته تحت شعار (شجاعة النسيان) الذي تحدث عنها ميخائيل.

إن الطرف الفلسطيني لا ينبذ السلام كما حاول أن يثبت ميخائيل، بل يسعى إليه ولكنه يريده سلامًا عادلاً يعيد الحقوق إلى أصحابها. كما أن تأرجح الطرف الإسرائيلي ما بين السلام تارة والعنف تارة أخرى، يعد من الأمور التي حالت دون أن يجيب ميخائيل عن تلك الأسئلة الملحة التي طرحها في هذه الرواية. فمن المعروف، أن جوهر الشخصية الإسرائيلية يتسم بالتردد والشك تجاه القضايا المصيرية، وهى سمة تعرقل الذاتية الإسرائيلية التي تفشل دائمًا في تحديد الوجهة الصحيحة لمستقبلها.

وهو أمر يؤكد عليه السيد ياسين بقوله: " إن العقل الإسرائيلي يمر بمحنة لا شك فيها، ولعل أبلغ ما يعبر عنها ذلك الانفصام الحاد الذي ظهر تجلياته في السنوات الأخيرة بين نزعة العنف والعدوانية واتجاه ينحو إلى الخضوع لمتطلبات السلام، كحل للصراع العربي الإسرائيلي الذي بقى مشتعلاً لعشرات السنين "[2].

---

(١)סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ׳210).

(٢) السيد ياسين : محنة العقل الإسرائيلي، صحيفة الأهرام ١١-٩-١٩٩٧، (ص ٢٤).

وتؤكد عالمة النفس الإسرائيلية " عاميا ليبليخ " على هذا الواقع بقولها : "إنهم يأملون في السلام، ولكن لابد من الاستعداد للحرب القادمة "[1].

وربما يرجع السبب في هذا إلى طبيعة المجتمع الإسرائيلي المعروفة، والتغيرات السياسية المتلاحقة على الواقع السياسي في إسرائيل، حيث إن " إسرائيل تتكون من عدة أمم تتعدد فيها الأعراق والثقافات والاتجاهات الفكرية. فبالإضافة للبنية التقليدية للمجتمع الإسرائيلي من عناصر السفارديم والإشكيناز والصابرا والمهاجرين الجدد والعرب الفلسطينيين، تتزاحم داخل المجتمع الإسرائيلي وتتناحر الأيديولوجيات المختلفة، حيث ينقسم الإسرائيليون إلى يهود متشددين وقوميين ودينيين وتقليديين وعلمانيين وغير ذلك من الفئات، مما أدى إلى تشرذم المجتمع الإسرائيلي وتفتته إلى عدة ثقافات ولهجات "[2]، وهو ما جعل التعامل مع السلام بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي على اختلاف طوائفه واتجاهاته، يتم من خلال رؤى غير واضحة المعالم يملؤها التردد والشك.

وربما لهذا السبب، كان ميخائيل يدرك تمامًا صعوبة تحقيق السلام على أرض المواجهة والعنف، وفي مناخ تسيطر عليه ثقافة العنف والكراهية التي تمكنت من كلا الطرفين، ففي محاولة أخيرة لرأب الصدع، نجده يسوق أبطاله في اتجاه لندن بعيدًا عن ساحة التوتر والمواجهة، حيث يلتقي زئيف البطل اليهودي/ الفلسطيني بأمه العربية وأخواته الذين يقابلهم لأول مرة في ميدان ترافلجر بلندن الذي يشتهر بالحمائم رمز السلام، وكأنها دعوة إلى نبذ العنف باسم السلام. وهناك يلتقي الجميع بأسراب الحمام التي لا تخاف الإنسان، بل تداعبه وتقف على يديه وكتفيه، بينما يخاف الإنسان منه ويبتعد عنه.

وربما كان اختيار ميخائيل لهذا الميدان يشير إلى دلائل كثيرة، وهو الميدان الذي شهد معركة (الطرف الأغر) الشهيرة والتي قادها نيلسون ضد الأسطوليين الفرنسي والأسباني منذ ما يقرب من مائتي عام، وامتلأت ساحته بالدماء وجثث البشر، وتحول في الوقت الحاضر إلى رمز للسلام. وهو اختيار يطرح تساؤلات عديدة، أهمها هل السلام يعقب الحرب؟ وهل من الممكن أن يقوم السلام على أنقاض البشر؟ وهل من الممكن أن نتخذ من هذا المكان عظة ودرسا بأن الحروب لا جدوى لها وأن الحروب مهما طال أمدها فإن

---

(١) د. رشاد عبد الله الشامي : عجز النصر – الأدب الإسرائيلي و حرب ١٩٦٧، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٠، (ص ١٠).

(٢) د. محمد خليفة حسن : الشخصية الإسرائيلية واتجاهاتها نحو السلام، صحيفة الأهرام ١١ ـ ٩ ـ ١٩٩٧.

الإنسانية أبقى وأعظم؟ لاسيما وقد تحول هذا الميدان إلى ساحة الهدوء والجمال، وإلى رمز للسلام، يزوره آلاف السائحين لينشدوا فيه ترانيم السلام ويبكون فيه آلاف البشر الذين راحوا ضحية للحروب التي لا طائل منها.

لقد جاءوا جميعًا من ساحة القتال والتوتر، إلى ساحة الهدوء والجمال الذي تميزت به لندن، فلعل ذلك يشجعهم على السلام والحب:

"لقد جاءوا من المدينة التي عانت من الحصار والاعتقالات والغلق، تلك المدينة التي تحولت إلى ساحة من القتال، والآن يتمتعون بمشاعر الهدوء الذي حط عليهم جميعًا" (١).

وهكذا يبعث ميخائيل بأول رسالة للسلام إلى الجانب الفلسطيني، وكأنه هو الطرف المتعنت الرافض له، ويعقد مقارنة بين رام الله ولندن، حيث العنف والقتال وإغلاق المناطق في مقابل الهدوء والحرية. وهي رسالة سلام لطرف واحد، كان أولى به أن يبعثها إلى الجانب الآخر الذي فرض الحصار وتمرس بالعنف:

"كانت السماء صافية، وتمتلئ بأسراب الحمام الذي يرطب بأجنحته حرارة الجو الملتهب... حيث كان الميدان يضج بالحمام والبشر... وكان الحمام يرفرف بجناحيه ويهبط مستقرًا على الرؤوس والأكتاف والأذرع، لكي يلتقط الحب من فوق أيديهم"[٢].

وفي غمرة السعادة والفرح يصاب "سهيل" بهستيريا الفزع من الحمام، فقد أفزعته رفرفة الحمام وصوته:

"أبعد ذراعيه وصرخ في هستريا... فقد أفزعته رفرفة الحمام بأجنحته... وأخافته صرخات الفرح التي كانت تطلقها نهاد وأصابته بالفزع"[٣].

وهكذا، كانت ثقافة العنف التي عاشها ذلك الطفل الفلسطيني، وشكلت وجدانه، وأثرت بالسلب على حالته النفسية، سببًا رئيسيًا في نبذ السلام والابتعاد عنه فإذا كان الأمل في السلام من أجل هؤلاء الأطفال، أبناء الغد، فما جدوى ذلك وقد نثرت بذور الخوف في نفسيتهم. ويعلق أحد النقاد الإسرائيليين على هذا الموقف بقوله: "لقد التقت الأسرتان في

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 203).

(٢) שם، (עמ' 207).

(٣) שם.

نهاية الأمر . . . وداعب الجميع أسراب الحمام فيما عدا سهيل ابن سناء الذي يعانى نفسيًا منذ ولادته في واقع من العنف والخوف من الانتفاضة "[1].

ولعلنا نلاحظ هنا، أن الخوف ارتبط فقط بذلك الحفيد الفلسطيني الصغير، في إشارة إلى أن الانتفاضة خلفت جيلاً معيبًا، كما ذهب ذلك الناقد الإسرائيلي، وهو أمر يخلط الأمور ويبعدنا عن السبب الحقيقي لهذا الوضع المعوج الذي يبحث له ميخائيل عن مخرج. ولكنه يبتعد عن المخرج بابتعاده عن الحقيقة التي تقول. إن الممارسات الوحشية لجيشه في المناطق المحتلة هي التي خلقت هذه النفسية المعيبة وجعلتها تنبذ السلام غير القائم على العدل وإرجاع الحقوق، حتى إن ميخائيل نفسه لم يضع تصورًا لذلك السلام، سوى رفعه لشعار (شجاعة النسيان).

وتتضح عدم حيادية ميخائيل في انطلاق نداء السلام في الجانب الفلسطيني، وكأنه هو الجانب الوحيد الذي ينبذ السلام ويرفضه، ففي روايته هذه، تتبع الأم العربية نداء قلبها، "وتتعلم الإنجليزية وتصبح ناشطة للسلام ومتحدثة فلسطينية، وتعيد الاتصال المفقود مع ابنها البكر "[2].

في حين أن هذه الرواية تنتقص الرجل الفلسطيني الذي ينبذ السلام، ويعشق الإرهاب -كما يسميه ميخائيل- "ففي هذه الرواية يعطى ميخائيل لنبيلة وابنتها سناء حق التعبير عن نفسهما، ولكن في ظل شروط صارمة، فكل منهن فقدت زوجها بفارق سنوات معدودة بين الواحدة والأخرى. وفقط حين يموت الرجل الفلسطيني، أو هكذا مطلوب من القارئ الإسرائيلي أن يعتقد، تنتعش المرأة الفلسطينية، حيث يبدو الرجل في هذه الرواية، كنمط متطرف يستخدم الإرهاب كبديل عن الرجولة، إن لم يكن تعويضًا عن عجزه "[3].

وهكذا عزف ميخائيل على نغمة العمليات الاستشهادية، وربما كان أول أديب إسرائيلي يضم كلمة "إرهابي" إلى قاموس الأوصاف العربية -كما ذكرنا سابقًا- وهكذا صارت أعمال المقاومة إرهابًا ونبذًا للسلام، وبخلط المفاهيم تتغلغل الكراهية في النفوس ويستعد كل طرف لمحو الآخر كما يقول زئيف بطل الرواية:

" يحلم كلا الشعبين بنفس الحلم، فكل طرف يحلم بأن يستيقظ في الصباح ويجد الطرف

---

(١) דורון רייך : בתגובה לכתבה שיבה בהמשכים، עיתון הארץ، 2005/ 245.

(٢) שם.

(٣) שם.

الآخر قد اختفى من الوجود ومحي تمامًا. والفارق الوحيد هو أن كثيرين لدينا يخجلون من البوح بهذا، وينهرون هؤلاء الذين يتحدثون عن ذلك علنًا. أما بالنسبة للجانب الفلسطيني، فإن الأغلبية تفخر بهذا الحلم، بصفة خاصة، وتستعد للموت من أجله. لقد أكد أبي على هذا، وبكلمات واضحة، وقال لي إن أخي سيحاربني حتى تزهق روحي وروحه، ومن أجل ماذا؟ من أجل هذا الحلم "[1].

وهكذا، وجد ميخائيل أن هناك صعوبة في تحقيق السلام على أرض الواقع، فهناك حاجز نفسي أو جدار فاصل من الذكريات والأحداث والعنف يحول بين الطرفين دون تحقيقه، وهو ما عبر عنه ميخائيل على لسان القاص في وصفه لحديث زئيف البطل مع أخته الفلسطينية "سناء" وهو يحاول التقرب منها:

" إلى أي شيء كان يشير؟ هل إلى قيوده؟ أم إلى قيودها؟ أم إلى قيود شعبين تجاوزا طريق الموت، أما هو وهي فقد وقعا في الشرك معًا في منتصف هذا الطريق "[2].

(٣) مشروع قبرص:

ولما استعصى الحل على ميخائيل في البحث عن مخرج لهذا الصراع المزمن، نجده يسوق أبطاله مرة أخرى بعيدًا عن ساحة القتال والتوتر خارج أرض المعركة، فيفاجئنا البطل بمشروع قبرص، ذلك المشروع اليوتوبي الذي يدعو فيه الأصوات العاقلة من كلا الطرفين إلى الحوار والتعالي على ذلك الصراع المجهد، حيث ينوى إقامة مشروع ضخم في قبرص يعمل فيه الفلسطينيون والإسرائيليون معًا:

" قطع رنين التليفون مشاوراته مع الخبراء بشأن مشروع قبرص الذي يشاركه فيه شمايل، ورجل أعمال فلسطيني مهاجر في ألمانيا، ورأسمالي سعودي يقضي معظم أيامه بلوس أنجلوس "[3].

ووجد زئيف أن هذا المشروع هو الأمل الوحيد في حياته بعد أن تضاءلت فرص التعايش على أرض الواقع:

" لقد آمن زئيف بأن هذا المشروع من أهم المشروعات في حياته "[4].

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'110-109).
(٢) שם، (עמ'99).
(٣) שם، (עמ'103).
(٤) שם.

وعمل على تحقيق ووهب له كل ثروته، وبدأ في تنفيذه:

"بالإضافة إلى هذا الفندق الضخم الذي بدأ في بنائه بالفعل، فقد صمم هناك أيضًا في الوادي الأخضر المنحدر إلى البحر ما بين ليمصول ولارنكا منتجعات رائعة، ومركزًا صحيًا تابعًا لمستشفى كبير، تعمل فيه أطقم طبية من قبرص وإسرائيل وفلسطين"[1].

ولا ندرى لماذا اختار ميخائيل قبرص لإقامة هذا المشروع اليوتوبى. ربما لأن قبرص تشتهر بعملية التزاوج المدني بين الأفراد، ورأى ميخائيل أن هناك صعوبة في تحقيق هذا التزاوج الذي يحلم به على أرض الواقع فذهب بأبطاله إلى هناك.

ويعلق أحد النقاد الإسرائيليين على هذا المشروع بقوله: "يتوتر الشعور فقط حينما نقرأ حول المشروع اليوتوبى الذي يريد زئيف الابن أن يقيمه في قبرص، فهو يحلم بجزيرة يمكن للأطراف العاقلة من الطرفين أن تلتقي فيها وتتعالى على هذا الصراع المحلى. إن اليوتوبيات مزعجة بطبيعتها، غير أن يوتوبيا التآخي بين الرأسمال اليهودي والحرفانية العربية الفلسطينية، أي بين النشاط الاستثماري اليهودي وبين القوى العاملة الفلسطينية الماهرة، هي مزعجة على نحو خاص. فهل التمسك اليهودي بالمناطق هو البديل الفعلي لنزاع استعصى على الحل؟"[2].

إن هذا المشروع الخيالي الذي جاء به ميخائيل في هذه الرواية ليس أكثر من تعبير صارخ عن كآبة الصراع ومقته واستمراريته في نفس الوقت، دون منتصر أو مهزوم، وتعبير عن فشله في تصور حل لمثل هذا الصراع، الذي يهدأ فقط أحيانًا لكنه لم ينته، ويبدو أنه لن ينتهي:

"لم تنته الحرب بعد. فمازلنا نذبح بعضنا البعض. ومن السابق لأونة أن نفكر في هذا، فمازالت الزجاجات الحارقة هنا، والحجارة هناك، وما أن ينتهي هذا الأمر، حتى يبدأ مرة أخرى. إنه صراع لن ينتهي يا بنى، فهو متواصل، يهدأ مرة ويشتد مرة أخرى، لكنه لم ينته ذات مرة. إنك يا زئيف تبنى يوتوبيا، وتريد أن تقيم على أرض غريبة ما لم ننجح في إقامته هنا"[3].

ولعلنا نلاحظ هنا، مرة أخرى، اتهام الجانب الفلسطيني بعرقلة جهود السلام، فقد

---

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 103).

(٢) דורון רייך: בתגובה לכתבה שיבה בהמשכים، שם.

(٣) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 103).

ذكر ميخائيل الحجارة والزجاجات الحارقة فقط، وتجاهل الممارسات الإسرائيلية الوحشية في المناطق المحتلة، والغارات الإسرائيلية، وعمليات التصفية، كسبب رئيسي في استمرارية الصراع واحتدامه. لذا، فقد وضع ميخائيل نفسه في مأزق عسير عندما اختار أن يجرى حوارًا فحسب بين طرفين متنازعين طلب منهما الترفع عن الماضي، والتحلي بشجاعة النسيان، دون أن يحدد لنا وجهة الحقوق المغبونة، ودون أن يحدد لنا صراحة، من الظالم والمظلوم، وهو حوار لا يمكن أن يقوم بغض الطرف عن ممارسات طرف دون الآخر، وتغييب طرف من أجل الآخر، ولا يمكن أن يقوم ما لم تكن هناك شجاعة الاعتراف بحق الآخرين في الوجود، ورد حقوقهم المغتصبة كاملة، وقتها يمكن أن يكون للحوار جدوى، ولشجاعة النسيان مثوى.

لقد ظل زئيف يدافع عن مشروعه بكل حماس، وحاول أن يقنع به "شمايل"، والآخرين ممن يعارضون هذا المشروع فهو يقول:

"لقد أجريت دراسة عن غرف العمليات في إسرائيل، ووجدت أن هناك أطباء يهود وعربا يعملون معًا منذ زمن. فهل تعلم كم عدد اليهود الذين زرعت في أجسادهم أعضاء عربية، وكم عدد الأعضاء اليهودية التي زرعت في أجساد عربية؟ لقد زرت مستشفيات في حيفا، ونهاريا وبير شيفع. صدقني، شمايل، لا يوجد سبب يعوق نجاح هذا المشروع في قبرص"[1].

ويعلق ب. الموج على حماس زئيف لهذا المشروع بقوله: "لقد أصبحت حياة زئيف/ بدير الفلسطيني/ اليهودي، في نهاية الأمر، كنوع من التراجيديا، فلم يعد مهيأ للبحث عن حل حقيقي، ولا يوجد أمامه سوى هذا الحلم اليوتوبى بإقامة مركز فلسطيني إسرائيلي في قبرص (كما لو أنه ترانسفير تطوعي لمن سأم مصاعب الحياة في تلك الأرض المقدسة)"[2].

لقد تشبث زئيف بالأمل الكبير في أن يحل السلام في نهاية الأمر:

"ربما يحل السلام في نهاية الأمر، ويجد الأطفال بأنفسهم الطريق الذي يؤدى للمصالحة بينهم"[3].

(١) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'104).

(٢) ב. אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל، שם، (עמ'4).

(٣) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'135).

فيفاتح أمه الفلسطينية في المشروع ويتمنى مشاركة أخوته جميعًا، بالإضافة إلى عبد الوهاب صديق الأسرة:

"فكرت في أن سناء وكريم يستطيعان المشاركة في هذا المشروع. فإذا كنت تثقين في عبد الوهاب، فهو أيضًا يستطيع مساعدتنا، سواء كإعلامي أو كصاحب قدرة تنظيمية"(1).

فلم تتحمس الأم الفلسطينية لهذا المشروع، فهم في حاجة إلى وطن آمن وبيت دائم:

"عبد الوهاب تجول كثيرًا، مثلي ومثل أختك وأخيك. الثلاثة في حاجة إلى وطن، وبيت دائم"(2).

ولكن زئيف يرى في ذلك حلاً مرضيًا، فهم في حاجة إلى مكان محايد:

"قبرص ليست بعيدة. وسوف أكون معكم في أغلب الوقت. إننا نستطيع أن نعيش على أرض محايدة"(3).

ومرة أخرى نجد ميخائيل يضع نفسه في تناقض آخر، يهدم الأسس الرئيسية التي بنى عليها روايته، فهو يعلم تمامًا أن زئيف البطل هو في الأصل عربي ودعوته لأسرته الفلسطينية لترك وطنهم هي دعوة للترانسفير، لاسيما وأن زوجته الإسرائيلية رفضت هذا المشروع ورفضت حتى هويته العربية، وربما يكون هذا المشروع صدى لأصوات إسرائيلية دعت إلى استغلال الأراضي العربية الشاسعة لتوطين اللاجئين الفلسطينيين بدلاً من استمرارية الصراع، وهو ما أكد عليه ميخائيل على لسان البطل في الرواية:

"لدى كثير من الأموال نستطيع أن نشترى بها بيوتًا جميلة، أجمل ممن كنتم تعيشون فيها"(4).

وباسم الأمومة تقتنع "نبيلة" بهذا المشروع وتدفع "كريم" ابنها وزوجته الجديدة "زهوة" إلى المشاركة فيه، كما لو أنها تتعلق بآخر أمل بعدما فقدت القدرة على تحمل هذا الصراع، بينما تتمسك "سناء" بموقفها الرافض لهذا المشروع، فقد فضلت الصراع والموت على ترك وطنها واعتبرته ترانسفيرًا:

"إذا لم يكن هذا ترانسفيرًا، فماذا يسميه أخونا من حيفا، . . . إنه مكيدة، فما معنى

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'194).

(2) שם، (עמ'195).

(3) שם.

(4) שם، (עמ'196).

أن ينتقل الفلسطينيون إلى قبرص . . . حسن ، فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم ، إلى قبرص ، عبد الوهاب وكريم وابنته ، جميعًا "[١] .

" بمساعدة نبيلة وزهوة واصل كريم وعبد الوهاب الخطوات الأولى لمشروع قبرص الذي صار أكثر وقعًا وقوة "[٢] .

مرة أخرى يمكن القول ، إن المبادرات التي أطلقها ميخائيل في هذه الرواية ، تتجه ناحية الجانب الفلسطيني ، إلى الأسرة الفلسطينية ، فلماذا لم يوجه دعوته هذه إلى عانات زوجة زئيف الإسرائيلية ، التي رفضت قطعيًا مجرد الاعتراف بأسرته العربية؟ ولماذا يحث فقط الشخصيات الفلسطينية على سماع صوت العقل والحكمة ، ويتجاهل الشخصيات الإسرائيلية على الجانب الآخر؟ فإذا كان يبحث ، حقيقة ، عن مخرج للصراع فإن صوت العقل والحكمة على هذا النحو لا يأتي على حساب ممن فقدوا وطنهم وسلبت حقوقهم ، فقد كان أولى بميخائيل أن يملك (شجاعة الاعتراف) بتلك الحقوق ، لكنه أبى أن يعترف خشية أن يؤثر ذلك على حبه لإسرائيل كما قالها صراحة على لسان زئيف في هذه الرواية :

" إذا كنت أتودد إلى نبيلة وأختي وأخي ، فلم يكن هذا على حساب إسرائيل أو أديف أو عانات "[٣] .

وربما كان موت الشقيقين في نهاية الرواية ، مأزقًا آخر وقع فيه ميخائيل وأبعده كثيرًا عن فكرة روايته التي حاول من خلالها الإيماء بفكرة المصير المشترك ونبذ العنف والتعالي على الصراع ، وكشف عن نيته الحقيقية في تفضيل الترانسفير كحل ، المستفيد الوحيد منه هي دولته ، لاسيما وقد دفع بشخصيات فلسطينية فقط إلى قبرص بعد موت البطل وأخيه الفلسطيني ، فقد بدأ عبد الوهاب بالفعل في العمل بقبرص ، وسيلحق به كريم وزهوة بعد شهرين أو ثلاثة (الرواية ص ٢٥٠) وتحسنت حالة " سهيل " الصحية في قبرص (الرواية ص ٢٦١) ، أما " نبيلة " و" سناء " ، التي تعنتت في الذهاب إلى قبرص ، فقد وقفتا على شاطئ البحر في قبرص يلعنان فلسطين وإسرائيل :

" وقفت كلتاهما على شاطئ البحر في قبرص . . . وأخذت نبيلة تلعن إسرائيل وفلسطين اللتين على الجانب الآخر من البحر "[٤] .

---

(١)סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'230_229).

(٢) שם، (עמ'214).

(٣) שם، (עמ'237).

(٤) שם، (עמ'260).

الخاتمة

من خلال ما سبق نستطيع استنتاج ما يلي :

(١) ترصد هذه الرواية بكل دقة واقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والأبعاد النفسية والاجتماعية لهذا الصراع في كلا المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلي.

(٢) طرح ميخائيل في هذه الرواية أسئلة أخلاقية ملحة. فيما يتعلق بأطروحات السلام والصراع، ولكنه لم يستطع الإجابة عنها، وبدا واضحًا انحيازه للجانب الإسرائيلي.

(٣) حاول ميخائيل وضع الحقوق الإسرائيلية على قدم المساواة مع الحقوق الفلسطينية المسلوبة، تحت دعاوى المصير المشترك والقدر المحتوم. وهى محاولة غير عادلة فيها غبن للحقوق الفلسطينية، وتسطيح لإشكالية الصراع.

(٤) جاءت صورة (الآخر) الشخصية العربية الفلسطينية على غير النمط الشائع لدى الأدباء العبريين، فهي شخصية ندية وقوية. ولكن ميخائيل لم يستطع الخروج عن الطوق فجاءت صورة الآخر العربي في منتهى السلبية، كعادتها في الأدب العبري، ومختلفة تمامًا عن الواقع الذي عاشه ميخائيل في البيئة العربية، مما يمكن القول إن ميخائيل افتقد المصداقية الأدبية في هذه النقطة.

(٥) لم يجب ميخائيل عن كل الأسئلة التي طرحها في الرواية. فقد آثر أن يكون محذرًا، على أن يكون منصفًا، ودعا الطرفين إلى التحلي بشجاعة النسيان، وهى دعوة لا يمكن قبولها في ظل وجود ذاكرة مليئة بالذكريات والأحداث التاريخية التي تحول دون رأب الصدع بين الجانبين.

(٦) عبر ميخائيل عن ضيقة من حلول السلام في تلك البقعة من الأرض، ومن ثم لم يخرج لنا بتصور واضح لما يبتغيه من الجانبين، خاصة وأنه لم يعرض لإشكاليات الصراع المتداولة في الأدب العبري، ولكنه تعامل مع الواقع الحقيقي لتداعيات الصراع فحسب.

(٧) عبر ميخائيل بصورة غير مباشرة عن فكرة حل الصراع من خلال دعاوى توطين الفلسطينيين في الأراضي العربية الشاسعة، وهى محاولة تخرج به عن مضمون الهدف الذي كتب من أجله الرواية وتحدث عنه.

(٨) لم يستطع ميخائيل حل لغز هوية البطل، فاختار الإجابة الخطأ، فمات البطل تعبيرًا عن صعوبة الحل بالنسبة لميخائيل، أو تعبيرًا عن الوضع الشائك الذي آل إليه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.



المحتويات